موسوعة

الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب السادس



تأليف
علي باپير

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقّحة

دار الحكمة
لندن

هذا الكتاب

هو الكتاب السادس من موسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله) والتي يسر الله الوهاب الكريم لي تأليفها في ضوء أنوار كتابه المبارك، في غضون (22) شهراً، التي أمضيتها في سجن: (كروبر الأمريكي) من: (2003/7/10 الى: 2005/4/28م).

وخصَّصنا هذا الكتاب بموضوع الإيمان برسل الله تعالى وأنبيائه الكرام «عليهم الصلاة والسلام».

فتحدَّثنا عن أولئك الصَّفوة المختارة من البشر، تحت هذه العناوين العشرة:

- معنى الإِيمان بالرسل والأنبياء الكرام، «عليهم السلام» وهل هناك فرق بين الرسول والنبيِّ؟
- عدد الرسل والأنبياء.
- الرسل والأنبياء المذكورة أسماؤهم في القرآن.
- مدى جواز التفاضل بين الأنبياء والرسل.
- من هم أولو العَزْم من الرسل؟
- المساحة الواسعة لقصص الرسل والأنبياء في كتاب الله، وحكمتها.
- صفات ومزايا الرسل والأنبياء «عليهم الصلاة السلام»، وتوضيح مانُسِبَ إليهم من أخطاء، في كتاب الله تعالى.
- وظيفة الرسل والأنبياء، «عليهم الصلاة والسلام».
- أوصاف ومواقف أتباع الرسل والأنبياء، وأعدائهم.
- بحث حَوْل الوحي: الحادث الأَبرزُ والمنعطف الأساس في حياة الأنبياء الكرام «عليهم الصلاة والسلام».



DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution

88 Chalton Street
London NW1 1HJ
Tel: 44 (0) 20 7383 4037

Email: hikma_uk@yahoo.co.uk
Web site: www.hikma.co.uk

ISBN
978 1 78481 086 3

مَوْسُوعَةُ

الإسلام كما يتجلى
في كتاب الله

الكتاب السادس

الإيمان
برسل الله
تعالى وأنبيائه
عليهم الصلاة
والسلام

تأليف
علي باپير

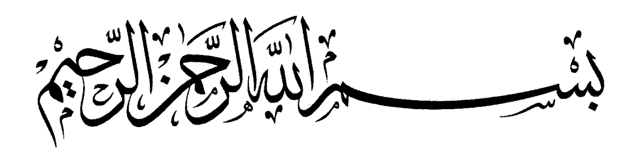
دار الحكمة

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

الإيمان بِرُسل الله تعالى وأنبيائه
عليهم الصلاة والسلام


بسم الله الرحمن الرحيم


ameer.maktab@yahoo.com
/AliBapir
/AliBapir
/MediaAmeerOffice
www.alibapir.net

موسوعة: الإسلام كما يتجلى في كتاب الله

الكتاب السادس

ا يمان بِرُسل الله تعالى وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام

ameer.maktab@yahoo.com

 /MediaAmeerOffice  /AliBapir  /AliBapir

www.alibapir.net

تأليف

علي باپير

الطبعة الثانية
١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir

/AliBapir

/MediaAmeerOffice
www.alibapir.net

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى
ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾

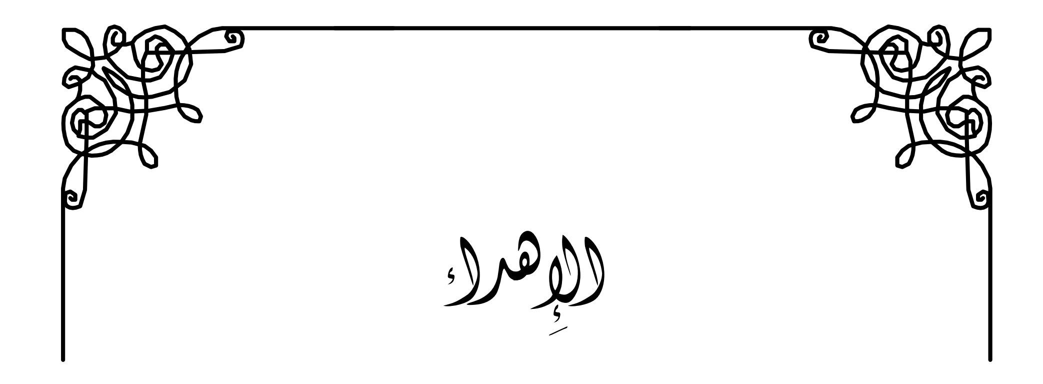
[النساء].

ameer.maktab@yahoo.com





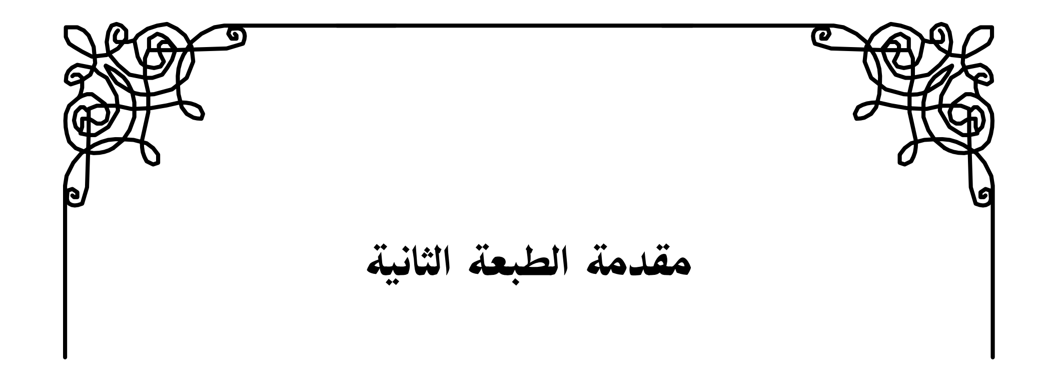




الإِهداء

إلى الذين يبتغون فقه الإِسلام بعمقٍ وشمولٍ، كما في كتاب الله العظيم وسنة رسوله الكريم ﷺ لِيُجَسِّدُوه في حياتهم الشخصية والأُسَرِيَّة والعامة، ابتغاء رضوان الله سبحانه وتعالى.





مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله العلي القدير، والصلاة والسلام على النبيِّ البشير النذير، محمد وآله الكرام «صحباً وأزواجاً وقرابةً» الذين هم جديرون بكل تكريم وتقدير.

وبعد، فقد ارتأينا إعادة طبع هذه الموسوعة: (الإسلام كما يتجلى في كتاب الله)، بعد طبعتها الأولى، (**في صورة كتاب في ثمانية مجلدات «موزَّع على أربعة أبواب وسبعة عشر فصلاً»**) في سلسلة كتب مجموعها: اثنا عشر كتاباً، كل كتاب يحتوي على موضوع رئيسي.

والنتيجة:

أصبح توزيع مواضيع الكتاب على الكتب الإثني عشر، في هذه الموسوعة، على الشكل الثاني:

الباب الأول بفصوله الأربعة، والمعنون: (**الإسلام: معرفة صحيحة بالخالق والخلق**) بقي كما هو، وصار:

الكتاب الأول، في هذه الموسوعة.

الباب الثاني بفصوله الستة، والمعنون: (**الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر**) تحول في هذه الموسوعة الى سبعة كتب، كل كتاب مُخصَّصٌ لبحث موضوع أساس من مواضيع الإيمان، وذلك بعد أن جعلنا الفصل الخامس: (**الإيمان برسل الله وأنبيائه**) فصلين، ففي الأول

منهما: بحثنا موضوع الإيمان بالرسل والأنبياء «عليهم السلام» عموماً، وفي الثاني منهما، تحدَّثنا عن خاتم النبيين «ﷺ» خصوصاً، فصار الباب الثاني في هذه الموسوعة بهذه الصورة:

الكتاب الثاني: مفهوم الإيمان والكفر...

الكتاب الثالث: الإيمان بالله سبحانه وتعالى...

الكتاب الرابع: الإيمان بالملائكة وبالجن.

الكتاب الخامس: الإيمان بكتب الله سبحانه وتعالى.

الكتاب السادس: الإيمان برسل الله وأنبيائه «عليهم الصلاة والسلام».

الكتاب السابع: خاتم النبيين محمد «ﷺ».

الكتاب الثامن: الإيمان باليوم الآخر.

الباب الثالث بفصوله الثلاثة، والمعنون: **(الإسلام: إلتزام جادّ بالشريعة على الصعيدين الفردي والجماعي)** تحول في هذه الموسوعة الى ثلاثة كتب، بالصورة التالية:

الكتاب التاسع: الإهتداء بهدى الله تعالى..

الكتاب العاشر: إلتزامُ المجتمع بدين الله تعالى...

الكتاب الحادي عشر: تطبيق المجتمع للشريعة...

الباب الرابع بفصوله الأربعة، والمعنون: **(الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم)** بقي على حالِهِ، وصار الكتاب الثاني عشر والأخير، في هذه الموسوعة بالشكل التالي:

الكتاب الثاني عشر: الإسلام: نظرة سديدة تجاه الناس، وتعامل صحيح معهم.

وقد راعينا في ترتيب هذه الكتب الإثني عشر «في ثلاثة وستين (٦٣) فصلاً» التسلسل المنطقي المتدرج: إذ الإنسان يحتاج قبل كل شيءٍ، المعرفة

بهذا الوجود، ومحلِّهِ هو في إعرابهِ، فجاء الكتاب الأول: بعنوان: (الإسلام: معرفةٌ صحيحة بالخالق والخلق) تلبيةً لهذا المطلبِ الفطريِّ الأول.

ثم تُنْتِجُ المعرفةُ الصحيحة بالوجود ـ طالما التزم صاحِبُها بمقضياتها المنطقية ـ الإيمان بالله الخالق الرب المالك، وبقية أركان الإيمان الخمسة، فجاءت الكتب: الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن، تحت عنوان: (الإسلام: إيمانٌ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) تحقيقاً لهذا المقصد العظيم، وبياناً لتلك الحقائق الكبرى، التي وضعَ فيها كتاب الله الحكيم النقاط على الحروف، ولم يُحْوِجْنا في إدراكها الى غيره.

ثم ان الإيمان الصحيح بالله تبارك وتعالى، وببقيَّةِ أركان الإيمان الأساسية، يدفعنا الى الإلتزام بدين الله القيِّم، وشريعته الحكيمة، فجاءت الكتب: التاسع والعاشر والحادي عشر، تحت العنوان العام: (الإسلام: إلتزامٌ جادٌّ بالشريعة على صعيدي: الفرد والمجتمع) لتوضيح كيفية التزام الفرد والمجتمع والدولة بالشريعة السّمحاء، بهذه العناوين الثلاثة، للكتب الثلاثة:

١ ـ الإهتداء بهدى الله، أو الإلتزام الفردي بشريعة الله تعالى.

٢ ـ إظهار الدين الحق، أو التزام المجتمع بدين الله تعالى: فكراً وشعائرُ وآداباً.

٣ ـ تطبيق المجتمع للشريعة في جميع جوانب الحياة.

ثم أخيراً: بعد المعرفة الصحيحة، والإيمان الراسخ، والإلتزام الجاد بالشريعة، بإمكان المسلمين: أفراداً ومجتمعاً ودولةً، أن يتعاملوا مع الناس: المسلمين وغير المسلمين، على أساس النظرة السَّديدة إليهم، بصورة شرعية صحيحة، بعيدة عن الإفراط والتفريط، وبيان هذا الموضوع تكفّل به الكتاب الأخير، الثاني عشر، والذي جاء بعنوان: (الإسلام نظرة سديدة تجاه الناس، وتعاملٌ صحيح معهم).

وفي المُحَصِّلة: بيّنا من خلال هذه الموسوعة ـ بِكُتُبِها الإثني عشر ـ تجلية كتاب الله الحكيم المبارك للإسلام:

١ ـ معرفةً صحيحة بالوجود (الخالق والخلق).

٢ ـ وإيماناً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٣ ـ والتزاماً بالشريعة على المستويات الثلاثة: فرداً ومجتمعاً ودولةً.

٤ ـ وتعاملاً صحيحاً مع الناس، على أساس نظرة سديدة تجاههم.

والهدف الأساس من هذا العمل «طبع هذه الموسوعة بهذه الصورة» هو تسهيل وصولها الى القراء، وتيسير حصولهم على أي موضوع يرغبون فيه منها.

وجديرٌ بالذكر أننا أبقينا «في هذه الطبعة» على أكثرية الإحالات الى الأبواب والفصول والمباحث والمطالب، على حالها الذي كانت عليها في الطبعة الأولى.

وكذلك أبقينا على كل من هذه العناوين الثلاثة:

١ ـ (مُبَشِّرة حول هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ الى: (مُبَشِّرةٌ حول هذه الموسوعة).

٢ ـ (قصة تأليف هذا الكتاب) بعد أن غيَّرناهُ الى: **(قصّة تأليف هذه الموسوعة)** والتي شرحنا فيها: كيفية الشروع بهذا العمل في السجن الأمريكي، وكيفية انبثاق خطة الكتاب في خطوطها العريضة، من آيات سورة الفاتحة السبع المباركات، وسبب تقسيمه الى أربعة أبواب في سبعة عشر فصلاً.

٣ ـ (المقدمة) والتي غيَّرناها الى: (مقدمة هذه الموسوعة).

وسَنُدْرِجُها في بداية الكتاب الأول من هذه الموسوعة، لارتباطها بكل الكتب الأخرى المضمَّنة لها، ونكتفي بهذا عن تكرار إدراجها في بداية الكتب الأخرى.

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يَسُدَّ بهذا الجهد، ثغراتٍ كثيرة، في فهم كثير من المسلمين لدينهم القيِّم، وأرجو أن تَحْظى هذه الموسوعة، بأن تكون لبنة في بناء صرح المشروع الإسلامي المنشود.

وآمل ألّا يَبْخَل عليَّ القرّاء الكرام، بملاحظاتهم وتنبيهاتهم، وأشكرهم جزيل الشكر مسبقاً.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

١/ رجب ١٤٣٦ هـ
٢٠ نيسان ٢٠١٥م
أربيل /كوردستان ـ العراق









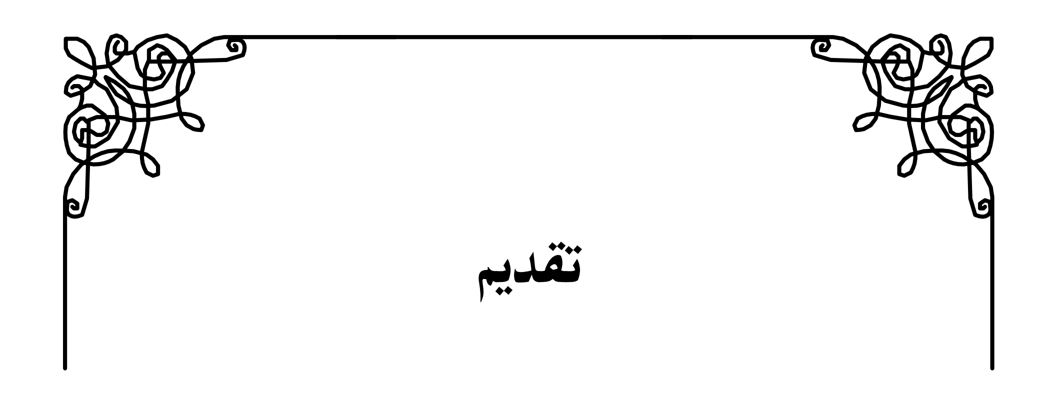

/MediaAmeerOffice
www.alibapir.net

ameer.maktab@yahoo.com









تقديم

إنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْده اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَن لاَ إلَهَ إلاّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أَمَّا بَعْدُ: فإنَّ أَصْدَقَ الحَديث كَلامُ الله، وَخَيْرَ الْهَدِي هدْيُ مُحَمَّد، وَشرَّ الأُمُورِ مُحْدَثاتُها، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَة، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّار.

بعد أن صدر أمرُ الله الحكيم بإسكان الإنس والجن على الأرض، لأداءِ الإمتحان المُتَمثِّل في حمل أمانته، وخلافته في الأرض، اقتضت حكمتُهُ ورحمتهُ إرسالَ هدايته، وتَوْجيهه المتجسِّد في كتبه ورسالاته، من خلال مجموعة مصطفاة من البشر، وهم رسل الله وأنبياؤه: صفوة الله

وخيرته في خلقه، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

وخصَّصْنا هذا الكتاب السادس بفصوله العشرة، للحديث عن أنبياء الله ورسله الكرام «عليهم الصلاة والسلام»، وكيفية التعامل معهم: إيماناً بهم،واتِّباعاًلهم، واقتداءً بهم، وتحلِّياً بفضائلهم، وتأدُّباً بآدابهم، وتخلّقاً بِخلُقهم.

وحِكَمُ الله الحكيم في إرساله للأنبياء والرسل، كثيرة جداً، منها: الأخذ بيد البشر «وكذلك الجن» نحو حياة طيِّبة لائقةٍ بخلفاءِ الله في أرضه، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

ومنها: إتمام الحجة على الناس وإعذارهم، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥].

وقد انتقد الكفار المعارضون لمنهج الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، كونَ أولئك السفراء الكرام من البشر، واستغربوا هذا الأمر أَشدَّ الإستغراب، كما حكاه الله ﷻ عنهم: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر: ٢٤].

وقال تعالى مُعلِّلاً عدم إيمان الناس الكفار بالأنبياء الكرام:﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: ٩٤].

مع أن ما فعله الله الحكيم عز وجل، كان هو الأمر المعقول المنطقيَّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

إذ لولم يكن الأنبياء والرسل من البشر، كيف كان يكون التفاهم والتعامل بينهم وبين المرسل اليهم، من الجن والإنس؟

أَجل: لقد جاء أُولئك الصَّفوة الصالحون المصلحون، حاملين

لرسالات الله ومبلِّغين إياها للناس، وذلك من خلال تجسيدهم لها، وتطبيقها تطبيقاً كاملاً في حياتهم الشخصية والأسرية والإجتماعية، وذلك كي يكونوا قدوة للناس، كل الناس، بجميع شرائح مجتمعاتهم، في كافة مجالات حياتهم الخاصة والعامة، في كيفية العبادة لله الأحد، وخلافته في أرضه، وحمل أمانته، وبالنتيجة: الفوز برضوانه الذي هو الغاية الكبرى في الوجود: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

٤ رجب ١٤٣٦ هـ
٢٣ نيسان ٢٠١٥م
أربيل



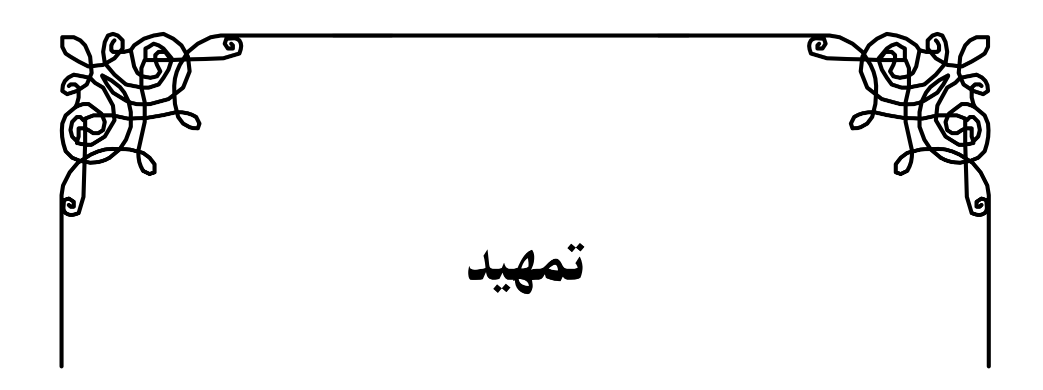
ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



تمهيد

الإيمان برسل الله تعالى وأنبيائه الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام، هو الركن الرابع من أركان الإيمان ـ كما ذكرناه من قبل أيضاً ـ حسب الترتيب الذي جاء في الآية (٢٨٥) من (البقرة): ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾، والآية (١٣٦) من (النساء): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

وقد نَبَّهْنا سابقاً على أن هذا الترتيبَ، ترتيبٌ مُتَدَرِّجٌ منطقي، إذ الله تبارك وتعالى يُرسل سفراءه الملائكة، بكتبه ووحيه إلى الرسل والأنبياء عليهم السلام، وفي نهاية المطاف ينتظر الكلَّ: اليومُ الآخِرُ للحساب والجزاء.

وسنفصِّل القول ـ بتوفيق الله تعالى ـ في الإيمان بالرسل والأنبياء المُصْطَفين عليهم السلام، في عشرة فصول، هذه عناوينها:

١) معنى الإيمان بالرسل والأنبياء الكرام، وهل هناك فرق بين الرسول والنبي؟!

٢) عدد الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام.

٣) الرسل والأنبياء المذكورة أسماؤهم في القرآن.

٤) مَدىٰ جواز ذكر التفاضل بين الرسل، وبين الأنبياء.

٥) من هم أولو العزم من الرسل؟

٦) المساحة الواسعة لقصص الرسل والأنبياء في القرآن الحكيم وحكمتها.

٧) صفات ومزايا الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام، وتوضيح ما نُسب إليهم من أخطاء في كتاب الله.

٨) وظيفة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام.

٩) أوصاف ومواقف أتباع الرسل والأنبياء عليهم السلام وأعدائهم.

١٠) بَحْثٌ حول الوحي.

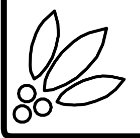
ونبدأ مُستعينين بالله الكريم تبارك وتعالى، بالفصل الأول:





الفصل الأول

معنى الإيمان بالرسل والأنبياء الكرام، وهل هناك فرق بين الرسول والنبي؟!



ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net

بالنسبة لمفهوم الإيمان بالرسل والأنبياء عليهم السلام، نقول باختصار:

الإيمان بالرسل والأنبياء عليهم السلام، يعني: التصديق التام بإرسال الله تعالى وبَعْثه إياهم على الكيفية التي بيَّنها الله تعالى في كتابه الكريم، وبالوظيفة التي حدَّدها لهم، ثم التعامل معهم كما يليق بهم وبيَّنه كتاب الله الحكيم، من حيث:

١ ـ التأمُّلُ والتدبُّر في قصصهم الواردة في كتاب الله، وأَخذُ العِبَر والعظات منها.

٢ ـ الإتِّباعُ لطريقتهم والتأسِّي بهم في مواقفهم.

٣ ـ التأدُّب بآدابهم والتخلُّق بأخلاقهم الفاضلة الرفيعة.

كما قال تعالى:

١) ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

٢) ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ...﴾ [يوسف: ١١١].

٣) ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ...﴾ [هود: ١٢٠].

٤) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ...﴾ [الأنعام: ٩٠].

٥) ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ...﴾ [الأحقاف: ٣٥].

والمخاطب الأول بهذه الآيات، هو رسول الله الأعظم ونبيه الخاتم ﷺ، ولا شكَّ أنَّنا أَوْلى وأحْرى بذلك وأحوج إليه.

هذا بالنسبة للإيمان بالرسل والأنبياء عليهم السلام، وأما بالنسبة للفرق بين الرسل والأنبياء، أو الرسول والنبي، فنقول:

بما أن كتاب الله الحكيم استعمل كلاً من لفظ: (الرسول، الرسل) و(النبي، النبيين)، فلا بدَّ أن يكون هناك فرق بين مفهوم (الرسول) و(النبي)، وذلك لأن الإيجازَ أهمُّ وجوه البلاغة في الكلام، واستعمال لفظين أو أكثر بمعنى واحد، ينافي الإيجاز، وكلام الله في قِمَّةِ البلاغة والفصاحة.

وهذه بعض الآيات التي ذُكِرَ فيها كل من لفظ (الرسول) و(النبي):

١ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ...﴾ [الحج: ٥٢].

٢ ـ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ [الزخرف: ٧].

٣ ـ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ...﴾ [الأحزاب: ٤٠].

٤ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر].

وواضح من هذه الآيات أن كلاً من الرسل والأنبياء عليهم السلام، قد أرسلهم الله تعالى إلى الناس، لِذا فليس صحيحاً ما قيل: بأن الفرق بين

النبي[1] والرسول، هو أن الرسل كلِّفوا بتبليغ الرسالة إلى الناس، ولكن النبيين لم يُكَلَّفوا بذلك!

فما هو الفرق إذاً بين الإِثنين؟!

الذي يبدو لي من خلال استقرائي لآيات كتاب الله الحكيم، والموارد التي استعملت فيها كلمتا (الرسول) و(النبي)، أو (الرسل) و(النبيون أو الأنبياء) هو أن الفرق بينهما:

أن (الرسول) له كتاب ورسالة خاصة به، ولكنَّ (النبي) يتبع رسالة الرسول الذي أرسل قبله أو معه، ودليلي على هذا، هو أن كتاب الله استعمل لفظ (النبي) لأنبياء بني إسرائيل كثيراً، ومعلوم أن أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام، كانوا مُلْتزمين بالتوراة التي أُنزلت على موسى عليه السلام، وبالتالي كانوا مُتَّبعين لموسى، وهذه بعض الآيات بهذا الصَّدد:

١ ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ...﴾ [المائدة: ٤٤].

٢ ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا...﴾ [المائدة: ٢٠].

٣ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ [البقرة: ٢٤٦].

(١) (النبيّ) إمّا من (النبأ) لأن النبيّ يُخْبِرُ عن الله تعالى بالوحي أو يُخْبِرُهُ الله، أو من النَّبْوَة، وهي المرتفع من الأرض لأن (النبيّ) له مكانة وامتياز عن سائر الناس لإيحاء الله تعالى إليه، انظر: (مفردات ألفاظ القرآن) لراغب الأصفهاني، ص٧٨٩، ٧٩٠.

وبناءً عليه نقول:

إن كل رسولٍ نبيٌّ، وكذلك كلُّ نبيٍّ رسولٌ، ولكن بالمعنى العام لكلمة الرسول، وليس بمعناه الخاص، والذي يعني: صاحب رسالةٍ مستقلَّة، إلّا أنّ رسالة الرسول مستقلَّة، ولكن رسالة النبي تابعة ومقيَّدة، إذ هو تابعٌ لرسالة الرسول الذي أُرسل قبله أو معه، وأعطي كتاباً مستقلاً ورسالة خاصة.

ومثال ذلك (هارون) مع أخيه (موسى)، إذ كان موسى رسولاً ونبّياً، ولكن كان هارون نبياً فقط، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم]. وكذلك (يحيى بن زكريّا) مع (عيسى بن مريم) عليهما السلام، إذ قال تعالى في تعريف (يحيى) عند تبشير أبيه (زكريّا) به عليهما السلام:

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران].

ومعلوم أن الكلمة التي صدَّق بِها يحيى، يقصد بِها (عيسى) عليه السلام، وسُمِّي بذلك لأنه تكوَّن بكلمة الله تعالى، من غير أب وعلاقةٍ زوجية.

فسمَّى الله تعالى (يحيى) التابع لعيسى عليهما السلام ـ من حيث الرسالة ـ نبياً، ولكن سمَّى (عيسى) عليه السلام رسولاً، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ...﴾ [آل عمران].

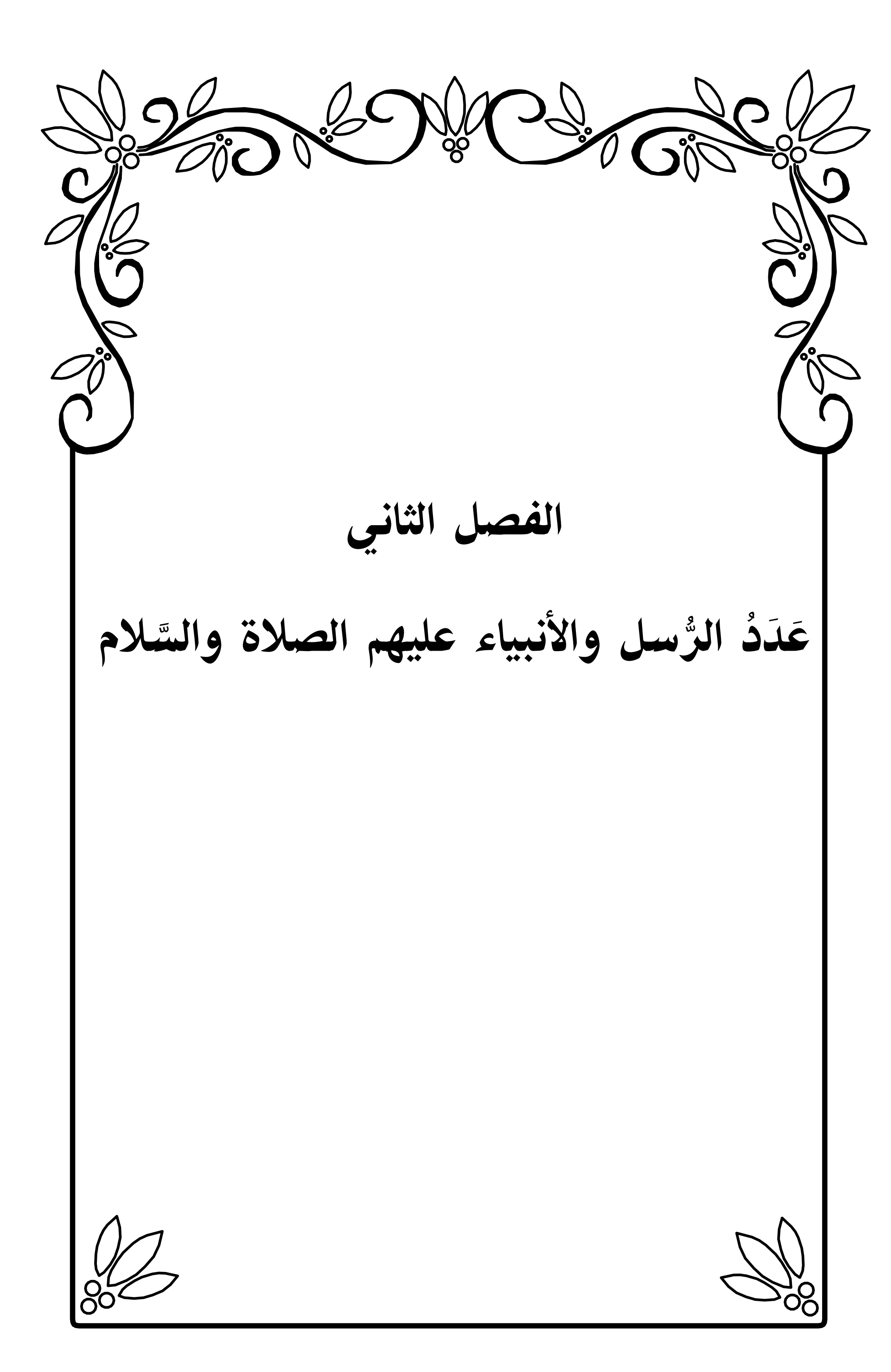
ومنْ أجْلِ إيضاحٍ أكثر لما سبق، نقول:

إن كلمة (الرسول) لها مَعْنيان: معنى عامٌ، وهو: الشخص الذي أرسَلَهُ الله تعالى، وأمَرَهُ بإيصال رسالته الى الناس، سواء كانت تلك الرسالة مُسْتَقِلَّةً، أو تابعةً ومُقيَّدةً، ومعنًى خاصٌ، وهو الشخص الّذي أرْسَلَهُ الله تعالى، وأَمره بإبلاغ رسالته المستقلَّة الخاصّة به الى الناس.

إذاً:

كلُّ رسولٍ نَبيٌّ، وكذلك كلُّ نبيٍّ رسولٌ بالمعنى العام لِلرّسولِ، ولكن ليس كلُّ نبيٍّ رسولاً، بالمعنى الخاص للرسول.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



الفصل الثاني

عَدَدُ الرُّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام

ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net

لم يُحدِّدْ كتابُ الله الحكيم عدَدَ الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى إلى الإنس والجن، من آدمهم إلى خاتمهم، عليهم أفضل الصلوات وأتم التسليمات، بل اكتفى سبحانه وتعالى بِذكر أسماءِ عَدَدٍ منهم وهم الأقلية، وأما بالنسبة للآخرين منهم، والذين يمثلون الأكثرية، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦﴾ [الزخرف]، فقد أشار إليهم عموماً، وأخبر نَبيَّه الخاتم ﷺ بأنه لم يقصَّ عليه قصص قسم من المرسلين، وكلمة (المرسلين) أو (الرُّسُل) يشمل مفهومها كل الذين أرسلهم الله تعالى، سواء كانوا من أصحاب الرسائل والكتب المستقلة أو التابعة، ولكن عندما ترِدُ كلمتا (الرسول) و(النبي) في سياق واحد، تأخذ كل منهما مفهومها الخاص، وهذا حسب قاعدة: اشتمال مفاهيم الكلمات بعضها على بعض، عند ورودها منفردة، واختصاص كلّ منها بمفهوم خاصٍ، عند ورودها مقترنة بعضها ببعضٍ في سياق واحد.

وهذه بعض الآيات التي ذكر الله تعالى فيها أسماء بعض الرسل والأنبياء، وأشار إلى البقيّة إشارة عامة:

١) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ...﴾ [غافر: ٧٨].

٢) ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ

﴿وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ١٦٣ وَرُسُلًا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلًا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ١٦٤﴾ [النساء].

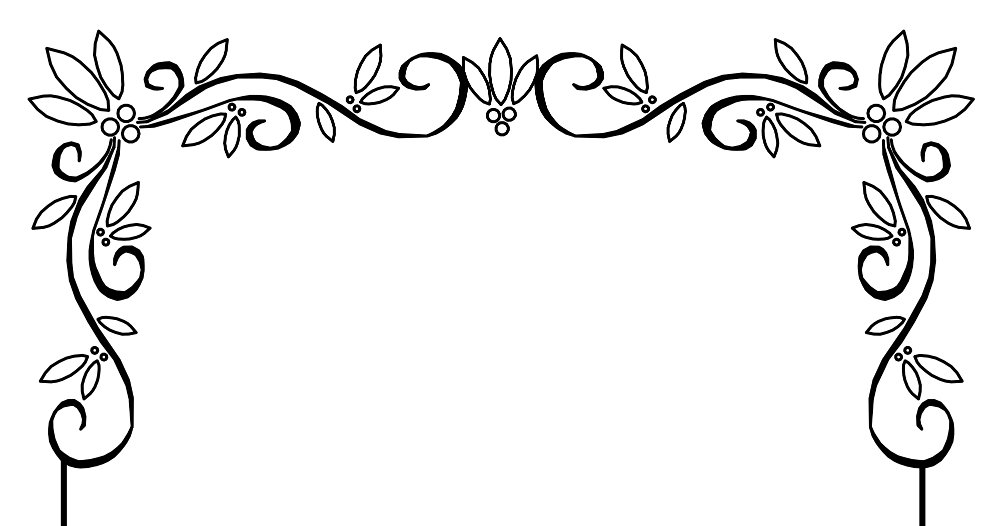
٣) ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٧﴾ [الزخرف]. هذا وهناك حديث نبويٌّ ذكر فيه عدَدُ الأنبياء والرسل الكرام على جميعهم الصلاة والسلام وهذا هو نصُّ الحديث:

عن أبي ذر ﷺ قال: «**قلت يا رَسُول الله! ﷺ أيُّ الأنبياء كان أوَّلَ؟ قال: آدم، قلت: يَا رَسُولَ الله وَنَبيٌّ كَانَ؟ قَالَ: نَعَمْ، نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ قلت: يَا رَسُولَ الله! كَم المُرْسَلوُن؟ قال: ثَلاَثُ مِائَةٍ وبِضعة عَشَرَ جَمًّا غَفِيراً**»

وفي رواية عن أبي أمامة قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله، «**كَمْ وَفَّى عِدَّةُ الأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفاً الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلاَثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيراً**» (رَوَاهُ أَحْمَد برقم: (٢٢٣٤٢)، وَالطَّبَرَانِيُّ برقم: (٧٨٧١)، قَالَ الهَيثمي: رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن خليد الحلبي، وهو ثقة، وَالحَاكِمُ برقم: (٣٠٣٩)، وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْط مُسلم، وَصَحَّحَهُ الشيخُ الألباني.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑





الفصل الثالث

الرُّسل والأنبياء المذكورة أسماؤهم في القرآن

ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net

الرُّسل والأنبياء الكرام الذين ذكر الله تعالى أسماءَهم الشريفة في كتابه الحكيم، سواء منهم من قصّ علينا قصصهم، أو الذين اكتفى بمجرَّد ذكر أسمائهم، هُم المذكورون في هذه الآيات الكريمات:

١) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران].

٢) ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم].

٣) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ...﴾ [الأعراف: ٦٥].

٤) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ...﴾ [الأعراف: ٧٣].

٥) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ...﴾ [الأعراف: ٨٥].

٦) ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ

كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام].

٧) ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص].

٨) ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ...﴾ [الفتح: ٢٩].

وهم حسب ترتيبهم من حيث التسلسل الزَّمني، حسبما يبدو:

١ - آدم عليه السلام.

٢ - إدريس عليه السلام.

٣ - نوح عليه السلام.

٤ - هود عليه السلام.

٥ - صالح عليه السلام.

٦ - شعيب عليه السلام.

٧ - إبراهيم عليه السلام.

٨ - لوط عليه السلام.

٩ - إسماعيل عليه السلام.

١٠ - إسحاق عليه السلام.

١١ - يعقوب عليه السلام.

١٢ - يوسف عليه السلام.

١٣ - موسى عليه السلام.

١٤ - هارون عليه السلام.

١٥ - أيوب عليه السلام.

١٦ - يونس عليه السلام.

١٧ ـ إلياس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٨ ـ ذو الكفل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٩ ـ اليسع عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢٠ ـ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢١ ـ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

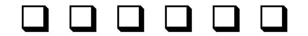
٢٢ ـ زكريّا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

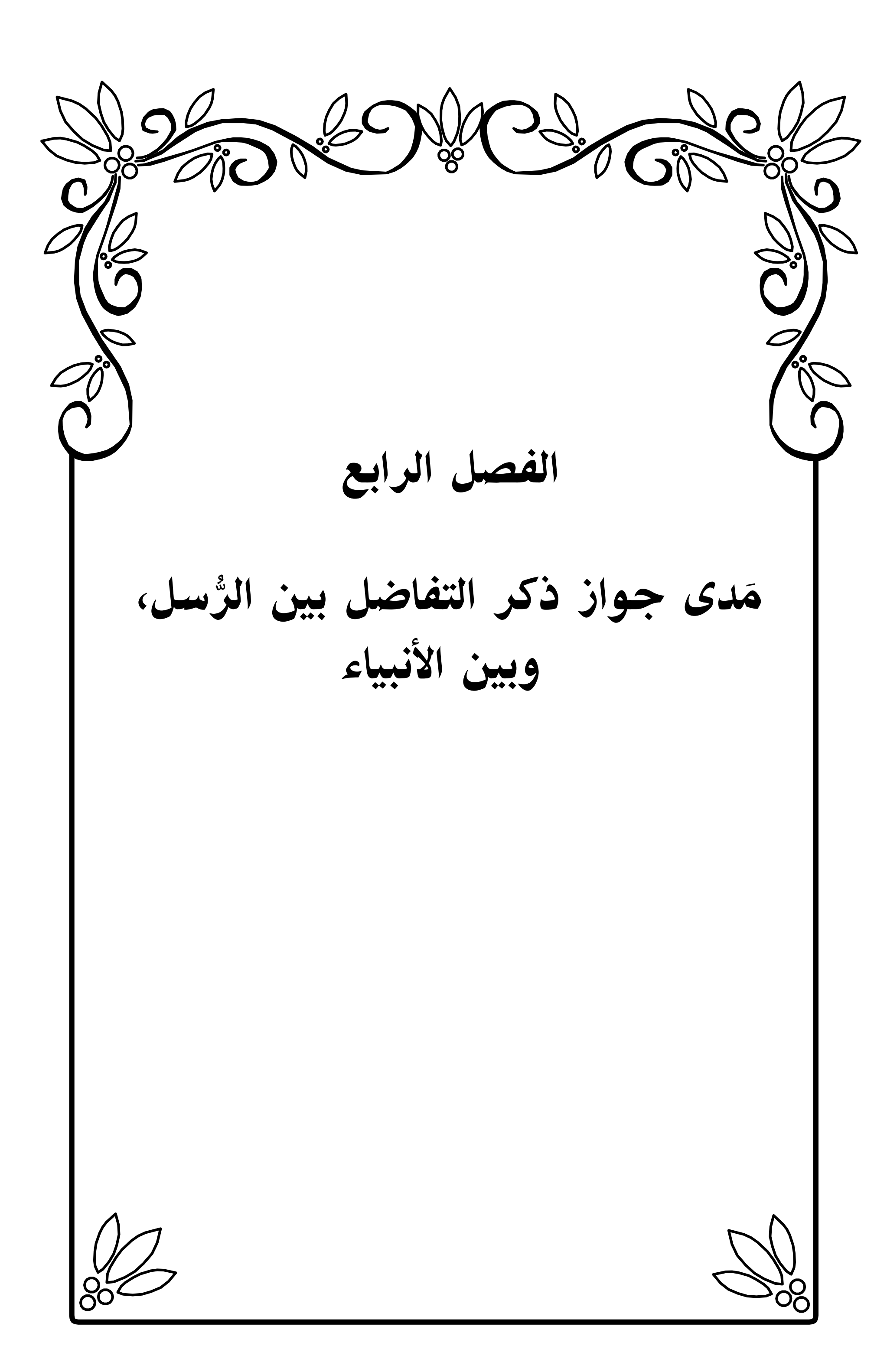
٢٣ ـ يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢٤ ـ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢٥ ـ محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسَّلام.

وأما بالنسبة لـ(لُقْمان) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، والذي ذكر الله تعالى اسمه في [لقمان: ١٢]، وكذلك (عُزَيْر) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي ذكر اسمه في [التوبة: ٣٠]، فلا يوجد دليلٌ على كونهما نَبِيَّيْن، وإلّا لذكرهما الله تعالى مِنْ ضمن مَنْ ذكرهم من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، في أكثر من موضعٍ في كتابه الحكيم ـ والله هو العليم الحكيم ـ.





الفصل الرابع

مَدى جواز ذكر التفاضل بين الرُّسل، وبين الأنبياء

ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net

لقد صرَّح كتابُ الله المبين، بوجود التفاضل بين الرسل بعضهم مع بعض، وكذلك بين الأنبياء بعضهم مع بعض، وهذه بعض الآيات بهذا الصَّدد:

١) ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ...﴾ [البقرة: ٢٥٣].

٢) ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء].

٣) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء].

٤) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء].

وهذه الآيات واضحة الدلالة على وجود التفاضل بين كل من الرسل، والأنبياء:

أما الآية (٢٥٣) من (البقرة) فبعد أن يشيرَ فيها جلَّ شأنه إلى الرسل الكرام ﷺ، يُعلِنُ أنه قدْ فضَّل بعضهم على بعض، ويُشير إلى فضل ورفعة ثلاثة منهم، وهم ـ على الترتيب الذي في الآية ـ (موسى ومحمّد

وعيسى) عليهم الصلاة والسَّلام، وهذا واضحٌ في هذه الجُمَل الثلاث:

١ - ﴿...مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ...﴾ [البقرة: ٢٥٣]، والمقصود به، موسى عليه السلام، لأن الله تعالى لم يذكر لنا في كتابه، أنه تكلَّم مع غير موسى، ولكن بالنسبة له قال: ﴿...وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء].

٢ - ﴿...وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ...﴾ [البقرة: ٢٥٣]، والمقصود به (محمد)[1] ﷺ، لأنه هو وحده الذي فُضِّل على كل الرسل والأنبياء، بمزايا اختص بها من بينهم، منها: أنه بُعث للجن والإنس كافة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، ومنها أنه هو خاتم الرسل والأنبياء، فلا نبي بعده، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب]، ومنها أنه موعود من الله الكريم بـ(المقام المحمود) كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء]، والمقام المحمود هو الشفاعة العُظمى يوم القيامة كما جاء في الأحاديث الصَّحيحة، وذلك عندما يشفع خاتم النبيين للإنس والجن كافّة لكي يبدأ الحساب وينجوا ممّا هم فيه من هول الموقف[2]، ومنها كونه صاحب أعلى درجة في الجنّة، وهي: (الوسيلة)، التي قال عنها رسول الله ﷺ أنّها لا ينبغي أن تكون إلّا لِعَبْدٍ من عباد الله، ويرجو أن يكون هو، كما جاء في صحيح مسلمٍ برقم: (٣٨٤).

٣ - ﴿...وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ...﴾ [البقرة:

(١) وقد صرَّح بهذا رسولُ الله حيث قال: (أنا سَيِّدُ وُلِد آدم يوم القيامة، وأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عنه القبر، وأوّل شافع، وأَوَّل مشَفَّع)، مسلم: ٢٢٧٨، عن أبي هريرة.

(٢) صحيح البخاري: ٤٧١٢، وصحيح مسلم: ١٩٤.

٨٧]، وهنا ذكر اسم عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صراحة.

وفي الآية (١٢٥) من (النّساء) بيَّن سبحانه وتعالى أنه اتخذ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليلاً له: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء]، ولم يذكر في القرآن أن الله تعالى اتَّخذ خليلاً غير إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذاً: فهذه مزية له على سائر الرسل.

هذا بالنسبة لوجود التفاضل ـ أي التباين في الفضل ـ بين الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وفي الآية (٥٥) من (الإسراء) أخبر سبحانه وتعالى أنه قد فضَّل النبيين على بعض:

﴿...وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ بعد ذكر تفضيل النبيين بعضهم على بعضٍ، تنويهٌ بمكانة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ الخاصة بين النبيين، بإعطاء الله تعالى إياه (الزبور)، وهذه الجملة القرآنية يفهم منها أن (الزبور) وإنْ كان أحَدَ الكتب الربانية الخمسة التي ذكرت أسماؤها في القرآن، وهي: (الصحف، التوراة، الزبور، الإنجيل والقرآن)، ولكنَّه لا يعتبر من الكتب الحاوية على شرائع ربانية مُستقلة، وعِلّةُ ذلك ـ كما ذكرنا من قبل ـ هي أن أنبياء بني إسرائيل، و(داود) أحدهم، كانوا كلهم يتّبعون (التوراة)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟...﴾ [المائدة: ٤٤]، والمقصود بـ(الذين هادوا) هو (بنو إسرائيل) كما هو واضح.

و(عيسى) عَلَيْهِ السَّلَامُ مستثنًى من تلك القاعدة، إذْ هو بالإضافة إلى كونه نبياً، كان رسولاً أيضاً ـ كما ذكرنا من قبل ـ ثم كان إنجيله بالإضافة إلى كونه مصدِّقاً لما بين يديه ـ أي للتوراة ـ، كذلك كان فيه بعض الأحكام الشرعية التي تختلف عمّا في التوراة، وكذلك كان فيه بيانٌ لبعض ما اختلف فيه بنو إسرائيل، وهذه الآيات واضحة الدلالة على ما قلنا:

١ ـ ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِۖ

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة].

٢ - ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ ...﴾ [آل عمران: ٥٠].

٣ - ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزخرف].

هذا بالنسبة لأصل وجود التفاضل بين كل من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام، وأما بالنسبة لـ(مدى جواز ذكر التفاضل بين أولئك الكرام الأفاضل) فنقول:

يجوز ذكر التفاضل بينهم مبدئياً، لأنَّ هذه حقيقة صرَّح بها كتاب الله الحكيم بوضوح، وخصوصاً إذا دَعَت إليه الحاجة، ولكن لا يجوز الخوض فيه إذا لم تَدْعُ إليه الحاجة، وخُصوصاً إذا خيف من حدوث شجار ونزاع بين المسلمين وبين أهل الكتاب، وحديث رسول الله ﷺ: «**لا تُفَضِّلوا بينَ أنبياء الله**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٤١٤)، كان سبب وروده وقوع شِجارٍ بين بعض المسلمين وبعض اليهود، من جرّاء خوضهم في هذا الموضوع، وتفضيل كل طرفٍ نَبِيَّه على نبي الطرف الآخر، أي (محمد وموسى) عليهما الصلاة والسَّلام، فنهى رسول الله ﷺ عن ذكر التفاضل بين الأنبياء عليهم السلام في مثل ذلك الموطن، وإلّا فإن رسولَ الله (محمداً) ﷺ هو سيِّدُ البشر، وهو أفضل الرسل والأنبياء عليهم السلام، وأرفعهم درجةً، وأسماهم مقاماً في الدنيا والآخرة، وقد صرَّح رسولُ الله ﷺ بهذا في أكثر من حديث، منها قوله: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٢٧٨).

وأما قوله سبحانه: ﴿...لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ...﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فالمقصود به من ناحية الإيمان بهم، إذ الإيمان بالكل واجبٌ، ومن أنكر نبوَّة أحد منهم، ثبتت بنصّ صحيح صريح، يكفر بإنكاره ذلك.

وجديرٌ بالذكر أنَّ الرّسل عليهم السلام، أفضل من الأنبياء عليهم السلام، وأرفع منهم مقاماً، حسبما يبدو من آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ [الحج: ٥٢]، وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم]، إذْ قُدِّم فيها ذكرُ (الرسول) على (النبي)، وهناك آيات أخرى تدلّ على هذا بأنواع أخرى من الدلالة.





ameer.maktab@yahoo.com

/AliBapir /AliBapir /MediaAmeerOffice

www.alibapir.net



الفصل الخامس

مَنْ هم أُولو العزم من الرُّسُل؟!

ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net

قال سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله (محمداً) ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف]، إذاً: فهناك رُسُلٌ أصحاب عزيمة خاصة من بين[١] الرسل الكرام عليهم السلام، أمر الله تعالى نبِيَّه الخاتم أن يقتدي بهم في الصَّبر، والعَزْم[٢] هو الثبات والرّسوخ في الموقف، وعدم التزعزع والقلق.

وقال سبحانه وتعالى عن أبينا آدم عليه السلام، بصدد موقفه الضَّعيف تجاه الشجرة الممنوعة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه]، فَنَفى عنه العَزْمَ في موقفه المذكور، وكذلك أمر سبحانه النبي الخاتم أنْ يصبر لحكم ربِّه ولا يكون كالنبي الكريم (يونس) عليه السلام: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم].

وإنَّما نهاه سبحانه عن التشبّه بـ(يونس) عليه السلام في عدم الصَّبر، لأنَّ يونس لم يكن لديه العَزْم والصَّبر الكافي، في موقفه الذي غضِبَ فيه على قومه وتَرَكَهم قبل أن يأذن الله تعالى له بالذَّهاب، كما قال تعالى: ﴿وَذَا

(١) هذا إذا قلنا بأن كلمة (مِنْ) في (من الرسل) للتبعيض، وإلّا فهناك معنى آخر، سنذكره فيما بعد.

(٢) قال الراغب: (العَزْمُ والعزيمة: عَقْد القَلْب على إمضاء الأَمْر...) مفردات ألفاظ القرآن، ص٦٥.

ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ. . .﴾ [الأنبياء: ٨٧]، أي: إنَّ يونس (صاحب الحوت) عندما غضب من قومه (أهل نينوى) وتركهم ذاهباً، ظانّاً بأن الله تعالى لن يُضيِّق عليه بالبقاء هناك، وبوسعه الذَّهابُ حيث يشاء لتبليغ دين الله.

إذاً:

هناك من بين النبيين ﷺ، مَنْ نُبِّهَ النبيُّ الخاتم ﷺ عن أنْ يتشبَّه بهم، في مواقف فقدوا فيها العَزْم والصَّبرْ الكافي.

وإذا قُلنا أنَّ كلمة (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ. . .﴾ [الأحقاف: ٣٥]، إنَّما هي بيانية وليست للتبعيض، وهذا هو ما أُرجِّحُهُ، فيكون معنى الآية حينئذٍ هكذا: فاصبر ـ يا محمد ـ كما صبر الرسل أصحاب العَزْم، ومن ثَمَّ يَتَّصِفُ الرسل الكرام كلُّهم بالعزم والثبات في المواقف، ويَخْتصُّ بعضُ النبيين ﷺ ـ وليس كلهم ـ بعدم امتلاك العَزْم والصَّبر الكافي في بعض المواقف، وذلك مثل (آدم) و(يونس) ﷺ، وإلّا فالأنبياء الكرام ﷺ، وهم صفوة الله في البشرية، كلُّهم أصحاب صَبْرٍ وثباتٍ عموماً.

والآن نتساءل:

مَنْ هم أولوا العزم من الرسل، المقصودون في الآية المباركة؟!

الذي ارتاح إليه قلبي بعد التأمُّل، هو أن كلَّ الرسل الكرام ﷺ هم أصحاب الدرجة القصوى من العَزْمِ والحَزْمِ والثبات، وانْ كان هناك تفاوت بينهم وتفاضلٌ في ذلك.

ودليلي على هذا الرأي: أنه لو لم يكن الرسل الكرام كُلُّهم أولي العَزْم، لبيَّن الله الحكيم لنبيِّه الخاتم ﷺ من هم أولو العزم من الرسل، كي يقتدي بهم، ولكن بما أنهم كلهم أصحاب العزم، أُكتُفيَ بالأمر به أن يقتدي بهم عموماً في ذلك المجال.

وقد رجَّح بعضُ العلماء أو أكثرهم، أن أولي العَزْم من الرسل مع

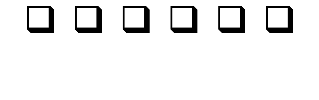
رسول الله الخاتم، هم هؤلاء الخمسة:

(نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمَّد) عليهم الصلاة والسَّلام، واستدلّوا على هذا بأن الله تعالى ذكر هؤلاء الخمسة معاً، في كلٍّ من سورة [الأحزاب: ٧]، و[الشورى: ١٣] كما قال تعالى:

١ - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب].

٢ - ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ...﴾ [الشورى: ١٣].

ولكن لا أرى أن في الآيتين الكريمتين دليلاً على ذلك، نعم تخصيص هؤلاء الخمسة بالذكر في الآيتين، يدلّ على أن لهم ٱمتيازاً على سائر الرسل الكرام عليهم السلام، والظاهر أن هؤلاء الخمسة هم أفضل من غيرهم من الرسل وأرفع منهم مقاماً، ولكن هذا شيء وانفرادهم بالإتصاف بالعَزم شيء آخر.





ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



الفصل السادس

المِساحة الواسِعة لِقصص الرُّسل والأنبياء في كتاب الله تعالى، وحِكَمُها

ameer.maktab@yahoo.com

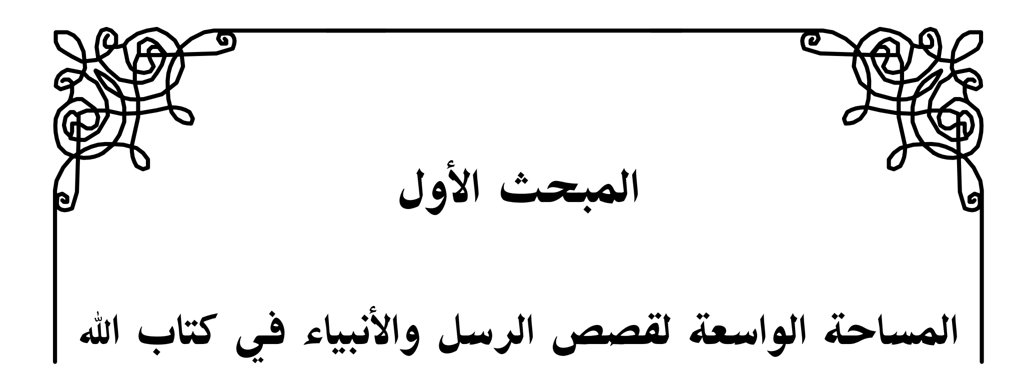






يتكوَّن هذا الفصل من مبحثين، ففي المبحث الأول نُشَخِّصُ المِساحَةَ الواسعة المخصَّصة لِقِصص الرسل والأنبياء الكرام.

وفي المبحث الثاني نَتَحدَّث عن الحكم والعبر التي تُتْحِفُنا بها تلك القصص التي عَدَّها الله الحكيم سبباً لتثبيت فؤاد نَبِيِّه الخاتم الكريم.



المبحث الأول

المساحة الواسعة لقصص الرسل والأنبياء في كتاب الله

تَشْغُل قِصَصُ الرسل والأنبياء عليهم السلام في القرآن الحكيم، مِساحةً واسعةً جداً، وهي مُختصَّة بالسور المكية تقريباً، ولله تعالى في ذلك حِكَمٌ كثيرة، سنُشيرُ إليها، بعد أن نوضِّح بإيجاز حدودَ المِساحة التي استغرقتها تلك القصص المباركة في كتاب الله، وذلك بذكر أسماء السّور وأعداد الآيات المختصَّة بها، بالترتيب الآتي:

١) **آدم أبو البشر** عليه السلام: **وردت قصة أبينا آدم** عليه السلام **في:**

١ - (البقرة) من الآية (٣٠ إلى ٣٩).

٢ - (الأعراف) من الآية (١١ إلى ٢٥).

٣ - (طه) من الآية (١١٥ إلى ١٢٧).

٢) **إدريس** عليه السلام: **وأشير إلى شيء من قصّته في:**

(مريم) الآيتين (٥٦، ٥٧)، وقد ذكر اسمه في سورة [الأنبياء: ٨٥] مع (إسماعيل) و(ذي الكفل) عليهم السلام أيضاً.

٣) **نوح أبو البشر الثاني** عليه السلام: **وردت قصَّتُهُ في:**

١ - (الأعراف) من الآية (٥٩ إلى ٦٤).

٢ - (يونس) الآيات (٧١، ٧٢، ٧٣).

٣ ـ (هود) من الآية (٢٦ إلى ٤٩).

٤ ـ (الأنبياء) الآيتان (٧٦، ٧٧).

٥ ـ (المؤمنون) من الآية (٢٣ إلى ٣٠).

٦ ـ (الشعراء) من الآية (١٠٥ إلى ١٢٢).

٧ ـ (العنكبوت) الآيتين (١٥، ١٤).

٨ ـ (الصافات) من الآية (٧٥ إلى ٨٢).

٩ ـ (القمر) من الآية (٩ إلى ١٧).

١٠ ـ (نوح) السورة كلها من الآية (١ إلى ٢٨).

٤) هود عليه السلام الذي أرسل إلى قومه (عاد): وردتْ قصَّتُهُ في:

١ ـ (الأعراف) من الآية (٦٥ إلى ٧٥).

٢ ـ (هود) من الآية (٥٠ إلى ٦٠).

٣ ـ (الشعراء) من الآية (١٢٣ إلى ١٤٠).

٤ ـ (الأحقاف) من الآية (٢١ إلى ٢٦).

٥ ـ (القمر) من الآية (١٨ إلى ٢٢).

٥) صالح عليه السلام الذي أرسل إلى قومه (ثمود):

وردت قصَّة (صالح) عليه السلام مع قومه (ثمود) في:

١ ـ (الأعراف) من الآية (٧٣ إلى ٧٩).

٢ ـ (هود) من الآية (٦١ إلى ٦٨).

٣ ـ (الشعراء) من الآية (١٤١ إلى ١٥٩).

٤ ـ (النَّمل) من الآية (٤٥ إلى ٥٣).

٥ ـ (القمر) من الآية (٢٣ إلى ٣٢).

٦ ـ (الشمس) من الآية (١١ إلى ١٥).

٦) شعيب عليه السلام الذي أرسل إلى قومه (مدين) و(أصحاب الأيكة):

وردت قصة شعيب عليه السلام مع قومه في:

١ ـ (الأعراف) من الآية (٨٥ إلى ٩٣).

٢ ـ (هود) من الآية (٨٤ إلى ٩٥).

٣ ـ (الشعراء) من الآية (١٧٦ إلى ١٩١).

٧) إبراهيم خليل الله عليه السلام الذي أَرْسَلَهُ الله إلى شعوب كثيرة، كما يبدو في قصصه:

وردت قصص إبراهيم ومواقفه ـ إذْ له قصص ومواقف شتّى ـ في:

١ ـ (البقرة) من الآية (٢٤ إلى ١٣٢)، والآية (٢٨٥)، والآية (٢٦٠).

٢ ـ (الأنعام) من الآية (٧٤ إلى ٨٣).

٣ ـ (هود) من الآية (٦٩ إلى ٦٧).

٤ ـ (إبراهيم) من الآية (٣٥ إلى ٤١).

٥ ـ (الحجر) من الآية (٥١ إلى ٦٠).

٦ ـ (مريم) من الآية (٤١ إلى ٥٠).

٧ ـ (الأنبياء) من الآية (٥١ إلى ٧٣).

٨ ـ (الحج) من الآية (٢٦ إلى ٢٩).

٩ ـ (الشعراء) من الآية (٦٩ إلى ٨٩).

١٠ ـ (العنكبوت) من الآية (١٦ إلى ٢٧).

١١ ـ (الصافات) من الآية (٨٣ إلى ١١٣).

١٢ ـ (الزخرف) من الآية (٢٦ إلى ٢٨).

١٣ ـ (الذاريات) من الآية (٢٤ إلى ٣٧).

١٤ ـ (الممتحنة) الآيات (٤، ٥، ٦).

٨) **لوط عليه السلام الذي أرسَلَهُ الله تعالى إلى مجموعة مُدنٍ بالشام:**

وردت قصة (لوط) عليه السلام مع قومه المفسدين في:

١ ـ (الأعراف) من الآية (٨٠ إلى ٨٤).

٢ ـ (هود) من الآية (٧٧ إلى ٨٣).

٣ ـ (الحجر) من الآية (٦١ إلى ٧٩).

٤ ـ (الأنبياء) في الآيتين (٧٤، ٧٥).

٥ ـ (الشعراء) من الآية (١٦٠ إلى ١٧٥).

٦ ـ (النمل) من الآية (٥٤ إلى ٥٨).

٧ ـ (العنكبوت) من الآية (٢٨ إلى ٣٥).

٨ ـ (الصافات) من الآية (١٣٢ إلى ١٣٨).

٩ ـ (القمر) من الآية (٣٣ إلى ٤٠).

٩) **إسماعيل عليه السلام الابن الأكبر لإبراهيم عليه السلام، والذي أسكنه مع أمه (هاجر) عليها السلام في مكة (أي موضعها) قرب المكان الذي بني فيه البيت الحرام (الكعبة) فيما بعد: وأشير إلى شيء من قصَّتِهِ في:**

١ ـ (البقرة) الآيات (١٢٧، ١٢٨، ١٢٩).

٢ ـ (مريم) في الآيتين (٥٤، ٥٥).

١٠) **إسحاق عليه السلام الإبن الثاني لإبراهيم عليه السلام: وأشير إلى شيء من أحواله وأوصافه في:**

١ ـ (الصافات) في الآيتين (١١٢، ١١٣).

٢ ـ (ص) الآيات (٤٥، ٤٦، ٤٧).

١١) **يعقوب (إسرائيل) عليه السلام، وهو ابن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، وهو**

أبو الأسباط الإثني عشر الذين تكوَّن منهم شعب (بني إسرائيل): وقد ذكرت بعض أوصافه في:

١ ـ (البقرة) في الآيتين (١٣٢، ١٣٣).

وذكرت بعض أوصافه في:

٢ ـ (ص) الآيات (٤٥، ٤٦، ٤٧).

وأما قِصَّتُهُ المفصَّلة مع بَنيه، فهي في:

٣ ـ (يوسف) من الآية (٤) إلى الآية (١٠٢)، وقصَّته متداخلة مع قصَّة ابنه (يوسف).

١٢) **يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام: وقصَّتُهُ وردت كاملة في:**

(يوسف) وشغلت مساحة السورة كلّها، سوى آيات معدودات في بدايتها ونهايتها، من الآية (٤) إلى (١٠٢)، والسورة كلّها (١١١) آية.

١٣) **موسى عليه السلام (كليم الله تعالى) الذي أرسلَهُ الله إلى فرعون مصر لاستنقاذ شعبه (بني إسرائيل) منه:**

وردت قصَّتُهُ ومواقفه الكثيرة مع فرعون وحاشيته من طرف، ومع قومه بني إسرائيل من طرفٍ آخر، في:

١ ـ (البقرة) من الآية (٥٤ إلى ٧٤) في عدة مواقف له ولقومه.

٢ ـ (المائدة) من الآية (٢٠ إلى ٢٦).

٣ ـ (الأعراف) من الآية (١٠٣ إلى ١٧١) في مواقف متعدّدة كثيرة لَهُ ولقومه.

٤ ـ (يونس) من الآية (٧٥ إلى ٩٣).

٥ ـ (إبراهيم) من الآية (٥ إلى ٨).

٦ ـ (الكهف) من الآية (٦٠ إلى ٨٢).

٧ ـ (طه) من الآية (٩ إلى ٩٨) في مواقف متعدّدة كثيرة.

٨ ـ (المؤمنون) من الآية (٤٥ إلى ٤٩).

٩ ـ (الشعراء) من الآية (١٠ إلى ٦٨).

١٠ ـ (النّمل) من الآية (٧ إلى ١٤).

١١ ـ (القصص) من الآية (٣ إلى ٤٣) في مواقف متعدّدة كثيرة.

١٢ ـ (الصافات) من الآية (١١٤ إلى ١٢٢).

١٣ ـ (غافر) من الآية (٢٣ إلى ٤٦)، متداخلة مع قصة الرجل المؤمن من آل فرعون الذي دافع دفاعاً مجيداً عن موسى ودعوته الربانية، وسنتحدث عن دفاعه لاحقاً بإذن الله.

١٤ ـ (الزخرف) من الآية (٤٦ إلى ٥٦).

١٥ ـ (الذاريات) الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠).

١٦ ـ (القمر) في الآيتين (٤١، ٤٢).

١٧ ـ (الصف) الآية (٥).

١٨ ـ (النازعات) الآية (١٥ إلى ٢٦).

وقد ورد ذكر (هارون) عليه السلام وبعض مواقفه، في:

(الأعراف ويونس وطه والمؤمنون والشعراء والقصص والصافات) ولكن كالتابع لأخيه (موسى) عليهما السلام، لِذا لا نُفرِدْه بِالذكر.

١٤) أيوب عليه السلام الذي لم يبيّن كتابُ الله القَوْمَ الذين أُرسل إليهم: ووردت قصَّتُهُ باختصار شديد، في:

١ ـ (الأنبياء) في الآيتين (٨٣، ٨٤).

٢ ـ (ص) من الآية (٤١ إلى ٤٤).

١٥) يونس عليه السلام والذي ذكر أيضاً بـ(ذا النون) و(صاحب الحوت)،

وأرسل إلى أهل مدينة (نينوى) كما جاء في التفاسير[1].

١ ـ (يونس) الآية (٩٨).

٢ ـ (الأنبياء) في الآيتين (٨٧، ٨٨).

٣ ـ (الصافات) من الآية (١٣٩ إلى ١٤٨).

١٦) **إلياس عليه السلام الذي أرسل إلى قومٍ كانوا يعبدون صَنَماً اسمه (بَعْل): وردت قصته باختصار في:**

(الصافات) من الآية (١٢٣ إلى ١٣٢).

١٧) **داود عليه السلام وهو أبرز أنبياء بني إسرائيل، وكان نبياً مَلِكاً: وذكرت بعض مواقفه في:**

١ ـ (البقرة) الآية (٢٥١).

٢ ـ (الأنبياء) الآيات (٧٨، ٧٩، ٨٠).

٣ ـ (سبأ) في الآيتين (١٠، ١١).

٤ ـ (ص) من الآية (١٧ إلى ٢٦).

١٨) **سليمان عليه السلام وهو ابن داود عليه السلام، وكان نبياً مَلكاً واسع الملك: وردت له قصّة ذات مواقف، في:**

١ ـ (النمل) من الآية (١٥ إلى ٤٤).

كما أشير إلى بعض مواقفه في هذه السّور:

٢ ـ (الأنبياء) من الآية (٧٨ إلى ٨٢).

---

(١) وهي مدينة (الموصل) الحالية، أو كانت قريباً من موقعها، انظر: (المصباح المنير في تهذيب تفسير إبن كثير) ص٨٧٤.

٣ ـ (سبأ) الآيات (١٢، ١٣، ١٤).

٤ ـ (ص) من الآية (٣٠ إلى ٤٩).

١٩) زكريّا عليه السلام وهو أيضاً من أنبياء بني إسرائيل: وردت قصَّته في:

١ ـ (آل عمران) من الآية (٣٧ إلى ٤١).

٢ ـ (مريم) من الآية (١ إلى ١٥).

٣ ـ (الأنبياء) في الآيتين (٨٩، ٩٠).

٢٠) يحيى بن زكريا عليهما السلام: وقصَّته هي نفس قصة أبيه، وفي نفس السور والآيات المُشار إليها.

٢١) عيسى عليه السلام وهو آخر أنبياء بني إسرائيل: وردت قصَّته مع أمه مريم رضي الله عنها، أو بدونها في:

١ ـ (آل عمران) من الآية (٤٢ إلى ٥٧).

٢ ـ (النساء) من الآية (١٥٦ إلى ١٥٩).

٣ ـ (المائدة) من الآية (١١٠ إلى ١٢٠).

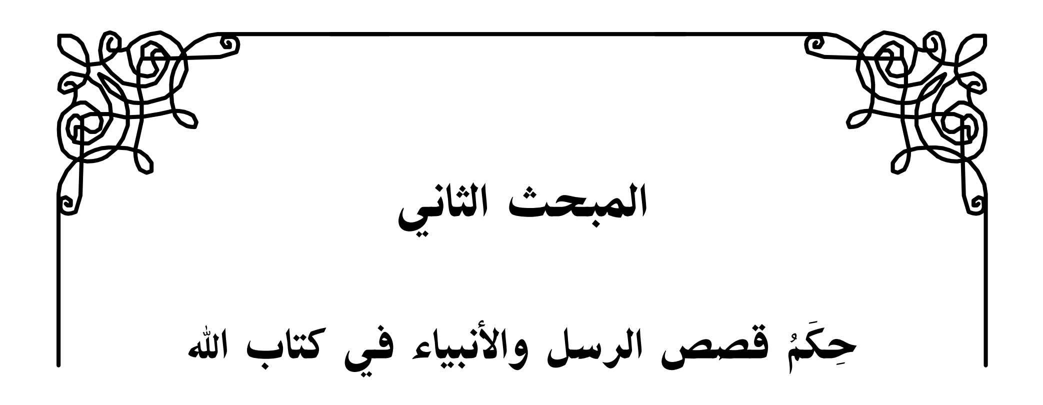
٤ ـ (مريم) من الآية (١٦ إلى ٣٧).

٥ ـ (الزخرف) من الآية (٥٧ إلى ٦٥).

٦ ـ (الحديد) الآية (٢٧).

٧ ـ (الصف) الآية (٦) والآية (١٤).

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الثاني

حِكَمُ قصص الرسل والأنبياء في كتاب الله

هذا بالنسبة للمساحة الواسعة التي استغرقتها قصص الرسل والأنبياء الكرام عليهم السلام في القرآن العظيم، وأما بالنِّسبة لِحِكَم تخصيص كل تلك المساحة لتلك القصص المباركة التي سمّاها تعالى (أحسن القصص)، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف]، فنقول:

أولاً: بما أن كتاب الله الكريم هو كتاب هدًى ومنهاج حياة لأهل الإيمان أفراداً ومجموعات، كما قال تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة]، وقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

ثانياً: ثم بما أن الإنسان ـ فَرْداً ومجموعات ـ بأَمَسِّ الحاجة في مسيرة اهتدائه وسيره إلى الله تعالى في حياة طيِّبةٍ مَرضيّةٍ لله، إلى قدوة ونموذج يهتدي به ويَحْذُو حَذوه، والأسوة الحسنة التي يتجسَّدُ فيها الإيمان والهداية والتقوى، لها أبلغ الأثر في تنوير الطريق، والتشجيع على سلوك صراط الله المستقيم، ولهذا عقَّب سبحانه على: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة]، بقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ...﴾ [الفاتحة: ٧].

ثالثاً: ثم من الواضح أن الرسل والأنبياء عليهم السلام هم خير من جَسَّدوا دينَ الله تعالى إيماناً وعبادة وتقوًى وخُلُقاً... إلخ، وكانت حياتهم الطيِّبة النظيفة المستقيمة، مرآةً صافيةً تتجلَّى فيها حقائِقُ كتب الله المباركة وأحكامها وحِكمها وتعاليمها بِأفضل ما يكون.

لِذا أكثرَ كتابُ الله الحكيم من ذكر قصصهم، وإِبراز مواقفهم، كي يسيرَ أهلُ الإيمان على دَرْبهم، ويَنْسجوا على مِنْوالهم، كما قال تعالى مُخاطِباً رسولَه ﷺ بعد أن ذكر أسماء مجموعة من رسله وأنبيائه عليهم السلام:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ...﴾ [الأنعام: ٩٠]، ومن الواضح أنه إذا كان رسول الله ﷺ مأموراً بالإقتداء بالرسل والأنبياء الذين مَضَوا قبله، فأهل الإيمان أولى وأَحْرى بذلك وأحوج إليه، إذْ الأنبياء عليهم السلام هم أسوة في كل شيءٍ ومن كل وجه:

١ ـ في معرفة الله تعالى والإيمان به.

٢ ـ وفي عبادة الله، والتقوى منه.

٣ ـ وفي الزهد في الدنيا، وإيثار الآخرة.

٤ ـ وفي الخلق الحسن، والأدب الرفيع.

٥ ـ وفي الصَّبْر والثبات والإستقامة.

٦ ـ وفي الشفقة على الناس، والحرص على هدايتهم وإصلاحهم.

٧ ـ وفي الجهاد والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل الله.

٨ ـ وفي التصدِّي للطواغيت المستكبرين، والدفاع عن المستضعفين.

٩ ـ وفي السعي لتثبيت العدل والقسط وإزالة الظلم والجور.

والآن بعد أن نُذَكِّر ببعض الآيات المباركات التي تأمر رسولَ الله ﷺ وأتباعَه المؤمنين من خلاله، بالتأسِّي بالأنبياء والرسل عليهم السلام والاتّعاظ بهم،

والتفكّر في أحوالهم ومواقفهم، نُشير إلى موضع التأسّي والإقتداء في حياة كلّ منهم، مِمَّن قصَّ الله تعالى قصصهم:

١ ـ ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ...﴾ [الأحقاف: ٣٥].

٢ ـ ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام].

٣ ـ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود].

٤ ـ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ...﴾ [يوسف: ١١١].

٥ ـ ﴿...**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾**﴾ [الأعراف].

٦ ـ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود].

والآن هذه إشارة مختصرة إلى موضع العبرة في حياة كلّ من الرسل والأنبياء الذين قصَّ الله العليم الخبير علينا أخبارهم:

١) آدم عليه السلام:

إن آدم عليه السلام قدوةٌ وموضع عِبْرَةٍ لِذريته كلِّها، في التوبة إلى الله تعالى والإصلاح بعد الوقوع في الخطأ، وعدم الإستمرار فيه، وعدم اليأس من رحمة الله وكرمه، وقد قال رَسُول الله ﷺ: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ اَلْخَطَّائِينَ اَلتَّوَّابُونَ**» (أَخْرَجَهُ اَلتِّرْمِذِيُّ برقم: (٢٦١٦)، وَابْنُ مَاجَهْ برقم: (٤٢٥١) قال الشيخ الألباني: حسن).

٢) نوح عليه السلام:

ونوح عليه السلام بصبره الطَّويل الذي دام تسعمائة وخمسين عاماً: ﴿...فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا...﴾ [العنكبوت: ١٤]، قدوة

للصّابرين والثابتين على المبدأ، والصّامدين في الأزمات والمِحَن.

وكذلك هو أسوة لأهل الإيمان في البراءة من أهل الكفر المعادين لدين الله وأهله، وعدم الشفقة عليهم، وعدم الهوادة في اتخاذ الموقف الحاسم الحازم تجاههم في نهاية المطاف: ﴿...رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح].

٣ و٤ و٥) هود، صالح، شعيب عليهم السلام:

وهؤلاء الرسل الثلاثة (هود، صالح، شعيب) عليهم السلام والذين وردت قصصهم في أكثر من سورة تباعاً، بترتيب ذكر أسمائهم هنا، هم قدوة لكل من يتصدَّى لإصلاح مجتمع، أفسده المَلأُ المستكبرون المترفون، عَقَدياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً.

وكذلك هم أسوة لمن يواجهه في طريق عمله الإسلامي، أناسٌ أصحاب جاهٍ ونفوذٍ سياسي واقتصادي، يتوجّسون خِيفَةً من كلّ صوتٍ إصلاحي، يريد إعادة المياه إلى مجاريها الشرعية، ومَن ثمَّ يَحيكون ضِدَّه المؤامرات ويحاربونه حتى العَظْم، إبقاءً على الأوضاع الفاسدة التي يستغلّونها، كالذين يَتَصيَّدون في الماءِ العَكرِ!

٦) إبراهيم عليه السلام:

وأما خليل الله إبراهيم عليه السلام، فهو قدوة متعدِّدة الجوانب:

١ ـ فهو قدوة للمتأمِّل البصير اللبيب في ملكوت السموات والأرض، والذي يقرأ بين سطوره، آياتِ ربوبية الله وألوهيته ووحدانيته جلَّ شأنه.

٢ ـ كما هو قدوة للمؤمن الذي يسعى دَوْماً لكسب المزيد من اليقين والطمأنينة في إيمانه.

٣ ـ وهو قدوة للشاب المؤمن الذكي الجريء الثائر على العقائد والأفكار الفاسدة.

٤ ـ كما هو أسوة للداعية الحليم الحكيم.

٥ ـ وهو قدوة للولد البارّ بأبيه المشفق عليه، والحريص على هدايته.

٦ ـ وكذلك هو قدوة للمهاجر للوطن والأهل والمال، لنيل مرضاة الله.

٧ ـ كما هو أسوة للمحاور الفَطِن، الذي يعرف كيف يحاوِرُ مقابِلُه، وكيف يُفْحِمُهُ بالبراهين السّاطعة، ويسدّ عليه طريقَ السفسطة والمناورة، كما فعل مع (نمرود).

٨ ـ وهو قدوة للبطل الشجاع المقدام، الذي لا يُبالي في سبيل الله بشيء حتى دخول النار!

٩ ـ كما هو قدوة للعابد الحق، الذي هو مُستَعِدٌّ أن يُضحّي بِفِلْذَة كبده تنفيذاً لأمر الله.

١٠ ـ وكذلك هو قدوة للمُتَّكِلِ على الله، الواثق برحمته ورأفته وحكمته إلى أقصى غايةٍ، إذْ ترك زوجه (هاجر) وابنها (إسماعيل) عليهما السلام ـ وكان ابنه الوحيدَ آنذاك ـ (بوادٍ غَيْر ذي زَرْعٍ) تنفيذاً لأمر الله تعالى.

١١ ـ وهو أسوة للمُضِيف الحصيف الكريم، الذي يَعْرِف كيف يُكْرِمُ ضُيوفَه، ويخدمهم من دون أن يُحْرِجَهُمْ!

٧) لوط عليه السلام:

ولوط عليه السلام قدوة للمتصدِّي للفساد الأخلاقي والإجتماعي بكل ما أوتي من قوة، وكذلك هو قدوة للمضيف الذي يدافع عن ضيفه بكل وسيلة يسعها الشرع.

وكذلك هو قدوة للداعية الذي لا توافقه زوجته ولا تُساعِدُهُ، ولكن ذلك لا يُثْني عَزْمَهُ عن المُضيِّ قُدُماً في عمله.

٨) يعقوب عليه السلام:

ويعقوب عليه السلام قُدوة للوالد الشفيق الصبور، المُبْتَلى بفقد الولد

الحبيب، الّذي لا يخرُجُه البلاءُ مهما عظم عن إتزانه الإيماني، بسبب شدة ارتباطه بالله تعالى ورسوخ إيمانه به، وتوكلّه عليه ورجائه فيه.

٩) يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضاً قدوة متعددة الجوانب:

١ ـ فهو قدوة للشاب العفيف النّزيه الفارّ من المعصية والفحشاء.

٢ و٣ ـ وكذلك هو قدوة لمن يُبتلى بالسّجن، وحياة الغربة والبعد عن الأهل والوطن.

٤ ـ وهو قدوة للمؤمن المتصف بالخُلُق الحسن، والإحسان إلى النّاس حتى في السجن!

٥ ـ ثم هو قدوة للداعي إلى الله بصدق، والذي لا ينسى وظيفتَهُ في أصعب الظروف.

٦ ـ وكذلك هو أسوة للعالِم الذي يعرف كيف يستَخْدِمُ عِلْمَهُ ومعرفته لقضيّة دعوته.

٧ ـ كما هو قدوة للمسلم البعيد النظر، الذي يُرَتِّبُ أمورَ مستقبله بحكمةٍ ودقة.

٨ ـ وهو قدوة للمسلم الحافظ على سمعته، والذي يعرف كيف ومتى يُبرِىءُ ساحَتَه مِمّا اتُّهِمَ به زوراً.

٩ ـ وكذلك هو قدوة للمتصدِّي للمسؤولية التي يعلم أنّه لها كُفْؤٌ، وينوي بها وَجْهَ الله تعالى.

١٠ ـ كما هو قدوة للعفوّ السَّمْح، الذي يعفو عند المقدرة، ولا يحمل في قلبه الحقد بسبب التعّرض للظلم الشخصيِّ.

١١ ـ وأخيراً هو قدوة لذي الجاه والمُلْكِ المتواضع الزاهد الراغب فيما عند الله.

١٠) <u>موسى عليه السلام:</u>

وكذلك موسى عليه السلام قدوة متعدِّدة الجوانب:

١ ـ فهو قدوة للشاب القويّ الجريء المدافع عن المُضْطَهدين.

٢ ـ وكذلك هو قدوة للرجل الشّهم، الذي تدفعه الشهامة إلى مساعدة الضُّعفاء.

٣ ـ وهو قدوة للداعية الإسلامي الجادِّ المحتاط لأمر دعوته، الذي يستعدُّ ويأخُذُ أُهْبَتَه قبل مواجهة المراحل الصَّعْبة، في ميدان عمله الإسلامي.

٤ ـ وهو قدوة للعالم الصّادع بالحق في مواجهة الطواغيت.

٥ ـ وكذلك هو أسوة للمحاور الحكيم، الذي يعرف كيف يجيب عن الأسئلة المُحرِجة أو المُسْتَفِزَّة بأجوبة رصينة مُفْحِمة.

٦ ـ كما هو قدوة للرجل الناصح لقومه والمهتمِّ بهم، لإصلاحهم وإنقاذهم من تحت نير الظلم والإضطهاد، ومن ظلمات الجهل والضلال.

٧ ـ وكذلك هو قدوة للقائد والإمام الصابر على الأذى وسفاهة السّفهاء فيما يتعلق بأموره الشخصية.

٨ ـ كما هو قدوة للقائد الحازم القويّ، الذي يغضب ويثور عند معصية الله وانتِهاك مَحارمِهِ.

٩ ـ وكذلك هو قدوة للإمام والقائد الذي لا يسكت عن الفوضى والأخطاء، بل يُحاسِبُ كلَّ من له صلة بها كل بحسبه، بعد أن يتحقق في الأمر.

١٠ ـ كما هو قدوة للمؤمن المشتاق للمزيد من فضل الله وإحسانه والقرب منه.

١١ ـ وكذلك هو قدوة للعالم الذي يطلب المزيد من العلم والمعرفة دَوْماً، ويتحمّل المشاق في سبيل ذلك.

١٢ ـ وكذلك هو قدوة للعالم القائد الثابت الراسخ الرابط الجأش، في المواقف العصيبة.

(١١) هارون عليه السلام:

وهارون عليه السلام، قدوة للأخ الصبور الحليم مع أخيه المسؤول والنائب عنه في تحمُّل المسؤولية في الأوضاع الصَّعبة، والذي يعالج المشكلات بحكمة ورويَّة، ويوازن بدقةٍ بين المصالح المرجوَّة تحقُّقها، والمفاسد المتوقعة حدوثُها، وعند الإِضطرار يسعى لِتَحْصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتحمّل أصغر المفسدتين لتجنُّبِ أكبرهما.

(١٢) أيّوب عليه السلام:

ونبي الله الصابر الأوّاب (أيوب) عليه السلام، قدوة للذين يُبْتَلون في أبدانهم وأموالهم وأهليهم، ثم يصبرون صبراً جميلاً، ولا يُبْدون أي تضجُّرٍ أو شكوى، إلى أن يبلغ الكتاب أجلَه، بالشفاء والفَرَج.

(١٣) يونس عليه السلام:

ويونس عليه السلام قدوة للذين يوقعهم الله الحكيم في بلاءٍ وشدَّةٍ، ابتلاءً منه سبحانه أو عقوبة، فيتضرَّعون إلى الله الحكيم الحليم الرحيم وينزِّهونه ويقدِّسونه ويوحِّدونه، مُقرِّين على أنفسهم بالظلم والخطأ، كفّارة لما بدر منهم، وأداءً لحق ربِّهم عليهم، وتعرّضاً لمغفرة الله ورحمته وكرمه ولطفه.

(١٤) إلياس عليه السلام:

وإلياس عليه السلام قدوة للمؤمن المتصدِّي للأصنام، والناهي عن عبادتها، وكلِّ شيء أو شخص صار محور حياة الناس ومحلّ اهتمامهم الأكبر، سواء كان ذلك الشيء نجماً أو شمساً أو قمراً، أو مالاً أو متاعاً أو ضياعاً... إلخ، وكذلك سواء كان ذلك الشخص حياً أو ميّتاً، وفرداً ـ كطاغوت ـ أو مجموعات ـ كحزب ـ... إلخ، فكل ما عُبدَ من دون الله بأن بُذِلَ له

الخضوعُ من دون الله ودينه، فهو صَنَمٌ ومعبودٌ يُعبد من دون الله، ومن ثَمَّ يجبُ التصدِّي له.

١٥ و١٦) داود وسُليمان عليهما السلام:

أما داود عليه السلام، فقدوة للنّماذج القيادية الّذين يولَدون في الأَزَمات ويتمخَّض عنهم الواقع الصَّعب المرّ، حيث ظهر داود فَجْأَةً في قصة (طالوت وجالوت) ولم يكن له ذكر إلى أن قتل (جالوت) فَبَرز في الميدان من خلال ذلك العمل البطوليّ، وليس من خلال العناوين!

وأما سليمان عليه السلام، فقدوة للقائد والإمام الذي يَتَفَقَّدُ شؤون جيشه وأمته دَوْماً ولا يغفل عنها، ثم يستعمل الشدَّة والحزْم عند وجود المخالفات، ولكن لا يَتَعَجَّلُ بإنزال العقوبة حتى يستجلي حقيقة الأمر.

وكلاهما قدوة للقائد والرئيس المؤمن التقيِّ الصالح، الذي لا تُلْهيه أُبَّهَةُ الملك والسلطان عن الله تعالى وطاعته فَحَسْبُ، بل يستعمل كلَّ الإمكانيات المتاحة له في طاعة الله ونشر دينه، والدعوة إليه ورفع رايته.

وكذلك كلاهما قدوة للرئيس والحاكم الذي يسعى جهده للحكم بالحق والعدل ورفع الظلم، ثم إذا قضى بحكم في قضية، وتبيَّن له فيما بعد أن الصواب في غيره، ينقض قضاءَهُ السابقَ، ويأخذ بالحق الذي عثر عليه.

١٧ و١٨) زكريّا ويحيى عليهما السلام:

أما زكريا عليه السلام، فهو قدوة للمؤمن الواثق بربِّه والراجي منه رحمته، والمستيقن بأن الله تعالى قادرٌ على كل شيء، ولا يتعاظمه شيءٌ أَرادَهُ، ولهذا فهو في أصعب الظروف والأحوال لا يفقد الرجاء، بل هو مطمئنّ البال.

وأما يحيى عليه السلام، فهو نموذج الشّاب الصالح التّقي، القويّ في دينه والبارّ بوالديه، والعفيف في خُلُقِه.

١٩) عيسى عليه السلام:

وعيسى عليه السلام، قدوة للعالم الصادق الصالح الزاهد الجريء، الذي يواجه رُكامَ البدع والمُحْدَثات التي تُشَوِّهُ الوجهَ الحقيقي المشرق لدين الله الحق، فيسعى جاهداً لإزالتها وتخليص الدين وتطهيره منها، كي يعود إليه رونقه وبهاؤه الأصلي، ولكن لا يؤدِّي به مَقْتُهُ للبدع وبغضه للمُحْدثات في دين الله، أن يرفض معها الحق المتلبِّس بها، بل يُمَيِّز بين الحق والباطل والغثِّ والسَّمين، ويتعامل مع كُلٍّ منهما بما يستحقه.

والآن: أرى بأنه قد وَضُحَ لنا شيءٌ من حكمة تخصيص تلك المساحة الواسعة في كتاب الله لقصص الرسل والأنبياء، وسنطَّلعُ على المزيد منها، فيما سَتَأتي من الفصول بإذن الله تعالى.

وبهذا نختم هذا الفصل، وننتقل إلى الفصل السابع بإذن الله.





ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



الفصل السابع

صِفات ومزايا الرُّسلِ والأنبياءِ عليهم الصلاة والسَّلام، وتوضيح ما نُسِبَ إليهم من أخطاءَ في كتاب الله تعالى

ameer.maktab@yahoo.com



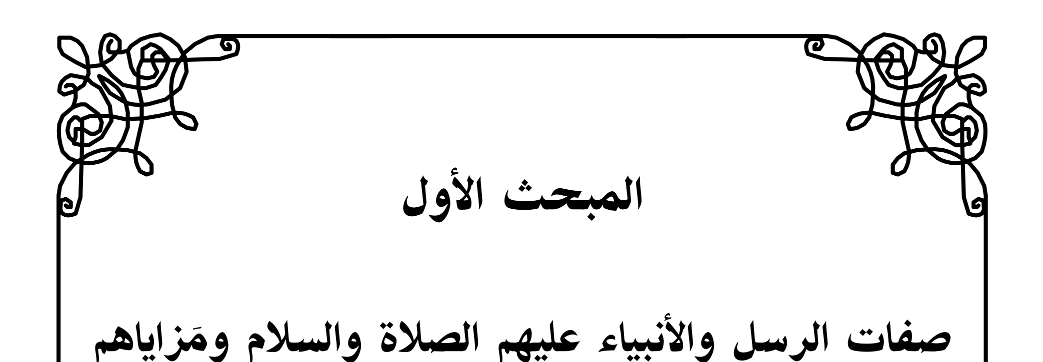




www.alibapir.net

يتكوَّن هذا الفصل من مبحثين، ففي الأول منهما نتحدث عن صفات الرسل والأنبياء الكرام ومزاياهم، وفي الثاني نوضِّح ما نسب إليهم من أخطاء في كتاب الله.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الأول

صفات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومَزاياهم

الرسل والأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسَّلام، هم الصفوة المختارة التي اصطفاها الله تعالى من البشرية، لِذا فهم في القمّة من كل النواحي، وهناك آيات كثيرة، تبيِّن لنا شخصية أولئك الأكارم الأفاضل الممتازة، وتُجلّي لنا صفاتِهم الجليلة وأخلاقهم الرفيعة، منها الآيات الآتية:

١) ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ...﴿٥٩﴾﴾ [النمل].

٢) ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج].

٣) ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام].

٤) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم].

٥) ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ

كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام].

(٦ ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص].

(٧ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود].

(٨ ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء].

(٩ ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء].

(١٠ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء].

(١١ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم].

(١٢ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم].

(١٣ ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء].

(١٤ . . . ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يوسف].

(١٥) ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ... ﴿٤١﴾... وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص].

(١٦) ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ... وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص].

(١٧) ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص].

(١٨) ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء].

(١٩) ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم].

(٢٠) ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء].

(٢١) ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم].

(٢٢) ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم].

(٢٣) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصافات].

(٢٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ ...﴾ [المؤمنون: ٥١].

ونَسْتَخْلِصُ من هذه الآيات، الصِّفات والمزايا الآتية، التي وصف الله تعالى بها الرسل والأنبياء صلى الله عليهم وسلم، وعرَّف بهم وبِشَخْصيّاتِهم الفَذَّة الممتازة من خلالها، وجديرٌ بالذكر أن الصفات والمزايا التي سنأخذها من هذه الآيات، قسمان: قِسمٌ وُصِفَ بها جميعُهُم عموماً، وقِسمٌ وُصِفَ

بها بعضهم خصوصاً، ولكن لا يوجَدُ دليلٌ على اختصاصهم بها، ولهذا اعتبرناها مشتركة بينهم جميعاً، وهذا بخلاف بعض المزايا التي خُصَّت بها بعضُهم، كما سنشير إليها بعد إدراج الصفات والمزايا المشتركة بينهم:

١ ـ إنّهم مُصْطفون مُجْتَبون مُخْلَصُون، وهم خير الناس وأفضلهم:

كما في الآيات (٧٥) من (الحج) و(٥٩) من (النَّمل) و(٨٧) من (الأنعام) و(٢٤) من (يوسف) و(٥١) من (مريم)، و(٤٨) من(ص) و(٨٦) من (الأنعام).

٢ ـ إنَّهم مُنْعَمٌ عليهم:

كما في الآية (٥٨) من (مريم)، والآية (٦٩) من (النساء).

٣ ـ إنهم مَهْديُّون إلى صراط الله المستقيم:

كما في الآية (٨٧) من (الأنعام) والآية (٥٨) من (مريم).

٤ ـ وهم الهُداة إلى الصراط المستقيم:

كما في الآية (٧٣) من (الأنبياء).

٥ ـ وهم صالحون:

كما في الآية (٨٥) من (الأنعام) والآيتان (٧٥ و٧٦) من (الأنبياء).

٦ ـ وهم مؤمنون:

كما في الآيات (٨١ و١١١ و١٢٢ و١٣٢) من (الصافات).

٧ ـ وهم مُحسنون:

كما في الآيات (٨٠ و١١٠ و١٢١ و١٣١) من (الصافات) والآية (٨٤) من (الأنعام).

٨ ـ وهم عابدون لله، بل هم نعم العباد:

كما في الآية (٧٣) من (الأنبياء)، والآيتين (٣١ و٤٤) من (ص).

٩ ـ وهم صابرون:

كما في الآية (٨٥) من (الأنبياء).

١٠ ـ وهم متوكّلون على الله تعالى:

كما في الآية (١١) من (إبراهيم) والآية (٨٩) من (الأعراف).

١١ و١٢ ـ وهم أهل العلم والحكمة:

كما في الآية (٢٢) من (يوسف) والآية (٧٩) من (الأنبياء) والآية (١٤) من (القصص).

١٣ و١٤ ـ وهم أهل القوَّة والبصيرة:

كما في الآية (٤٥) من (ص).

والظاهر أن المقصود بالقوة (الأَيدي) هنا، هو قوة الإرادة والعَزْم في الدين، كما أنَّ المقصود بالبَصَر هنا، هو الفقه في الدين والتبصُّر فيه.

١٥ و١٦ ـ السجود لله تعالى، والبكاء عند سماعِ آياتِهِ:

كما في الآية (٥٨) من (مريم).

١٧ ـ كثرة ذكر الآخرة وجعلها نُصْبَ العَيْن دَوْماً:

كما في الآية (٤٦) من (ص).

١٨ ـ كثرة الرجوع إلى الله تعالى:

كما في الآيتين (٢٤ و٣٠) من (ص).

١٩ ـ كثرة الشكر لله تعالى:

كما في الآية (٣) من (الإسراء)، والآية (١٣) من (سبأ).

٢٠ و٢١ و٢٢ ـ فعل الخيرات، وإقامة الصّلاة، وإيتاءِ الزّكاة:

كما في الآية (٧٣) من (الأنبياء).

٢٣ و٢٤ و٢٥ ـ المسارعة في الخيرات، والدعاء رغبةً ورهبةً، والخشوع لله:

كما في الآية (٩٠) من (الأنبياء).

٢٦ و٢٧ ـ الأكل من الرزق الحلال، وفعل العمل الصالح:

كما في الآية (٥١) من (المؤمنون).

٢٨ و٢٩ و٣٠ ـ الحنانُ، وزكاءُ النّفس، والتقوى:

كما في الآية (١٣) من (مريم).

٣١ ـ عدم التجبّر:

كما في الآيتين (١٤ و٣٢) من (مريم).

٣٢ و٣٣ و٣٤ ـ الحِلْمُ، والتأوّه، والإِنابة:

كما في الآية (٧٥) من (هود).

والحِلم قريبٌ في المعنى من الأَناة، والحِلم[١] ضد الغضب، كما أن الأَناة[٢] ضد العجلة، وبالتالي فالقاسم المُشْتَرَك بينهما هو الهدوءُ والرزانة، والتأوُّه هو الإرتعاد والوَجَلُ والتوجُّعُ خشية من الله وإجلالاً[٣]، والإنابة[٤] هي العودة إلى الله تعالى من صميم القلب.

٣٥ ـ بِرُّ الوالدين وخاصة الأم، والدعاء لهما:

كما في الآيتين (١٤ و٣٢) من (مريم)، والآية (٤١) من (إبراهيم)، والآية (٢٨) من (نوح).

٣٦ و٣٧ ـ البعد من السوء، والفحشاء:

كما في الآية (٢٤) من (يوسف)، والسوء: ما كان فيه إساءة للغير، والفحشاء: كل ما هو عظيم القبح.

---

(١) حَلُمَ يَحْلُمُ حِلْماً: تأنَّى وسَكَنَ عند الغَضَب. المعجم الوسيط، ص١٩٤.
(٢) الأَناة: الحِلْم والوقار.. استأنىٰ: لم يَعْجَلْ. المعجم الوسيط، ص٣١.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٢.
(٤) المصدر نفسه، ص٩٦١.

٣٨ و٣٩ و٤٠ ـ الصدق في الوعد، وأمر الأهل بالصلاة والزكاة، والكون مرضياً عند الله تعالى:

كما في الآيتين (٥٤ و٥٥) من (مريم).

٤١ و٤٢ و٤٣ ـ الإقرار بالبشرية، وعدم ادِّعاء الإمتياز على الناس في هذا الجانب، وإعلان كون النُّبُوَّة هبة ومِنحةً ربانية، وبيان أن المعجزات ليست تحت تصرّف الأنبياء عليهم السلام، بل هي بيد الله العليم القدير سبحانه.

كما في الآية (١١) من (إبراهيم).

فهذه ثلاث وأربعون[١] صفة من صفات ومزايا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسَّلام، والتي يشتركون فيها جميعاً، ولكن لا بُدَّ هنا من التنبّه إلى مسألتين:

الأولى: إنَّ اشتراك أولئك الكرام في الصفات والمزايا المذكورة من حيث الأصل، لا يعني أنهم فيها سواء من حيث الدرجة، بل بينهم فيها تفاضلٌ وتباين، مع كونهم كلّهم فيها في القِمَّة بالنسبة لغيرهم، ولكن القمم أيضاً بينها تفاوت وتفاضل، والدليل على هذا، هو وجود التفاضل بينهم، كما بيّناه في السابق، ولا يكون التفاضل، إلّا في الصفات والمزايا.

الثانية: من الواضح أن الأكثرية الساحقة من هذه الصفات والمزايا، مِمّا يشترك فيها أهلُ الإيمان أيضاً، كلٌّ بِحَسَب درجته في الإيمان والتقوى والصلاح، ولكن لا شك أن هناك بَوْناً شاسعاً، بين أهل الإيمان عامة، وبين الرسل والأنبياء عليهم السلام خاصة، في مقدار الإتصاف بها ودرجة التمكُّن منها، كما أن بين أهل الإيمان كذلك يوجد تباين وتفاوت فيها.

وأما بالنّسبة للإمتيازات الخاصة التي خصَّ الله الحكيمُ بها بَعْضَ الرسل الكرام، فأمثلتها البارزة ثلاثة:

---

(١) ويمكن أخذ صفات ومزايا أخرى أيضاً، من الآيات التي أدرجناها ومن غيرها.

١) خُلَّة إبراهيم عليه السلام:

كما قال تعالى: ﴿...وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء]، والخليل هو الصَّفيُّ الذي يُبْذَلُ له خالِصُ المحبَّة[1].

٢) تكليم موسى عليه السلام:

كما قال تعالى: ﴿...وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء].

٣) تأييد عيسى بروح القدس:

كما قال تعالى: ﴿...وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ...﴾ [البقرة: ٨٧].

و(روح القدس) هو جبريل عليه السلام[2]، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل].

وأما ما خصَّ الله تعالى به نبيَّه الخاتم، ورسولَه الأعظم، ونورَه الأَتم سيِّد وَلَدِ آدم (محمداً) ﷺ، فسنتناوله في الكتاب السابع المخصّص له بإذن الله تعالى.

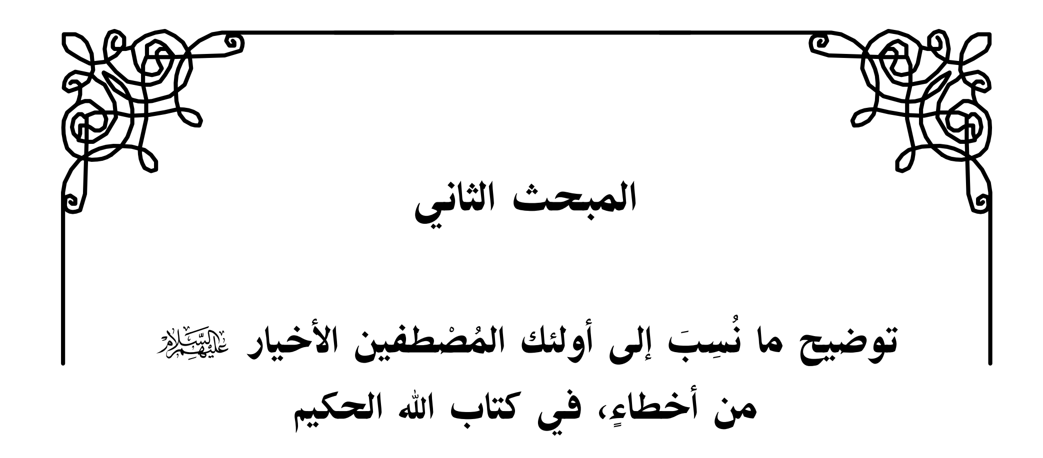
❋ ❋ ❋

والآن بعد الحديث عن صفات الرسل والأنبياء عليهم السلام ومزاياهم، نَتحوَّل إلى المبحث الثاني من هذا الفصل:

---

(١) المعجم الوسيط، ص٢٥٣.

(٢) لكن النصارى وقعوا في حيص بيص ـ في أناجيلهم المؤلَّفة ـ بالنسبة لتعريف (روح القدس)، كما ذكرناه سابقاً.



المبحث الثاني

توضيح ما نُسِبَ إلى أولئك المُصْطفين الأخيار عليهم السلام من أخطاءٍ، في كتاب الله الحكيم

ونقدِّم بين يَدي هذا الموضوع بيانَ هذه الحقائق الأربع الآتية، التي تُمهِّد لنا الطريق وتُزيلُ كثيراً من الأوهام والإشكالات التي أُثيرتْ حول بعض الرسل والأنبياء الكرام عليهم السلام:

١ ـ أخبر سبحانه وتعالى في كتابه المبين، أنَّ الأنبياءَ كلَّهم عبادٌ مُصْطَفون مُجْتَبون مُخْلَصون، ثم بيَّن كذلك بأنَّه يَصْرِفُ ويُبْعِدُ السوءَ والفحشاءَ عن عباده المخلصين، كما قال تعالى عن (يوسف) عليه السلام: ﴿...وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف]، وبما أن الأنبياء مُخْلَصون ومُصْطَفون، إذاً: فالسوء والفحشاء، مصروفٌ عنهم، وكلمتا السوء والفحشاء يَسَعُ مفهومُهما كُلَّ الذنوب والمعاصي.

٢ ـ إنَّ إبليس اللَّعين هو وراء كل الذنوب والمعاصي والسيئات، كما قال تعالى: ﴿...فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ...﴾ [النحل: ٦٣]، وقد أقرَّ اللَّعين بأنّه ليس له سلطان على عباد الله المُخْلصين: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر].

ثم أيّدَهُ الله العليم في هذا، حيث قال: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ

﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر].

ولا شك أن الأنبياء الكرام عليهم السلام، ليسوا عبادَ الله المُخْلَصين فَحَسْبُ، بل هم الصفوة المختارة منهم، وبالتالي فليس للشيطان تسلُّطٌ عليهم، ومن كان بِمَنْجاةٍ من الشيطان، يكون محفوظاً ومصوناً من التلبُّس بالذنوب!

٣ ـ إن الله تعالى وصف عبادَه الأنبياء عليهم السلام، بكل أوصاف الكمال البشري، من:

الإيمان، والتقوى، والصَّلاح، والتزكية، والعبادة، والخشوع، والصبر، والشكر، والتوكل، والإحسان، والعلم، والحكمة، والقوّة، والبصيرة، والحلم، والتأوه، والإنابة، وكثرة ذكر الآخرة، وهداية الناس، والصلاة، والزكاة، والسجود، والبكاء عند تلاوة آيات الله... إلخ.

وجَليٌّ أن المتَّصفين بكل هذه الأوصاف الجليلة والفضائل العظيمة يكونون أبعدَ الناس عن الخطايا والذنوب والرَّذائل.

٤ ـ ثم إنَّ لله تعالى عباداً من أهل الإيمان والتقوى، ويوجدون في كل عصر وزمان، قليلاً أو كثيراً، يَمُنُّ الله تعالى عليهم باجتناب الذنوب والسيِّئات، مع أنهم ليسوا أنبياء! فالأنبياء أولى وأَحْرى بأنْ يَمُنُّ الله تعالى عليهم بهذا.

وقد يتساءَلُ هاهُنا مُتسائِلٌ:

لماذا أَسْنَدَ الله تعالى المعصية والخطأ إلى بعض الأنبياء صراحةً أو إشارة، ثم ما معنى التوبة والإستغفار وحكمتهما من الأنبياء، ومغفرة الله لهم، طالما لم يرتكبوا إثماً ومعصية؟!

وجواباً عن هذا السؤال نقول:

أولاً: إنّ مفهوم المعصية بالنّسبة للأنبياء يختلِفُ عن مَفْهومها عندما تُسْتَعْمَلُ لغيرهم، إذ هم حسب قاعدة: (حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين) بما أنهم مُنْعَمٌ عليهم بالوحي والنبوَّة، وهم في أعلى درجات العبودية لله تعالى والقرب منه، لذا يعتبر أدنى مخالفةٍ منهم ذنباً وخطأً، وإن كان بسبب

النِّسيان أو الإجتهاد الخطأ، وهذا ما سَنُبَيِّنهُ فيما بعد، عندما نأتي إلى النظر في المواقف التي اعتبرت مخالفةً وخَطأً منهم.

ثانياً: إنَّ التوبة إلى الله تعالى والإستغفار منه والإنابة إليه، لا يشترط فيها أن تكون من جرّاء ارتكاب المعاصي والآثام، بمفهومها العام عند الناس، بل التوبة إلى الله وطلب العفو والمغفرة منه، مطلوبٌ في كل آنٍ ومن كل مسلم أو غير مسلم، وكلّما كان مقام العبد أرفع في العبادة وكان أقرب إلى الله تعالى، كان أكثر إحساساً بضرورة التوبة إلى الله تعالى واستغفاره والإنابة إليه، ليس عن الذنوب والمعاصي فقط، بل حتى عن الطاعة التي يؤدِّيها بإحسانٍ وإتقانٍ، إذْ عندما يُقارِنُها بعظمة الله وجلاله وربوبيَّته وألوهيته، ثم بنِعَمِه التي لا تُعَدُّ ولا تُحْصى، يراها قليلةً ناقصة، فَيُشْفِعُها بالتوبة والإستغفار جبراً لنقصها!

وهذا هو سِرُّ استغفار رسول الله ﷺ ثلاث مرّات، بعد تَسْليمه من كل صلاة فريضة يُصَلِّيها كما جاء في (صحيح مسلم)[1]، وكذلك كثرة استغفاره مُطْلَقاً، حيث ورد عنه في (صحيح مسلم) أنه كان يستغفر الله تعالى في اليوم مائة مرَّة![2].

والآن لنتأمَّل تلك الحالات والمواقف التي اعتبرت صراحةً أو ضِمْناً خَطَأً ومعصيةً، لبعض الرسل والأنبياء الكرام عليهم السلام، لكي نَسْتَجْلي حقيقتها:

١) **آدم** عليه السلام:

قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ... فَوَسْوَسَ

---

(١) صحيح مسلم: ٢٩٢٣، وسنن النسائي: ١٣١٩.

(٢) «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إلى الله واسْتَغْفِرُوهُ، فإنِّي أتُوبُ في اليَوم مئةَ مَرَّةٍ**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (٢٧٠٧) عَنِ أَبِي هُرَيرَةَ، وَفِي (صَحيح البُخَاري): «**والله إنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إلَيْه في اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**» (رَوَاهُ البُخَاري برقم: (٦٣٠٧) عن الأَغَرِّ بْنِ يَسار المزنيِّ رضي الله عنه).

إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه].

في هذه الآيات وصف الله تعالى آدم بالعصيان والغواية المترتبة على العصيان، ولكن الله تعالى بيَّن فيها أيضاً، أنَّ خطأَه المتمثل في الأكل من الشجرة، كان بسبب النِّسيان: ﴿فَنَسِيَ...﴾ والنِّسيان أحد الأسباب التي تجعل الأخطاء والذنوب مَعْفُوّاً عنها وغير مؤاخذٍ بها، كما قال تعالى على لسان عباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ...﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ومعلوم أن الله تعالى لم يُعلِّمَ عبادَهُ، هذا الدعاءَ إلّا ليتقبَّلَهُ منهم[١]، وإنّما حُسِبَ ذلك النسيان على آدم، معصيةً، لِرِفْعَةِ مقام الأنبياء الذي يقتضي أن يُحسب عليهم ما لا يُحسب على غيرهم، طبقاً لقاعدة: (حسنات الأبرار سيِّئات المُقَرَّبين).

٢) **يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:**

قال الله تعالى:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء].

وخلاصة موقف (يونس) عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذا، هي كالآتي، كما بيَّنه سبحانه في الآيات (١٣٩ إلى ١٤٨) من (الصافات):

(١) وهذا الحديث دليلٌ قاطعٌ على ما قلناه: «**عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، **قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وَعِنْدَهُ جِبْرِيلُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **إِذْ سَمِعَ نَقِيضاً فَوْقَهُ، فَرَفَعَ جِبْرِيلُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ:** «**هذا باب قد فتح من السماء، ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منهما إلا أعطيته**» (رَوَاهُ مسلم: ٨٠٦. النَّسَائِيُّ برقم: (٩١٢) وَصَحَّحَهُ العَلَّامَة الألباني في (صحيح سُنن النَّسائي)).

أرسل الله تعالى (يونس) إلى قوم (نينوى) ولكن لم يستجيبوا له فَغَضِبَ منهم وذهب وتركهم، وتصوَّر بأنّ الله تعالى لا يُضَيِّقُ عليه، وأَنَّهُ يَسْمَحُ له أنَّى ذهب، ثم لما ركب سفينةً في البحر، واقترع رُكّابُ السفينة بينهم أن يرموا بأحدهم في البحر ـ ربّما تخفيفاً عن حِملها ـ وقعت القرعة عليه وأُلقيَ في البحر، أو هو أَلْقى نَفْسَهُ فيه، فابتلَعَهُ الحوت، ثم في بطن الحوت تبَيَّن له خطؤه، فبدأ بتوحيد الله وتنزيهه والإعتراف بِخَطَئِه، قائلاً: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ فتاب الله تعالى عليه وازدَرَدَهُ الحوتُ، ورمى به إلى البَرِّ سقيماً، وأَنْبت الله تعالى عليه (يقطيناً)[1] فشُفي بإذن الله ورجع إلى أهل نينوى، وكان عددهم مائة ألف نسمة أو أكثر، وآمنوا به، ورفع الله تعالى البلاءَ المقرَّر إنزالُهُ عليهم، في حالة الإصرار على كفرهم، كما قال تعالى بالنسبة لرفع البلاء عن أهل نينوى بسبب إيمانهم: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس].

إذاً:

خَطَأُ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضاً كان بسبب ظنّ واجتهادٍ خطأٍ، أدّى به إلى الإستعجال، وتَرْكِ قومه من دون أمر الله وإذنه، ظناً منه أنه في سَعَةٍ من أمره حيثما ذهب، وليس خافياً أنَّ هذا النوع من الخطأ شيءٌ، وتَعَمُّد الذنب والمعصية، شيء آخر.

٣) داود عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وداود عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الآخر سُجِّلَ عليه خطأٌ في كتاب الله المبين، كما قال سبحانه وتعالى بهذا الصَّدد:

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ

(١) اليقْطين: ما لا ساق له من النَّبات كالقِثّاءِ والبِطِّيخ وغَلَبَ على القَرْعِ. المعجم الوسيط، ص٧٤٨.

أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص].

وهذه الآيات واضحة الدّلالة على أن خطأ (داود) عَلَيْهِ السَّلَامُ، يتمثَّل في استعجاله إصدارَ الحكم على المدّعى عليه في القضية المعروضة عليه، بمجرَّد سَماعِه دَعْوى المدَّعي، من دون الإستماع إلى كلام المدَّعى عليه، ودفاعِهِ عن نفسه، ويدلُّ على هذا قوله تعالى في بداية القِصَّة: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾.

وخلاصة القصّة والقضية المعروضة على (داود) عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الآيات:

أن الله تعالى أرسل مَلَكَيْن[١] تمثَّلا في صورة رجلين متخاصمين فدخلا على داود، وهو في محراب العبادة الذي لم يكن يَدْخُلْ عليه فيه أحدٌ، وقالا له: نحن خصمان جئناك لتحكم بيننا بالعدل والحق، ثم عرض عليه أحدُهما قضيَّته قائلاً ومُشيراً إلى صاحبه: هذا أخي وله تسع وتسعون نَعْجَةً، وأنا لي نَعْجة واحدة فقط، ولكن أَلَحَّ علي ثم أقنعني وألزمني الحجة، أن أعطيه نَعْجَتي الوحيدة، وبالنتيجة يُصْبِحَ عَدَدُ نِعاجِهِ مائة، ولا يكون لي شيء! ولم يملك داود نفسه أمام هذه القضية المثيرة المُسْتَفِزَّة، بل تعجّل بإصدار الحكم على المدَّعى عليه، قبل أن يستمع إلى كلامه ودفاعه،

(١) والدليل على كون الخصمين اللَّذَيْن دخلا على داود في محرابه، مَلَكَيْن، هو قوله تعالى: ﴿...وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ...﴾ [ص: ٢٤]، وكذلك قوله في سياق نفس الآيات: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ...﴾ [ص: ٢٠]، أي: قوَّينا حكمه وسلطانه، ومن كان قوي السلطان، لا يمكن أن يدخل الناس محراب عبادته على حين غِرَّة، بحيث يفزع منهم!

وقال: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ...﴾ [ص: ٢٤].

ثم أدرك داود عليه السلام خطأه، وعَلِمَ أن هذا كان امتحاناً من الله تعالى: ﴿...وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ...﴾ [ص: ٢٤]، و(ظنَّ) هُنا بمعنى علم واستيقن، لأن كلمة (ظنَّ) يَتحدَّدُ معناها بين الشك المذموم واليقين الممدوح، بحسب السياقات التي ترد فيها(١).

وفور اطِّلاعِهِ على خطئه، وسقوطه في الإبتلاء، بسبب الإستعجال وغَلَبةِ العاطفة، تاب داود عليه السلام واستغفر ربَّه لما وقع فيه من خطأٍ في الحكم، وقبل الله التوّاب توبته وغفر له: ﴿...قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص].

وتعقيبه سبحانه على تلك الحادثة بقوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ...﴾ [ص: ٢٦]، لدليل واضحٌ على أنَّ معنى الآيات هو ما ذكرناه - أي أن القضيَّة المعروضة أمام داود عليه السلام، كان المقصود منها تَنْبيهَ (داود) عليه السلام في مجال الحكم والقضاء، وتلقينه دَرْساً لا ينساه أبداً -.

والمقصود بقوله تعالى لِداود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: ولا تَتَّبعْ العاطفة، لأن خطأه في الحكم على القضية المثيرة المعروضة عليه، كان بسبب غلبة العاطفة وعَدَم التأنّي(٢).

وأمّا القصَّة الخرافية التي أخذها بعض المفسِّرين عن أهل الكتاب والتي خلاصتها: أن داود عليه السلام كانت له تسع وتسعون زوجة وطمع في زوجة أحد قوّاده واسمه (أوريا)، ثم أرسله إلى القتال إلى أن قتل وتزوَّج

(١) المصباح المنير، ص٢٠٠، والمعجم الوسيط، ص٥٧٨.

(٢) الهَوى: المَيْلُ والعِشْقُ ويكون في الخير والشرِّ، والهوى: مَيلُ النفس الى الشَّهوة. المعجم الوسيط، ص١٠٠١.

زوجته[1]، فهي لا تليق بمسلم متوسِّط الإيمان، فكيف بنبي كريم مثل داود عليه السلام، وهذه القصة إحدى أساطير العهد القديم، واليهود مُعْتادون على إلصاق التهم بأنبياء الله الكرام، وتشويه سمعتهم، وقد تحدَّثْنا عن كل من العهد القديم والعهد الجديد، وبينّا بعض ما فيهما مِمّا لا يقبله الدين القويم والعقل السليم، في الفصل الرابع من هذا الباب. (أي في الكتاب الخامس من هذه الموسوعة).

٤) **سُليمان** عليه السلام:

وسليمان أيضاً نَسَبَ إليه كتابُ الله خطأً وقع فيه، ثم تاب إلى الله تعالى منه واستغفره، كما قال تعالى:

﴿. . . وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص].

وقد فسَّر أكثر المفسِّرين هذه الآية التي تتحدَّث عن ابتلاءِ الله وفتنته لِسُلَيمان بما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم:

«قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِساً يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله، فَقَالَ لَهُ: صَاحِبُهُ، قُلْ إِنْ شَاءَ الله، فَلَم يَقُلْ، وَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئاً إِلَّا وَاحِداً سَاقِطاً إِحْدَى شِقَّيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: لَوْ قَالَهَا لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٤٢٤)، وَمُسْلِمٌ برقم: (١٦٥٤)، ولكن لا بدّ من التأكُّد التام من صحّة هذا الحديث رواية ودراية وذلك لأنَّ الطواف على سبعين امرأة ليس في طاقة بشر كما لَا يخفى، ولا يَسَعُهُ وقت اللَّيل! ثم ماذا يبقى وقت النبي سليمان عليه السلام للعبادة والذكر والمناجاة؟! لِذا لا أُخْفي أن في نفسي من هذا المرويِّ شيئاً بل أشياءً، اذ

(١) كما جاء في (الكتاب المقدس)، (العهد القديم) سفر: صموئيل الثاني، الإصحاح (١١) (خطيئة داود وخِداعُهُ) ص٦٥٩ ـ ٦٦١، (التفسير التطبيقي للكتاب المقدس).

يستحيل أن يقول رسول الله (محمّدٌ) ما يخالف الواقع!!

والآن (٩/٤/١٤٣٤هـ/٩/٢/٢٠١٣م) أقول: إن ظاهر الآية المباركة: ﴿ . . .وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص]. لا يُفهم منه إلاّ أن الله تعالى ابتلى سليمان عليه السلام بإلقاءِ جَسَدٍ على كُرسيِّه، ولا يضطرُّنا شيءٌ أن نُفَسِّرَ كلام الله تعالى بما يُخرِجُهُ من ظاهره، وإذا خُيِّرنا بين أن نَنْسِبَ إلى رسول الله ﷺ قَولاً مُصادِماً مع العقل والواقع، أو أن نُخَطِّيءَ بعض الرواة، فالثاني هو المُتَعَيِّن، إذ رسل الله وأنبياؤه معصومون، ولكن غيرهم ليس معصوماً أياً كان.

والمقصود بـ (جسداً) في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص]، هو ذلك الطفل الوحيد الناقص الخَلْق الذي ولِدَ له، وذَهبوا به إليه ألْقَوه على كرسيِّه ليراه، وأعطاه الله الحكيم ذلك الطفل اختباراً له، وليس عقوبةً له على نسيانه قول: (إن شاء الله) في قسمه.

هذا وقد نَسَجَ خيالُ بعض المفسِّرين حول تفسير هذه الآيات، قِصَّةً عجيبةً لا يَسَعُها عقل سليم، ولا يقبلها نقل صحيح، ولها ارتباط بالجن والشياطين، ولا شك أن أنبياء الله الكرام، هم أعلى مقاماً من أن تتسلَّط عليهم الشياطين وتَلْعَبَ بهم، كيف، وقد أَقَرَّ إبليس نَفْسُهُ أنه ليس له سلطانٌ على عباد الله المُخْلَصين عموماً: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر]، ومعلومٌ أن الأنبياء عليهم السلام هم خلاصة المُخْلَصين!

إذاً:

فالخطأ الذي استغفر الله تعالى منهُ نَبيُّه الكريم سليمان، الذي سمّاه الله (نعم العبد)، لم يبيِّن في الآيات ما هو؟ وقد يكون هو نسيانه قول: (إن شاء الله) أو عدم قَوْلِهِ إيّاه تَعمُّداً، أو شيءٌ آخر من هذا القبيل، وهذا إنما يعتبر خطأً وذنباً بالنسبة لمقام الأنبياء الرَّفيع، وإلّا فهو ليس ذَنْباً بالمفهوم المتعارف عليه بيننا للذنب.

٥) **يوسف** عليه السلام:

قال جلّ وعلا:

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف].

والظاهر أن المقصود بـ(هَمَّ بها) هو نفس مفهوم (هَمَّتْ به) أي: أن كليهما تحرَّكتْ فيهما داعية الشهوة، ولكن لم يُحْسَبْ ذلك الهَمُّ ذَنباً على يوسف عليه السلام، لأنّه:

أولاً: لا تَخْلو الطبيعة البشرية من الهَمِّ وخاطر السوء الذي يلقي به إليه الشيطان، ولكن المهم ألّا يَسْترسل الإنسانُ مع الهَمِّ السّيء، إلى أن يترسخ في القلب ويتحوّل إلى عَزْمٍ وتصميم، والذي يَعْقبُهُ العَمَلُ والتنفيذ.

ثانياً: هَمُّ يوسف عليه السلام وإن كان يشترك مع همِّ امرأة العزيز من حيث الجِنْس، ولكن من حيث النوع كان مختلفاً عنه تماماً، إذْ كان همّ يوسف خاطراً عابِراً سُرْعان ما طرده من ذهنه، ولم يَدَعْهُ يدخُلُ في قلبه، ولكن همَّ المرأة كان هَمّاً قوياً قاهراً، بل كان عَزْماً وتصميماً، وموقف كل منهما مرآة لتجلية نوعيةِ هَمِّه، فالمرأة تطالب وتُلِحّ وتُطارد، ويوسف يستعيْذُ بالله ويَسْتَنْكِرُ ويَهْرُبُ!

والمقصود بقوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ أي: لولا أنَّ يوسف عليه السلام، شاهَدَ برهانَ ربِّه الذي هو في قلبه، وهو إيمانه بالله وحياؤه منه وخَشْيته منه، لَتابَعَ هَمَّهُ السَّيءَ، ولكن منعه من ذلك إيمانه بالله تعالى.

وقد خاض بعض المفسِّرين في شرح همِّ يوسف والبرهان الذي رآه، بما ليس له سَنَدٌ من النقل ولا يقبله العقل، ولا يليق بمسلم بسيط فكيف بنبي كريم ابن كريم ابن كريم ابن كريم ـ كما جاء في حديث رسول الله ﷺ

عن يوسف[1] ـ، ومِمّا سُطِّر في بعض التفاسير بهذا الصَّدد، هو أنَّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حَلَّ تكَّةَ[2] سراويله، ثم قعد منها مقعد الرجل من زوجته، ولكن هناك بدا له يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يَعُضُّ على أصابعه ويعاتبه... إلخ!

ولا شك أن هذا خطأ فظيع، سنداً وَمَتْناً، وهو مُتَصادِمٌ مع قوله تعالى: ﴿...وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف]، وذلك لأن ما ذُكِر عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، من أنه كان يقع في الزِّنى، لولا أن رأى أباه يعقوب أو جدَّه إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، يعتبر سوءاً منه، ولكنَّ الله تعالى صرَّح بأنَّهُ أَبْعَدَ عنه السوءَ والفحشاء، وأنه كان من عباده المخلصين الذين ليسَ لإبليس اللّعين مجال لِلتسلُّط عليهم.

٦) **موسى** عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص].

ونُسَجِّلُ على تلك الحادثة التي تتحدّث عنها هذه الآيات ـ أي حادثة قتل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للرجل القِبْطيِّ الذي تعارك مَعَهُ الإسرائيلي المُشاغب ـ هذه الإيضاحات:

١ ـ إن تلك الحادثة كانت قبل النبوَّة، لأن إنباءَ الله تعالى لموسى وإيحاءَه إليه كان بعد عودته من (مَدْيَن) بأهله، بعد أن قَضَى عشرة أعوام هناك راعياً.

---

(١) والذي رواه البخاري في صحيحه: ٤٦٨٩ ومسلم: ٦١١١.
(٢) التِّكَّة: رِباطُ السَّراويل، ج: تِكَكْ. المعجم الوسيط، ص٨٦.

٢ ـ وكان موسى في حالة دِفاعٍ عن مظلومٍ مضطهد ـ على الأقل في الظاهر ـ.

٣ ـ ولم تَجْرِ العادَةُ أن يُقْتَلَ الإنسانُ بِوَكْزَةٍ ـ أي: بِجُمْعِ كفّ ـ.

٤ ـ ثم لم يكن موسى قاصداً قتله، بل أراد دفعه عن الإسرائيلي المستغيث به فقط، بدليل أنه قال بعد أن رأى القِبْطِيَّ مات إثر ضَرْبَتِهِ مُباشرة: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ولو كان قاصداً قَتْلَه، لما نَدِم على قتلِهِ مباشرة، ولما نَسَبَ ذلك العمل إلى الشَّيطان، بل كان يَحْمَدُ الله تعالى على تَيْسيره إيّاه لَهُ!

وبناءً عليه:

فقتل موسى لذلك القبطيِّ الظالم، ما كان قَتْلَ عَمْدٍ، لأن القتل العَمْد هو الذي يتوفّر فيه كل من ركني:

أ ـ قصد القتل وإرادته.

ب ـ وآلة يُقتل بها غالباً.

ولكن كلا الركنين مُنْتَفٍ في ذلك القتل، وبانتفاء أحدهما لا يكونُ القتل عَمْداً، فكيف بانتفائهما معاً!

٧) **نوح** عليه السلام:

قال الله العليم الحكيم:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود].

وخطأ (نوح) عليه السلام الذي استغفر منه ـ والذي تتحدّث عنه هذه الآيات

ـ هو طلبه من الله تعالى أن يُنْجي ابْنَه ـ يقال كان اسمه (كنعان) ـ مع أنه كان كافِراً ولم يؤمن بنوحٍ، ولم يركَبْ معهم السفينة بالرغم من إلحاح أبيه عليه، كما قال تعالى: ﴿...وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود].

وواضح من الآيات (٤٥، ٤٦، ٤٧) أن خطأ نوحٍ عليه السلام ذلك كان بسبب:

١ ـ فَهْمِهِ الخطأ لكلمة (أَهْلَكَ) الواردة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود]، حيث تصوّر بأنَّ مفهومَها يشمل كلَّ أبْنائِهِ، بما فيهم ذلك الإبن العاق.

٢ ـ وربَّما كان سبب خَطَئِه، نسيانه للإستثناء الذي قيَّد به سبحانه كلمة (أهلك) وهو: (إلّا من سبق عليه القول).

٣ ـ أو عدم عِلْمِهِ بكفر ابنه، وتصوّره بأنه مؤمن، ولهذا ناداه أن يركب معهم في السفينة، ولا يكون مع الكافرين: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ولو أنه علم بكفره، أو بقائه على الكفر، لدعاه إلى الإيمان أولاً، ثم الركوب معه في السفينة.

وأنا الآن أرجحّ السّبب الثالث لِما ذكرته توّاً، وكذلك لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود]، إذ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾ دليلٌ على أن نوحاً عليه السلام ما كان يعلم بقاءَ ابنه على الكفر أو: ما كان يَعْلَمُ كُفْرَهُ، الذي طرأ عليه بعد إيمانه، ولهذا نبَّهه سبحانه أن ابنه لم يعمل صالحاً، وإنما يثمر العَمَلَ الصالِحَ الإيمانُ، أو المقصود بالعمل الصالح هو الإيمان نفسه، وما يحتوي عليه من الآثار والثمار.

ولهذا أيضاً استعاذ نوحٌ عليه السلام بالله تعالى، أن يَطْلب منه مرةً أُخرى شيئاً لا علم له به: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ...﴾ [هود: ٤٧].

وجَليٌّ أن هذا ليس معصيةً بالمفهوم الدارج للمعصية، ولكن مقام الأنبياء الرفيع، يوجِبُ الإحترازَ حتى من هذه الصغائر.

وقد قُرِيء قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ بقراءتين:

١ ـ (إنه عملٌ غير صالحٍ).

٢ ـ (إنّه عَمِلَ غَيرَ صالحٍ).

ومَعْنياهُما قريبان، ولكن أُحَبِّذُ القراءةَ الثانية، لأن القراءة الأولى فَهِمَ مِنْها بعضُ الناس، معنًى غير لائق، وهو كون ابن نوح من غير حلالٍ، وهذا لا يليق بالأنبياء عليهم السلام، لأنه يَشينُهم ويُفْسِدُ أنسابَهُمْ، بخلاف الكفر الذي لا يعتبره الكفّار شَيْناً، وكذلك لا يترتب عليه اختلاط النسب، ولكن القراءة الثانية لا يمكن فَهْمُ ذلك المعنى منها.

وحكمة القراءة الأولى هي أنه يفهم منها، بأن جوهرَ الإنسان يتلخَّص في أعماله ومواقفه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ ولم يقل ـ مثلاً ـ (إنه ليس له عَمَلٌ صالحُ) وذلك تنبيهاً على أهمية العمل الصالح، وأن الإنسان بدونه ليس شيئاً.

وفي هذه القصة دَرْسٌ عظيم لأهل الإيمان مؤدّاه:

أنه عندما تنفصم رابطة الإيمان والعقيدة بين طرفين ـ ولو كانا والداً وَوَلداً ـ فكل الوشائج والإنتمائات الأخرى في ميزان دين الله، تذهب هباءً منثوراً، ولا تعوِّض عن تلك الرابطة الربانية!

٨) إبراهيم عليه الصلاة والسَّلام:

قال الله تعالى:

﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ

تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۢ. . .﴾ [الممتحنة: ٤].

في هذه الآية المباركة يأمرنا الله تبارك وتعالى أن نقتدي بإبراهيم عليه السلام وأتباعه، في البراءة من الكفار وإن كانوا قوماً وأقرباء، ثم يستثني المولى جلّ وعلا موقفاً واحداً من مواقف إبراهيم، مِمّا يجب علينا التأَسّي به فيه، وهو: (استغفاره لأَبيه آزر)، كما جاء في قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء]. وموقف إبراهيم عليه السلام هذا وإن كان خطأً في الظاهر، ولكن الله تعالى لم يَحْسِبْهُ عليه ذنباً ومعصيةً، وذلك لثلاثة أسباب، كما بيّنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة].

إذاً هناك ثلاثة أعذار لإبراهيم عليه السلام، في استغفاره لأبيه:

أولاً: كان استغفاره له إنجازاً لوعدٍ سابق وعده به، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم]، وإنجاز الوعد واجبٌ، ما لم يَحُلْ دونه مانعٌ شرعي.

ثانياً: كان إبراهيم طامعاً في إيمان أبيه، ولكن لمّا أَيسَ منه وتبيَّن له أنه عدُوٌّ لله تعالى، ولم يُنْهِ عداوته، فهناك رفضه وتَبرَّءَ منه: ﴿. . .فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ. . .﴾ [التوبة: ١١٤]، إذاً: كان موقف إبراهيم اللَّيِّن الرفيق مع أبيه، دافعه أن يجعله ولياً لله تعالى، ولكن لما وصل معه إلى طريقٍ مسدود، أعلن براءته منه.

ثالثاً: ثم إن إبراهيم عليه الصلاة والسّلام كان كثير الخوف والشفقة من الله تعالى، وكان بالغَ الحِلمْ والصبر مع الناس، وهاتان الصفتان جَعَلْتاهُ مُشْفِقاً على أبيه من عذاب الله وعقابه، ومتأنّياً معه، وبالتالي استمَرَّ على الإستغفار له، إلى أن لم يبق له فيه أي مجال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾

وبِما أن هذا الموقف لم يُحْسَبْ على إبراهيم الخليل ذنباً للملابسات التي اكتنفته، لِذا لم يستغفر إبراهيم له على الخصوص، وإن استغفر الله تعالى على العموم، كسائر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما في قوله على لسانه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم].

٩) هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال الله تبارك وتعالى:

١ ـ ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ... قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٨٦ ـ ٩٤].

٢ ـ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف].

هذه الآيات تتحدّث عن حادثة ذَهاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للموعد الذي وقَّته له ربُّه، ليتلقّى من ربِّه، التوراةَ، مكتوبةً على ألواح، واستخلف موسى أخاه هارون، ووصّاه أن يُحْسِنَ عنه الخِلافة والنِّيابة، ولا يتأثّر بالأشرار المفسدين، كما قال تعالى: ﴿... ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف]، ولما رجع موسى بعد تلقّي الألواح، وجد قسماً من بني إسرائيل عاكفين على عبادة العجل الذهبي الذي صنعه لهم السامريّ، من حُلِيِّ نسائهم وأطفالهم بعد إذابة الحلي.

وقد فنَّدنا في الكتاب الخامس من هذه الموسوعة ما جاء في العهد القديم، حول إتهام هارون الحليم عَلَيْهِ السَّلَامُ بصنع العجل الذهبي لبني إسرائيل، ولكن الذي نريد أن نبحثه هنا ليس ذلك الموضوع، بل هو موضوع آخر، وهو:

هل غَضَبُ موسى عليه السلام على أخيه هارون، وجَرُّه إليه بشعر رأسه ولحيته، يَدُلُّ على أن هارون عليه السلام ارتكب ما يستحق عليه هذا التعزير من أخيه، أم أن موسى عليه السلام ظَلَمَه وآذاه من دون ما جريرة؟!

والجواب:

أولاً: أما بالنسبة لهارون عليه السلام، فهو بالإضافة إلى اعتذاره لأخيه موسى بِعُذْرَيْن مُقْنِعَيْن، وهما قوله: ﴿...قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه]، أي خفت من أن تعاتبني، فيما لو أعلنتُ حَرباً أهليةً بين فريقي بني إسرائيل الباقين على العهد معي، والعابدين للعجل مع السّامريِّ، ولهذا تَرَيَّثْتُ رَيْثَما ترجع، وتعالج هذه المشكلة العَويصَةَ بنفسك، لأني رأيت أَنَّ معالَجَتَها تتطلَّبُ ما هو فوق حدود صلاحيتي.

وقوله: ﴿...ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي...﴾ [الأعراف: ١٥٠]، أي: إني كُنْتُ مَغْلوباً على أمري بسبب قِلّة أنصاري وكادوا أن يقتلوني، ومن الثابت نقلاً والبديهي عقلاً، أن الله تعالى لا يكلِّف نفساً إلّا وسعها، وهذا حكمٌ ثابتٌ في كل شرائع الله تعالى، كما تشهد به الفطرة ويشهد به العقل السليم، إذ غير هذا لا يليق، بحكمة الله البالغة وحكمه التام.

أجل بالإضافة إلى هذين العذرين المُقْنِعَيْن اللَّذَيْن أقنعا موسى فوراً، بيَّن تعالى موقف هارون السليم أيضاً، حيث قال: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه].

وعليه: فقد قام هارون عليه السلام بدوره تمامَ القيام، ولم يكن في وسعه أكثر مِمّا قام به، هذا بالنسبة لِهارون عليه السلام.

ثانياً: وأما بالنسبة لموسى عليه السلام، فكل ما قام به من:

١) إلقائه الألواح، كي تتفرَّغ يداه للإمساك بأخيه ومُحاسبته.

٢) وإمساكه برأس أخيه ولحيته وجرِّه بهما إليه.

٣) وتوبيخه لأخيه ومحاسبته إيّاه.

كما هو واضح في الآيات، إنَّما فَعَلَهُ غضباً لله تعالى، لما رأى من انتهاك أعظم محارمه: توحيده سبحانه، الذي لم يَبْعَثْ رسله، ولم ينزل كتبه إلّا لِأَجْله، ولا شك أنّ الغضب لله تعالى وللدفاع عن محارمه، ممدوح بل واجبٌ، ثم علاوة على هذا، فإن موسى عليه السلام كان ذا طبيعة قوية شديدة حماسية، كما هو واضح في كل مواقفه، قبل النبوّة والرسالة وبعدهما، والله تعالى جَبَلَهُ على تلك الطبيعة كي تكون مُتكافئة مع طغيان فرعون الشديد من جانب، ومع الإنحرافات الشديدة والكثيرة التي تَمَخَّضَتْ عنها شَخْصيَّةُ بني إسرائيل المُعْوَجَّة، تحت ضغط الظلم الفرعوني، وقلوبهم القاسية التي وصفها الله بكونها أشدّ قسوة من الحجارة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...﴾ [البقرة: ٧٤].

هذا وليس في الآيات المباركات ما يدلُّ على أن الله تعالى حَسَبَ تلك المواقف على كل من موسى وأخيه هارون عليهما السلام خطأً وذنباً، وأما استغفار موسى لنفسه وأخيه بعد استماعه لاعتذاره: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف]، فهذا هو دَيْدَنُ الأنبياء والمرسلين، حيث يستغفرون الله حتى عند قيامهم بالطاعة، خوفاً من التقصير في جنب الله تعالى.

وبَعْدُ:

فهذه المواقف التِّسعة، هي كلُّ ما تبيَّن لي بعد استقرائي لقصص الأنبياء عليهم السلام، مِمّا اعتبر صراحةً أو ضمناً خطأً وعصياناً لهم، أو فهمه بعض الناس هكذا، وقد تبيَّن لنا بوضوح، أنَّ أياً منها ليس خطأً ومعصيةً بالمفهوم المتعارف بيننا للخطأ والعصيان، وهو تعمُّد الإنسان إتيان فِعْلٍ ما، مع كونه عليماً بأنه ذنْبٌ ومعصية.

ونخلص من كل ما قلناه إلى القول:

إن الأنبياء وفي مقدِّمتهم الرسل عليهم الصلاة والسَّلام، كانوا كلُّهم محفوظين ومَعْصومين عن الذنوب والمعاصي، وأن ما نسب إليهم في كتاب الله تعالى، وإن سُمِّي معاصي وذنوباً، واستغفروا الله تعالى منه، لكنه لا يعدو أن يكون خطأً اجتهادياً، أو هفوة بسبب النّسيان أو الإستعجال، ولكن بما أن النبوَّة مقام رفيع، فبالنسبة إلى مقامهم ومكانتهم الرفيعة، عوتبوا عليه واستغفروا الله تعالى منه، وصار لهم تمريناً ورياضَةً يُقَوِّيهم، وتَرْتَفِعُ به مكانتهم، وهذا واضحٌ في قول الله تعالى عن أبينا الكريم (آدم) عليه السلام: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه]، حيث ذكر سبحانه اجتباءه لآدم بعد خطئه وتوبته إلى الله منه! وكذلك في قوله تعالى عن (سليمان) عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص]، وهنا كذلك وهب الله تعالى ذلك النَّبِيَّ المَلِكَ، المُلْكَ الذي لم يُعْطِهِ أحداً قبله ـ حسبما نَعْلَم ـ، ولا بعد، كما هو واضحٌ في الآية، بعد أن ابتلاه الله، ثم تاب إلى الله تعالى واستغفره!

ونختم هذا المبحث الثاني بقولنا الآتي:

إن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام هم صفوة الله المختارة من البشر، وقد جَبَلَهُمُ الله الحكيم العليم على الفضائل الإنسانية كلِّها، ثم اكتسبوا بنور الوحي والنبوة، كلَّ الفضائلَ الإيمانية التي لا تُعْرَفُ إلّا بالوحي، وبالنتيجة فصارت فضائِلُهم الجِبِلِّيَّة الإنسانية والكسبية الإيمانية (نوراً على نورٍ)، وذلك كي يكونوا بحقٍ حجَّة الله تعالى على خلقه بأتم صورة، وعلى كل الأصعدة.

وبناءً عليه: فشخصية الأنبياء عليهم السلام، هي الشخصية الممتازة الفريدة التي لم يَبْلُغْ ولا يبلُغ مستواها الرفيع سواهم، بل غيرهم إنما ترتفع أقدارُهم ويتفاضلون فيما بينهم، على أساس مَدى قربهم منهم واهتدائهم بِهَدْيهم واتِّصافهم بصفاتهم وتشبُّههم بهم.

وهذا هو حكمة تنويع الله الحكيم في شخصيات أولئك الأكارم الأفاضل الأخيار عليهم السلام، وذلك كي يكونوا بجموعهم قدوة لكل أَصْناف الناس، ولجميع شرائح المجتمع، إذْ فيهم:

١ ـ الملك: كداود وابنه سليمان، ويوسف في آخر حياته عليهم السلام.

٢ ـ والغني الذي يملك أملاكاً وأموالاً كثيرة: كشعيب وإبراهيم عليهما السلام، حيث قال شعيب عليه السلام عن نفسه: ﴿...وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ...﴾ [هود: ٨٨]، وقال تعالى من إبراهيم عليه السلام: ﴿...فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء].

٣ ـ والمُعْدِمُ الذي لا يملك شيئاً: كعيسى عليه السلام.

٤ ـ والبطل المقاتل: كداود عليه السلام.

٥ ـ والوديع الزّاهد: كيحيى وعيسى عليهما السلام.

٦ ـ والسجين ظلماً: كيوسف عليه السلام.

٧ ـ والهارب خوفاً من الظلم: كموسى عليه السلام.

٨ ـ والحليم الصَبّور الرفيق مع أخيه، ومَنْ هو أعلى منه في المنصب: كهارون عليه السلام.

٩ ـ والمتزوّج وأبو الأولاد: كأكثر الأنبياء وخصوصاً: نوح وإبراهيم ويعقوب عليهم السلام.

١٠ ـ والأعزَب (غير المتزوج): كعيسى ويحيى عليهما السلام.

١١ ـ والمبتلى بمرض وبلاءٍ في النفس والأهل والمال: كأيّوب عليه السلام.

١٢ ـ والمتصدِّي لطاغوت يدّعي الرّبوبية والألوهية على الناس: ككل

الأنبياء وخصوصاً إبراهيم وموسى اللذين تَصَدَّيا لنمرود وفرعون.

١٣ ـ والمتصدِّي لإنقاذ شعبه المستضعف المضطهد: كموسى عليه السلام.

١٤ ـ والمهاجر في سبيل الله التارك للأهل والوطن: كإبراهيم عليه السلام.

١٥ ـ والفارّ بأهله من البلاء: كلوط عليه السلام.

١٦ ـ والمحاور الرزين القوي الحجة المُفْحِم للخصم: ككل الأنبياء وخصوصاً إبراهيم وموسى وهود وشعيب عليهم السلام.

١٧ ـ والمستند (بعد الله) على رهطٍ وعشيرة: كشعيب عليه السلام. إذ قال له كبراء قومه: ﴿...وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ...﴾ [هود: ٩١].

١٨ ـ وعديم الظهر والسَّند (الظاهري البشري): كلوط وزكريّا ويحيى وعيسى عليهم السلام.

١٩ ـ والمُبْتلى بفقد الوَلَد: كيعقوب عليه السلام.

٢٠ ـ والمضحِّي بِفلْذةِ كبِدهِ: كإبراهيم عليه السلام.

٢١ ـ ومرتكب الخطأ بسبب النسيان: كآدم عليه السلام.

٢٢ ـ وبسبب العجلة والغضب: كيونس عليه السلام.

٢٣ ـ وبسبب الإنفعال والإستفزاز: كداود عليه السلام.

٢٤ ـ وبسبب الغفلة الطارئة عن مشيئة الله الكلية: كسليمان عليه السلام.

٢٥ ـ والمبتلى بقومٍ ذوي صلابة وعناد واستكبار: كنوح وهود وصالح عليهم السلام.

٢٦ ـ والمبتلى بشعب مُعْوَجٍّ ذي انحرافات كثيرة: كموسى وعيسى عليهما السلام.

٢٧ ـ والمبتلى بِزَوجةٍ كافرة: كنوح ولوط عليهما السلام.

٢٨ ـ والمبتلى بأبٍ كافرٍ قاسي القلب: كإبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر.

٢٩ ـ والمبتلى بولد عاق كافر: كنوح عليه السلام.

٣٠ ـ والرّاعي: كموسى عليه السلام.

٣١ ـ والصانع: كداود عليه السلام.

وهكذا نَجِدُ نماذج شتى من القدوة والأسوة في الرسل والأنبياء عليهم السلام، وهي من الكثرة والتنوّع، بحيث لا يَعْدِمُ أحدٌ من الناس وفي مختلف شرائح المجتمع، أحسن قدوة له في أولئك الكرام عليهم السلام، ليقتدي بهم في حياته وفي مواقفه، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء]، فالرسل والأنبياء مُبَشِّرون للطائعين، ومُنذِرون للعاصين وهم حجة الله البالغة على الناس أجمعين، من كل الوجوه، فليس لأحد أي عذرٍ في ترك العبادة لله ـ بِمفهومها الواسع الذي بينّاه في الفصل الثاني من هذا الباب ـ أي في الكتاب الثالث ـ بعد إرسالِهِ أنبياءه الكرام عليهم الصلاة والسَّلام.

ثم إنَّ (محمداً) ﷺ خاتم النبيين وسيِّد المرسلين، هو القدوة المُثْلى الذي يجمع في نفسه شتى الجوانب للإهتداء والإقتداء به، كما يأتي في الكتاب السابع بإذن الله تعالى.

وأمَّا الآن فإلى الفصل الثامن، بتوفيق الله الوهاب سُبحانه وتعالى.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

ameer.maktab@yahoo.com







www.alibapir.net



الفصل الثامن

وظيفة الرُّسُلِ والأنبياءِ عليهم الصلاة والسَّلام

ameer.maktab@yahoo.com







ولمعرفة وظيفة الرسل والأنبياء عليهم السلام، ليس علينا إلّا تدبُّر هذه الآيات المباركات، الّتي بيَّن الله تعالى فيها وظيفة أولئك المصطفين الأخيار والمُهِمَّة الموكولة إليهم، وليست هذه الآيات إلّا أمثلة لما جاء في كتاب الله الحكيم من الآيات البيِّنات بهذا الصّدد:

قال الله تبارك وتعالى:

١) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

٢) ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل].

٣) ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ...﴾ [إبراهيم: ١٠].

٤) ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ...﴾ [الأعراف: ٥٩].

٥) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ...﴾ [الأعراف: ٦٥].

٦) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ. . .﴾ [الأعراف: ٧٣].

٧) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ. . .﴾ [الأعراف: ٨٥].

٨) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء].

٩) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ إلى ١٢٧ [الشعراء].

١٠) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ إلى ١٤٥ [الشعراء].

١١) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ إلى ١٦٤ [الشعراء].

١٢) ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ إلى ١٨٠ [الشعراء].

١٣) ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل].

١٤) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد].

١٥) ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء].

وبعد التأمّل في هذه الآيات وإمعان النظر فيها، يتبيَّن لنا بوضوح دونه النهار، أن الوظيفة الكبرى والمُهمَّةَ الجسيمَةَ التي أرسلت بها الرسل والأنبياء كافة عليهم السلام، تتلخَّصُ في هداية الناس ـ وكذلك الجنّ ـ وإرشادهم إلى طريق العبادة لله تبارك وتعالى، بالمعنى القرآني الواسع

لكلمة العبادة، والذي بينّاه في الكتاب الثالث من هذه الموسوعة، وخلاصتُهُ هي:

(عبادة الناس لله تعالى: خالقهم وربهم ومالكهم وإلٰههم الوحيد الحق، وهي أن يخضعوا له خُضوعاً مُطْلقاً، ويُطيعوه طاعة مطلقة، مع أقصى التعظيم والحبّ والخشية، وهذا لا يتم إلّا إذا أفردوه سبحانه وحده بالإيمان به، وبما أَمَر أن يُؤْمَنَ به، وأن يستقوا تصوراتهم وقيمهم وموازينهم كلَّها من مَعين دين الله الحق وحده، وأن يقدِّموا له وحده شعائر التعبّد، وعلى الوجه الذي أمر به وبيَّنه لنا رسولُ الله ﷺ، وأن يأخذوا شرائع حياتهم من شريعته وحدَها، ويُنَظِّموا ويُدبِّروا بها حياتَهم الشخصية والأُسَريَّة والجماعية، بجميع جوانبها السياسية والإِقتصادية والإِجتماعية وغيرها).

والآن لنُلْقي نظرة سريعة على الآيات التي استشهدنا بها، لأننا تكلّمنا عليها أيضاً في مناسبات أخرى سابقة:

١) أما الآية (٢٥) من (الأنبياء):

فيؤكِّد فيها ربُّنا العظيم جلَّ وعلا لِنَبيِّهِ الخاتم، أنه لم يبعث قبله رسولاً إلّا أوحى إليه أن يبلِّغ أنه لا يوجد إلٰه حق سواه سبحانه، لِذا فليعبدوه هو وحده.

٢) وأما الآية (٣٦) من (النَّحل):

فيبيِّن فيها سبحانه أنه قد بعث في كل أمةٍ رسولاً، أنْ يُبلِّغ الناس بأنْ يعبدوا الله، ويَبْتَعِدوا عن عبادة الطاغوت، والطاغوت هو كلّ من يَطْغى ويستعبد الناس ويتألَّه عليهم ويفرض عليهم طاعته التي لا تَسْتَنِدُ إلى شريعة الله، بل تنبثق من هواه أو هوى غَيْرِهِ، من شياطين الجنّ والإنس.

٣) وأما الآية (١٠) من (إبراهيم):

فيقول فيها سبحانه على لسان رسله الكرام كلِّهم عليهم السلام، أنه لا شكَّ

في الله الذي فطر السموات والأرض، لا في خالقيته ولا في ربوبيَّته ولا في ألوهيته، وأنه يدعو سبحانه عبيدَهُ إلى طريق عبوديَّته وطاعته، كي يَسْتحقوا رحمته ومغفرته، ومن ثَمَّ يستأهلوا أن يمتّعهم الله بحياتهم الدنيوية، ولا يُهلكهم بعذابٍ عام، ومن الواضح أنه ليس جَزاء المغفور له في الآخرة، سوى رضوان الله وجنّته.

٤) وأما الآيات: (٥٩ و٦٥ و٧٣ و٨٥) من (الأعراف):

فيقول فيها كل من رسل الله (نوح وهود وصالح وشعيب) عليهم السلام في أوّل ما يخاطبون به أقوامهم كلاماً واحداً: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ وهذا يعني أنّ تَعْبيدَ الناس لربِّهم تبارك وتعالى، هو الوظيفة الكبرى والأساسية التي بعث الله بها رسله كافة.

٥) وكذلك الآيات (١٠٥ إلى ١٠٩ و١٢٣ إلى ١٢٧ و١٤١ إلى ١٤٥ و١٦٠ إلى ١٦٤ و١٧٦ إلى ١٨٠):

يقول كل من رسل الله الكرام: (نوح وهود وصالح ولوط وشعيب) عليهم السلام أيضاً كلاماً واحداً بعينه، وهو:

﴿... أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء].

إذاً: كلهم طالبوا أقوامهم بتقوى الله تعالى وطاعتهم لهم، ومن الجَلِيّ أن أساس التقوى هو التوحيد، وإنَّما ذكروا وجوب إطاعة أقوامهم لهم بعد أمرهم إياهم بالتقوى، لأنه لا يمكن بدون إطاعة رسل الله والإهتداء بهديهم، سلوكُ طريق التوحيد والعبادة لله ونيل التقوى.

٦) وفي الآية (٢) من (النَّحل):

يبيِّن سبحانه وتعالى أنه ينزِّلُ الملائكة بالوحي ـ وسمّاه الله روحاً لأنّه قِوامُ حياة الناس، وأنه لهم بمثابة الروح للجسد ـ على مَنْ يشاؤهُ من عباده،

وهم الأنبياء والرسل عليهم السلام، لكي يُنْذِروا الناس أنه لا إله سوى الله تعالى، لِذا فَليتَّقوُهُ بتوحيده، واجتناب عبادة غيره، وخلاصة مفهوم التقوى هي: جَعْلُ الإنسان نَفْسَه في وقاية من عذاب الله وعقابِهِ الناشِئ من غضبه وعَدْله وحكمته.

٧) وأما الآية (٢٥) من (الحديد):

فيبيِّن الله فيها أنه أرسل كل رسله عليهم السلام بالبيِّنات ـ أي المعجزات الدالّة على صدقهم والمُثَبِّتَةِ لدعواهم ـ وأنزل معهم الكتاب والميزان من أجل قيام الناس بالقسط، ومن الجلي أن قيام الناس فيما بينهم بالقسط يتطلَّب منهم إقامة حياتهم في كلّ نواحيها، على أساس العبادة لله تعالى والإلتزام بشريعته.

وبما أن هذا ـ أي تطبيق الشريعة وبالنَّتيجة تحقيقُ العدل والقسط في كل جوانب الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية ـ لا يمكن بدون امتلاك القوّة، لِذا ذكر سبحانه بعد ذلك مباشرة إنزالَهُ الحديدَ: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾، الذي يُسْتَخْدَمُ لكل من الأغراض العسكرية ﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ والصناعات المدنية ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ ثم يبيِّن الله تعالى أن الحكمة من هذا كله، إنما هو ابتلاؤه للناس، كي يظهر له في ميدان العمل والواقع، مَنْ هو الذي ينصر دينَ الله الحق، ويتَّبعُ رُسُلَه ويُؤَيِّدهم، من دون أن يرى الله تعالى ويُعاينه بعيني رأسه؟: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾، وإلّا فإنَّ الله تعالى عزيز حكيم بنفسه، عزيزٌ في مُلكِه، وحكيمٌ في صُنْعِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾.

وهذه الآية الكريمة تدلّ بوضوح أن كلَّ شرائع الله التي أنزلها على أنبيائه المرسلين عليهم السلام ـ لأنَّها تتحدَّث عنهم جميعاً ـ، إنّما أنزلها لتكون مناهج حياة ربّانية فاضلة، يتحقَّقُ فيها العدل بمعناه الواسع الشامل، لأن الله تعالى ذكر كلمة القسط بإطلاق، ولم يقيِّدْها بمفهوم خاصّ أو بجانبٍ مُعَيَّن.

وقد يتصوّر البعضُ أنَّ بين هذه الآية التي يحصر الله تعالى فيها مُهِمَّة الرسل عليهم السلام، في جعل الناس قائمين بالقسط، وبين الآيات الأخرى التي حُصِرَتْ فيها مُهِمَّتهم بتعبيد الناس لربهم، شيئاً من التصادم! ولكن الأمر ليس كذلك، وذلك لأنه:

أولاً: الآيات السابقة تتحدَّث عن وظيفة الأنبياء والرسل ومُهِمَّتهم في مجال علاقة الناس بربّهم، وكيفية تعاملهم معه، ولكن هذه الآية ـ (٢٥) من (الحديد) ـ تتحدَّث عن وظيفة أولئك المُصْطفين الأخيار في مجال علاقة الناس بعضهم مع بعض، وكيفية تعاملهم فيما بينهم.

ثانياً: إنَّ قيام الناس بالقسط، إنما هو ثمرة عبادتهم لله تعالى والتزامهم بدينه ومنهاجه، أي الثمرة الدنيوية، إذْ لا يحقّقُ الناس في مجتمع ما العبوديةَ لله تعالى في أنفسهم بمعناها الحقيقي الشامل، إلّا ويتحققَ العَدْلُ والقِسْطُ فيما بينهم، إذ الإرتباطُ الصحيح بالله تعالى المتمثّل في العبادة والتوحيد، هو أساس الأُخوَّة وصلاح ذات البين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ [الأنفال].

٨) وأما الآية (١٦٥) من (النّساء):

فيعلن فيها رب العالمين جلّ وعلا، أنه أرسل رسله المبشِّرين والمنذرين كي يقيموا الحجة على الناس، بإبلاغهم دينَ الله الحق وطريقَهُ المستقيم، لكي لا يكون لهم عُذْرٌ وحجة أمام الله تبارك وتعالى.

أجل، إنّ الرسل والأنبياء عليهم السلام أرسلهم الله العليم الحكيم لتعليم النّاس العبادة لله، أي أن يُعَلِّموهم كيف يَقْضُون حياتهم الأرضية هذه بكل جوانبها، وفق دين الله الحق ومنهاجه القويم، كي يحقِّقوا في أنفسهم عبادة الله: الحكمة التي لم يخلقهم مع الجنِّ إلّا من أجلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

ومعنى هذا: أنَّ مَنْ اتَّبع الأنبياء عليهم السلام، فَعَبَد الله تعالى وبنى حياته الخاصة والعامة على العبادة لله واتِّباع شريعته، فهو قد حَقَّق في نفسه حِكْمَة وجوده وحياته الأرضية الإبتلائية هذه، وإلّا فهو جعل وجوده عبثاً، وحوَّل حياته إلى لَعِب ولَهْو في ظَنّه وواقع أمره، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

ولكن نذكِّر ونؤكِّدُ مرة أخرى، أنَّ العبادة في اصطلاح كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، ليست منحصرة في الشعائر من صَلاةٍ وصوم وذكرٍ وحج ودعاءٍ... إلخ، بل هي الطاعة المطلقة الشامِلة لله تعالى، والتي تشملُ باطِنَ الإنسان وظاهِرَه، وجميعَ شؤون الفرد والأسرة والمجتمع والدولة.

ولهذا نرى الأنبياء عليهم السلام، بعد أَن يركِّزَ كلٌّ منهم في دعوته الربّانية على توحيد الله وإفراده بالعبادة والتقوى، نراهم بعد ذلك يَتطرَّقُ كلٌّ منهم في خطابه مع قومه ومجتمعه، إلى الإصلاح والتغيير في الجوانب الحياتية التي يكون قومه ومجتمعه بحاجةٍ لِتقويمها وتصحيحها، أي إن الأنبياء عليهم السلام بعد اتِّفاقهم على أصل لزوم العبادة لله تعالى وحده، تختلف وتتنوَّعُ طروحاتُهم ومشاريعُهم التي يريدون إصلاحَ حياة مجتمعاتهم على أساسها.

وهذا هو معنى القول: (إنَّ دين الأنبياء واحدٌ، ولكن شرائعهم مختلفة) كما قال تعالى عن وحدة الدين الحق الذي بعث به كل رسله وأنبيائه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ...﴾ [الشورى: ١٣]، وكذلك قال جلَّ شأنه عن اختلاف وتعدّد شرائعهم ومناهجهم: ﴿...لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾ [المائدة: ٤٨].

ونستطيع أنْ نُعبِّر عن هذه الحقيقة ـ أي وحدة الدين وتعدّد الشرائع ـ بالقول: إنَّ أصول الدِّين وكلياته واحدة، ولكن فروعه وجزئياته وتفصيلاته مُختلفة ومتنوِّعة، أو نقول:

إن الدين الذي أنزله الله تعالى على جميع أنبيائه ورسله، واحِدٌ في أساسه وَجَوْهِرَه وخطوطه العريضة، ولكن في تفصيلاته المتأثرة بتطور الحياة وكيفية تنزيله على الواقع المتغيِّر دَوْماً، متعدِّدٌ ومتنوِّعٌ.

التأمل في مناهج خمسة من الرسل الكرام:

والآن لنتأمَّل مناهج وشرائع خَمْسَةٍ من الرسل الكرام عليهم السلام، التي واجهوا بها واقِعَ مجتمعاتهم، وأحوالَهم المتباينة وأوضاعَهم المختلفة، وهم:

نوح، هود، صالح، لوط، شعيب عليهم الصلاة والسَّلام، الذين قَصَّ الله تعالى عَلينا قِصَصَهُم مع أقوامهم: قوم نوحٍ، وعادٍ، وثمود، وقوم لوط، وأهل مدين و(أصحاب الأيكة) في سورة (الشُّعراء) من الآية (١٠٥) إلى الآية (١٩١).

حيث نراهم عليهم السلام أنَّهم بعد اتِّفاقهم على أصل الدين الحق، وشريعة الله الحكيمة الآمرة بعبادة الله وحده، والتقوى منه وطاعة رسله الكرام، كما تتجلَّى هذه الحقيقة في هذا الكلام الذي ردَّده خمستهم: ﴿... أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء]، نعم، نراهم عليهم السلام بعد اتِّفاقهم على هذا الكلام الذي يُمَثِّل أساسَ دينِ الله الحق، وجوهَره، تتنوَّع مناهجهم وشرائعهم الإصلاحية والتغييرية، كلٌّ حَسْبَما تَتَطَلَّبُه وتقتضيه طبيعة مجتمعه وظروفه الخاصة به:

١) فـ(نوح) عليه السلام:

يُبْرِزُ الجانِبَ السياسي والإجتماعي في مِنْهاجِهِ وشِرْعته، أكثر من الجوانب الأخرى، كما هو واضحٌ في هذه الآيات:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء].

أجلْ فالمجتمع الذي واجهه (نوح) عليه السلام، كان مجتمعاً يَرْزَحُ تحت نير فئةٍ من الملأ المستكبرين، وبما أن المستضعفين ـ أي مجموع منهم ـ التفُّوا حول نوحٍ ودعوته، فقد طلب منه الملأ المستكبرون أن يطردهم

ويُبْعِدَهُمْ عنه، لأنهم (أراذل)[1] ولا يليق بهم الجلوس معهم! ولكن نبي الله الكريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، رَدَّ عليهم ذلك الطلب الظالم وَوَقَفَ ـ ككل أنبياء الله ـ بجانب أولئك البسطاء المؤمنين، إلى نهاية المطاف!

٢) وأما (هود) عَلَيْهِ السَّلَامُ:

فالذي يَظْهَرُ أكثر من غيره في منهاجه الربّاني التغييري هو: جانبا الإقتصادي والأَمْني، كما يتبيَّنُ لنا في هذه الآيات:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء].

أي: كان مجتمع (عاد) يُعاني ـ منْ جرّاء عدم العبادة لله والإلتزام بدينه الحق ـ من فئةٍ مُتَسَلِّطةٍ على خيراته، ويَصْرِفون أمواله في العَبَثِ والفساد، ويَبْنون على حساب قوت الناس، قصوراً وبناياتٍ فَخْمةً لإبراز مجدهم الشخصيِّ، كي تُخلَّدَ أسماؤهم من خلال تلك الآثار، كعادة الطواغيت في كل عصر ومصر، وكانوا بالإضافة إلى الإسراف والإتراف، ظَلَمةً جبّارين، يبطشون بالناس ويُرْعِبونهم من غير جريرة ارتكبوها، والمُلَخَّص: كان مجتمع نبي الله (هود) عَلَيْهِ السَّلَامُ، مُبْتَزَّةَ الأموال فاقِدَ الأمن، بيد فئة من المُتَسلِّطين المسرفين.

٣) وأما (صالح) عَلَيْهِ السَّلَامُ:

فقد ركَّز في منهاجه النَّبويّ الإصلاحي، على كلّ من الجانب: الإقتصادي والسياسي والإجتماعي، وذلك لأنَّ مجتمع (ثمود) كانوا منحرفين في هذه الجوانب كلّها، بعد ابتعادهم عن عبادة الله واتِّباع شريعته، كما يبدو بِجلاءٍ في هذه الآيات:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ

(١) أراذل جمع أرذل، وهو الدُّون الخَسيس أو الرديء من كل شيء. المعجم الوسيط، ص٣٤٠.

﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝١٤٨ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ۝١٤٩ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢﴾ [الشعراء].

ومعنى هذا: أن مُجتمع نبيِّ الله (صالح) عليه السلام، كان مجتمعاً هَيْمَنَتْ عليه طبقة مُتَنَفِّذَةٌ بِسَبَب استحواذهم على خيرات البلد وثرواته، وكان دَيْدَنُهم الإسرافَ والتبذيرَ على حساب أكثرية المجتمع الجائعةِ المغلوبة على أمرها، ثم إن تلك الطبقة الحاكمة المُتَنعِّمة لم يكتفوا بما هم فيه من الإسرافِ والتبذير، حتى أضافوا إليه الإفساد في الأرض، إفساد العقول والقلوب، وإفساد الأخلاق، بل إفساد الحياة بِرُمَّتها، والإفساد في الأرض هو الثمرة الطبيعية الخبيثة لكل حكم جاهلي طاغوتيّ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢﴾ [الفجر].

٤) وأما (لوط) عليه السلام:

فهو بما أنه واجَهَ مجتمعاً فاسداً ومُنْحطاً خُلُقياً، وخصوصاً من الناحية الجنسيَّة، إذ انتشر فيهم الشذوذُ الجنسيُّ، لِذا ركّز في منهاجه الإصلاحي على الجانب الأخلاقي، وتطهير مجتمعهِ من ذلك الدّاءِ الوبيل والخِزْي الذي حتى الحيوانات تتعافاه، فَخاطب (لوط) قومه:

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ۝١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ۝١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٦٩﴾ [الشعراء].

٥) وأما مجتمعُ (شعيب) عليه السلام:

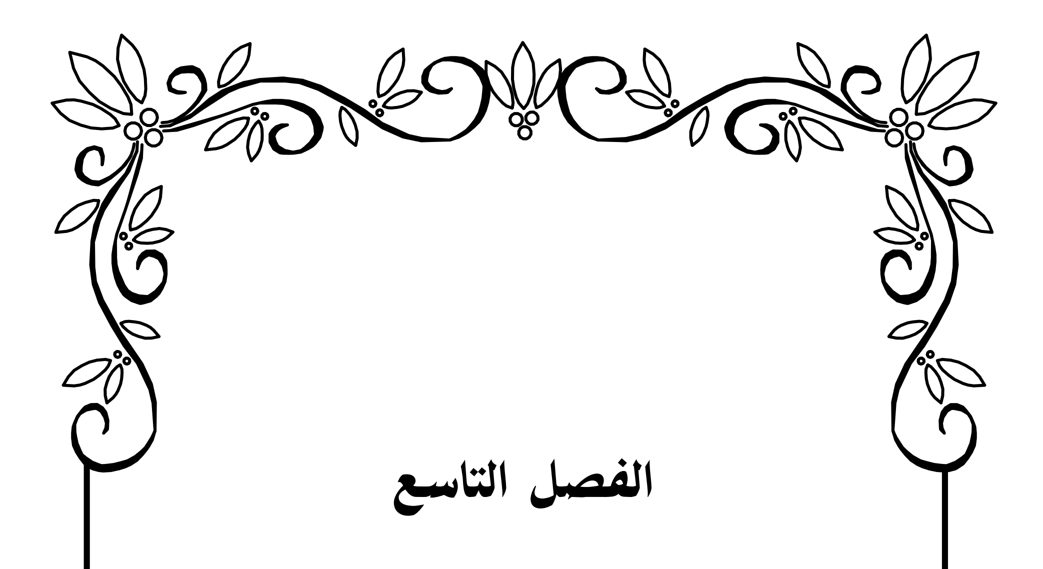
وهم (أهل مدين) و(أصحاب الأيكة)، فكانوا منحرفين في نواحٍ كثيرة ككلّ المجتمعات الضالة، ولكن الظلم الإقتصادي والإجتماعي هو السِّمة البارزة في انحرافهم، ولهذا نجده ﷺ يَرَكِّزُ في منهاجه التغييري على إصلاح

هذين الجانبين ـ طبعاً بعد الإيمان والتوحيد ـ وهذا واضحٌ في قوله لقومه: ﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ [الشعراء].

وهكذا كما رأينا، تتعدَّدُ وتَتَنَوَّعُ مناهجُ الأنبياء وشرائعهم للتغيير والإصلاح، حسب ظروف وأحوال مجتمعاتهم، والإنحرافات التي ابتُليتْ بِها، وذلك لأنه (لكلّ داءٍ دواء) و(لكلِّ مقامٍ مقالٌ).

وأردنا بهذا التوضيح أن يعلم الجميعُ أنَّ الدعوة التوحيدية التي أطلقها الأنبياء كلُّهم بأمر الله ووحيه، لم تكن مجرَّد مَوْعظةٍ تُلْقى أو رسالةٍ تُتْلى، بل كانت انقلاباً جذرياً على كافة المستويات، وفي كل نواحي الحياة، وهذا هو معنى العبادة لله تعالى وتأليهه من غير إشراك: أنْ يخضع الناس فَرْداً ومجتمعاً بِباطنهم وظاهرهم لله تعالى، حُباً وتعظيماً وإجلالاً وخشية، ويُطيعوا رسوله ويَتَّبعوا دينه ومنهاجه ويَلْتزموه، في تسيير دفة أمورهم الفردية والأسرية والجماعية كلِّها.





الفصل التاسع

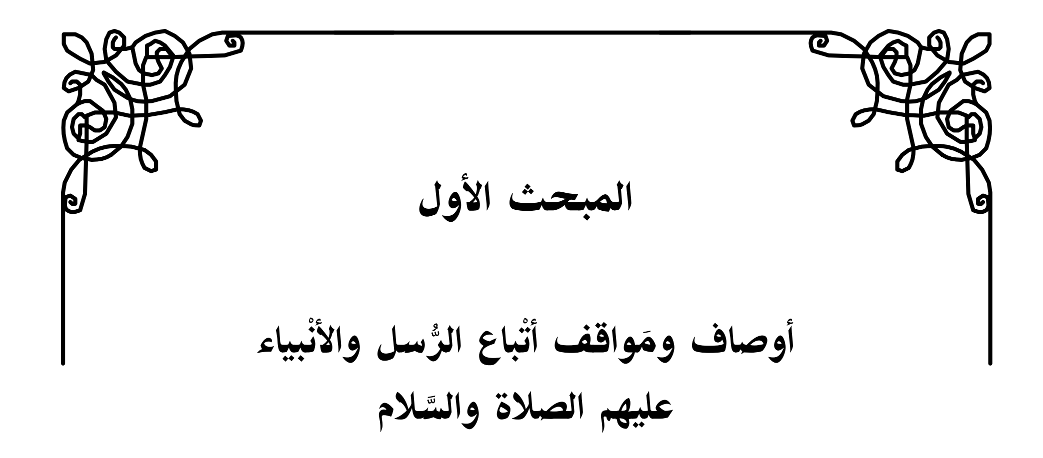
أوصاف ومَواقف أتباع الرُّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام، وأعدائهم

يتكوَّن هذا الفصل من مبحثين:

١) أوصاف ومواقف أَتباع الرُّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام.

٢) أوصاف ومَواقف أعداء الرُّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام.

❊ ❊ ❊



المبحث الأول

أوصاف ومَواقف أتْباع الرُّسل والأنْبياء عليهم الصلاة والسَّلام

لا شك أن أَتْباع الرسل والأنبياء عليهم السلام، لهم في كتاب الله المبين أوصاف وميزاتٌ ومواقف كثيرة، نتعرَّف عليهم من خلالها، ومن الصَّعب استقصاء تلك الأوصاف والمواقف، إنْ لم يكن مستحيلاً، لِذا نكتفي هنا بذكر أبرزها وأهمِّها في الفقرات الثلاث والأربعين الآتية:

الأولى: إِنَّهم أقلية عددية من القاعدة العريضة للمجتمع:

هذه هي الميزة الأولى التي تميِّزُ أَتباع الرسل والأنبياء، إذْ هم دَوْماً أقلية عددية من الجماهير المُضْطَهَدة التي تُشَكِّلُ القاعدة العريضة في المجتمع، وقد يشاركهم نادراً بعض الأفراد من طبقة ذوي الجاه والسلطة السياسية والغِنى[1]، وتدلّ على هذه الحقيقة بالإضافة إلى الواقع التاريخي والحاضر، آيات كثيرة منها:

١ ـ الآية (٧٥) من (الأعراف):

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ

(١) وذلك مثل (الرجل المؤمن) من آل فرعون، و(امرأة فرعون)، اللَّذَيْن أثنى عليهما تعالى في كتابه.

مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

٢ ـ الآية (٥٤) من (الشعراء):

حيث يقول فرعون واصفاً موسى وهارون عليهما السلام وأَتباعهما المؤمنين: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

٣ ـ الآية (١١١) من (الشعراء):

حيث يقول الملأ المستكبرون من قوم نوح عليه السلام له متذرِّعين لعدم إيمانهم به وعدم اتِّباعهم له: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

٤ ـ الآية (٤٠) من (هود):

حيث يبيّن فيها تعالى أنه لم يؤمن بنوحٍ عليه السلام سوى عددٍ قليلٍ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

الثانية: الشباب يشكِّلون الأغلبية منهم دوْماً:

وهذه ميزة أخرى لأَتباع الأنبياء عليهم السلام، إذْ قلّما يكونون من المُسِنِّين والشيوخ، بَلْ يكونون غالباً من الأحداث والشباب، كما تدلّ عليه هذه الآيات:

١ ـ ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس].

٢ ـ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ . . . نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف].

والسِّرُّ في ذلك هو أن الشباب أكثر نشاطاً، وأوفر جرأة وحماسة، وأنْقى قَلْباً، وأطهر فطرةً، ولم تكبِّلْهم الموروثاتُ الفكرية، والعادات والأعراف الجاهلية، والإرتباطات الإجتماعية بعدُ، وهم عموماً أقلّ تعلّقاً بالحياة، وأكثر تطلّعاً للتغيير، وتقبّلاً للجديد.

الثالثة: الحرِّية في التفكير وفي السلوك:

وهذه مِيزةٌ أخرى لأَتْباع الرسل والأنبياء عليهم السلام، أو وصف آخر من أوصافهم، إذْ هم يتمتَّعون بالحرية الفكرية، ولا تقيِّدهم الأفكار والمعتقدات الموروثة، ولا العادات والأعراف المقدَّسة، من قبل الطبقة المتحكِّمة الظالمة والجماهير المخدوعة المُسْتَخَفَّة، بل يحكِّمون عقولَهم وفِطَرَهم في اختيار الطريق الذي يريدون سلوكه.

ثم بما أن الفكر الحرّ والعقل السَّليم، يَسْتَتْبعُ دَوْماً: السَّماحة وسَعَة الصَّدر، فهم مُتَسامحون وواسعوا الصُّدور، وليسوا مُتزمِّتين ولا مُنْغَلقين على أنفسهم كأعداء الأنبياء، ولا يَضِيقون ذرْعاً بالحوار ومُقارعة الحجة بالحجَّة، إذْ الباحث الجادُّ عن الحق، لا يخاف من الحوار المؤدِّي إلى ظهور الحق، بل هم مستعدّون دَوْماً لِسَماع ما عند الآخرين، كما قال تعالى في وصف عبادِهِ المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر].

وهذا بخلاف أعداء الأنبياء الذين لا يتحمَّلون وجود غيرهم، ولا يفكِّرون في محاورتهم، بَلْ هَمُّهم الوحيد وشُغْلهم الشاغِلُ، هو كيفية مطاردتهم وإبعادهم، وهذا إذا لم يروا المصلحة في سحقهم وإبادتهم، أو إنْ لم يجرؤوا عليها في بعض الأحيان!

وهذه بعضُ الآيات الدالّة على كون أتباع الأنبياء أحراراً في الفكر وفي السُّلوك:

١) يقول (شعيب) عليه السلام مخاطباً جبابرة قومه المستكبرين، وناطقاً باسم الفئة المؤمنة التي معه:

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف].

كما نرى يطالبُ مُمثّل الجماعة المؤمنة (شعيب عليه السلام) مُمثِّلي قومه غَيْر الشرعيين، وهم الملأ المستكبرون، أن يتسامح بعضهم مع بعض ـ أي

أهل الكفر وأهل الإيمان ـ وأن يتحمَّل بعضهم بعضاً، في جوّ من التعايش السِّلْمي، إلى أن يحكم الله بينهم من خلال سننه الحكيمة التي تتحكّم في حياة البشر.

ولكن ما هو يا تُرى جواب الملأ المستكبرين، لهذا الطَّلب العادل المنصف؟ فَلْنستمع إلى الآية التالية للآية السابقة مباشرة:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ...﴾ [الأعراف: ٨٨]، فهذا هو منطق أهل الكفر: إمّا الكفر بالرحمٰن، أو الخروج من الأوطان! ويقول ممثِّل المؤمنين في جواب هذا التهديد الظالم: ﴿...أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف]، أي هَلْ تجبِروننا على اعتقاد ما نرفضه ونُبْغِضُهُ؟!

٢) وكذلك تدل عليه الآية (٢٨) من (غافر) حيث يقول الرجل المؤمن من آل فرعون، في بداية مرافعته ودِفاعه المجيد عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ودعوته التوحيدية:

﴿...أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ﴾.

أي: كيف وبأيِّ منطق تقتلون رجلاً، على مجرَّد اعتقاده وإيمانه بربوبية الله تعالى، وهو في اعتقاده هذا مُستندٌ إلى بيِّنات (أي براهين) من ربّه؟!

ثم يقول الرجل المؤمن مُطالباً بحرية الفكر والإعتقاد، حتى وإن كان الطرف المُقابل ـ على سبيل الفرض بالنسبة لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ كاذِباً:

﴿...وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر].

وهذا يعني: خَلُّوا موسى يُعبِّر عَنْ اعتقاده، فإن كان كاذباً، كما

تَدَّعون أنتم، فلا يعود وبالُ كَذِبِه إلّا عليه، ولكن إنْ كان صادقاً، كما يقول هو، فقد يُصيبكم بعضُ ما يُوعِدكُمْ به من عقوبات الله، لِذا فمن المصلحة تركه وشأنه في كلا الحالين، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ وإن كان هو يقصد به فرعون، ولكن يُوهِمُهُم أيضاً خلافَهُ، على أساس زعمهم وظنهم.

٣) وتَدلُّ عليه الآية (٧٢) من (طه) التي يُجيبُ فيها السَحرة الذين انقلبوا على فرعون وآمنوا بموسى ودعوته الربانية، لما شاهدوا معجزتيه الباهرتين، على تهديد فرعون ووعيده لهم، بِأنه سَيَصْلِبُهم وسيقطع يدهم اليمنى ورجلهم اليسرى:

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾﴾.

وجديرٌ بالذكر أن سُرْعة إيمان سحرة فرعون بِموسى وانقلابهم على فرعون، سَبَبُهُ ـ على ما يبدو ـ هو: معرفتهم الدقيقة بالفاصل الهائل والبون الشاسع، بين سحرهم وبين معجزة موسى عليه السلام، ولا شك أنَّ أهل كلِّ صناعة، هم أعرف وأخبر بصناعتهم من غيرهم، وقلّما يقف العلماء الأذكياء في الوسط، بل يتطلّعون أن يكونوا في المقدِّمة، سواء في الحق، أو في الباطل.

الرابعة: المبدئية والثبات على الموقف:

وهذه ميزة أخرى لأَتْباع الأنبياء عليهم السلام، فهُم مَبْدئيّون وثابتون على المبدأ، وراسخون لا يُزَعْزِعُهم شيءٌ، عن طريق الحق الذي عرفوه فالتزموه، لا ترغيبٌ ولا ترهيبٌ، بل لا طَرْدٌ ولا قتل ولا سجنٌ ولا صَلْبٌ ولا تحريق، وهل يتنازل عن الله تعالى ودينه الحق، ثم ثوابه ورضوانه، مَن آمن بِالله حقاً؟ كلاّ والله الذي لا ربّ سواه.

وهذه بعض الآيات التي تُجَلِّي لنا هذه الصِّفة الجليلة لأَتْباع الأنبياء عليهم السلام:

١ ـ الآية (٨٩) من (الأعراف):

حيث يجيب (شعيب) عليه السلام باسم جماعته المؤمنة على تهديد الملأ المستكبرين، وتخييرهم إياهم بين العودة إلى الكفر والطرد من البلد، بقوله:

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾.

ومعلوم أن تعليق العودة إلى الكفر بمشيئة الله، ليسَ بسبب الشك أو التردّد، بل هو مجرّد تأدّبٍ مع مشيئة الله المطلقة، كما هو دَيْدَنُ أهل الإيمان دَوْماً.

٢ ـ الآيتان (١٢٥، ١٢٦) من (الأعراف):

إذ يُجيبُ السحرة المؤمنون توّاً، على وعيد فرعون الشديد إيّاهم بقتلهم وصلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، بقولهم:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

٣ ـ الآية (١٢) من (إبراهيم):

إذْ يقول فيها الأنبياءُ باسم أَتباعهم المؤمنين، في جواب أهل الكفر بقيادة الطواغيت:

﴿...وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ...﴾، أي: ومَهْما تَفَنَّنْتُمْ في إيذائنا، فلا تجدون فينا غَير الصَّبر والثبات.

الخامسة: التوكّل والإعتماد على الله تعالى:

والتوكل على الله الوكيل جلّ شأنه، وتَفْويض الأمر إليه، والإستناد إلى ولايته وتدبيره ولُطْفِهِ، في مواجهة الشدائد، أيضاً من صفات أَتباع الأنبياء، وهذه بعضُ الآيات بهذا الصّدد:

١ ـ الآيتان (١١، ١٢) من (إبراهيم):

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

حيث يقول تعالى على لسان رسله الكرام كلِّهم قاطبة عليهم الصلاة والسَّلام: نحن متوكِّلون تمام التوكُّل على الله تعالى، ولا نُبالي بتهديدكم ولا أذاكم أياً كان!

٢ ـ الآيتان (٨٤، ٨٥) من (يونس):

إذ ينصح موسى أتباعه الشباب من بني إسرائيل، الذين آمنوا به على الرَّغم من تهديد فرعون ووعيده، بقوله:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا...﴾.

٣ ـ الآية (٨٩) من (الأعراف):

حيث يقول (شعيب) عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، باسم أَتْباعِهِ المؤمنين، في جواب وعيد الملأ المستكبرين من قومه:

﴿...قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

٤ ـ الآية (٤٤) من (غافر):

إذ يقول فيها الرجل المؤمن الكاتم لإيمانه ـ قبل قيامِهِ بالمرافعة عن قضيَّةِ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ لِفرعون وَمَلَئِهِ الذي يبدو أنهم هَدَّدوه وأوعدوه:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

ومن البيِّن أن بين هذه الصفة الخامسة والصفة الرابعة التي قبلها، ارتباطاً وثيقاً، لأن مَن كان شديد التمسّك بدين الله وراسخاً في الإيمان، فسيكون متوكِّلاً على الله تعالى ومَسْتَسْلِماً له، ومُفوِّضاً إليه أموره، وكذلك من كان متوكلاً على الله ومعتمداً عليه، فسيكون ثابتاً وراسخاً لا يتزعزع لشيء.

السادسة: الفَرَح بلقاءِ الله وإيثار الآخرة على الفانية:

وهناك آيات كثيرة على أن هذه الصفة، هي من الصفات البارزة والأساسية التي يَتَحَلَّى بها أتباع الرسل والأنبياء عليهم السلام في كل العصور، منها:

١) الآية (١١) من (التحريم):

والتي يضرب الله تعالى فيها بذكر موقف (امرأة فرعون) رضي الله عنها مثلاً، لأهل الإيمان، لكي يقتدوا بها، ويتخذوها أسوة في اختيار الحياة الخالدة الطيِّبة في جوار الله، على الحياة الدنيا الفانية عندما يجِدّ الجِدّ، ولا يكون للإنسان المؤمن من ذلك بُدٌّ، إن أراد نيلَ رضوان الله واتقاءَ غضبه، حيث يقول تعالى مُبيِّناً الموقف الإيمان البطولي لِتِلْك المؤمنة الكريمة، التي لم يُثنها وعيد فرعون وبطشه وجبروته عن الإيمان بالله وبرسوله موسى عليه السلام:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم].

٢) الآية (٧٢ إلى ٧٦) من (طه):

إذْ يقول سبحانه على لسان السحرة المؤمنين المنقلبين على فرعون وحاشيته، في جواب إرعادِ فرعون وإبراقه:

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا

وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنًا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه].

٣) الآية (٣٩، ٤٠) من (غافر):

إذ يقول فيها سبحانه وتعالى على لسان الرجل المؤمن الكاتم إيمانَهُ من آل فرعون، في أواخر دفاعه المجيد عن موسى عليه السلام، وتَزييفه لأفكار فرعون وادّعاءاته:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾﴾.

٤) الآيتان (٣٩، ٤٠) من (الكهف):

إذ يقول تعالى على لسان الرجل المؤمن الفقير، الذي تبَجَّح عليه صاحبه الكافر الغني ذو الجنَّتين:

﴿...وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾...﴾ [الكهف].

السابعة: العمل بحكمةٍ وتبصّر في كلّ الأحوال:

وأتباع الأنبياء عليهم السلام، مثل متبوعيهم المباركين الحكماء، يتصرَّفون في كل الأحوال في حدود دين الله وشرعه الحكيم، بِما تَقْتَضيْهِ الحكمة وتُمْليه المصلَحَةُ الشرعية، ونكتفي لإيضاح هذه الصفة المهمة التي يتميّز بها أتباع الرسل والأنبياء مِنْ غيرهم، بمثالين في جملتين من كتاب الله المبين:

١) قال سبحانه وتعالى عند التعريف بذلك الرجل المؤمن الشجاع الشهم الذي انبرى في أحلك الظروف للدفاع عن موسى عليه السلام، في الآية (٢٨) من (غافر):

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ. . .﴾.

والشّاهِد هنا هو قوله تعالى: ﴿. . .يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ وذلك في سياق كله إشادةٌ بموقفه، وهذا يعني أن أهل الإيمان وأتباع المرسلين، قد تفرض عليهم مصلحة العمل الإسلامي أن يكتموا إيمانهم، أو بعض التزاماتهم التي يوجبها الإيمان في مرحلة معيَّنة، كما فعل ذلك الرجل الحكيم، إذْ لو أنه أظهر إيمانه منذ البداية، لما تسنَّى له ذلك الدفاعُ المجيدُ عن موسى عليه السلام، في تلك الساعة العصيبة!

٢) وقال العليم الحكيم جلَّ وعلا على لسان الفتية الفارِّين بدينهم واللّائذين بالكهف، بعد استيقاظهم من نومهم الطويل ـ ٣٠٩ سنة قمرية ـ وإحساسهم بالجوع في الآية (١٩) من (الكهف):

﴿. . .وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾.

وتبدو في هذه الآية المباركة الحاوية على حوار مختصر داخلي لأولئك الفتية المؤمنين، عدَّة مواقف إيمانية حكيمة وهي:

١) بعد أخذٍ وردّ مختصر بينهم، حول المدَّة التي استغرقها نومُهم الطويل، الذي يبدو أنه أوقعهم في شيء من الحيرة، يُنْهون نِقاشَهُمْ بقولهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ ولا شك أنَّ عدم إضاعة الوقت وإتعاب النفس في البحث عن الأمور التي لا نجِدُ لمعرفتها طريقاً، هو عين الحكمة والصّواب.

٢) ثم بعد إنهاءِ نقاشهم حول معرفة ما لا سبيل لإدراكه، قَرَّروا فوراً أنْ يَنْشَغِلوا بأمورهم الحياتية العملية التي لا بدَّ لهم منها، وخاصة الغذاء الذي لا يقوم البَدَنُ إلّا به: ﴿. . .فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ. . .﴾ والملاحظ أنهم وهم

في تلك الحالة العصيبة، لم ينسوا موضوع حِلِّيَّةَ الطّعام الذي يَسُدّون به رَمَقهم، لا بل قَرَّروا أن يسعى ذلك الأخ المُرْسَل إلى المدينة لشراءِ الطعام، إلى تحصيل أطيب نوع منه ـ أي أحلِّها ـ ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾.

وكذلك قولهم: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ فيه الإشارة إلى الإكتفاء بالقليل والقناعة.

٣) ويوصون مبعوثهم لِشراء الطعام، أن يكون كيِّساً فَطِناً، ويَتَصرَّف في مهمته تلك بحكمةٍ، بحيث لا يؤدّي ذَهابُه للسوق إلى إثارة شكوك الناس حوله، ومن ثم انكشافِهِ وانكشاف مَخْبَأِ أصحابه: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

٤) ثم يبيِّنون حكمة التلطُّف والتخفِّي الذي وصَّوْا به صاحِبَهُم، بقولهم: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف]، إذاً: الحكمة منه هي أن أصحاب السلطة الكافرة التي فرّوا منها، إذا ما انكشف أمرهم لهم، فسيُخيِّرونهم بين القتل رجماً بالحجارة، أو الرجوع إلى دينهم الكفري الجاهلي، وهذانِ خياران أحلاهما مُرٌّ.

والملاحظ أن أصحاب الكهف لم يُعلِّقوا على (قتلهم رجماً) بشيء، ولكن عَلَّقوا على إعادة الحكّام الطواغيت إياهم إلى الكفر، بقولهم: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾، أي الذي كان يُخيفهم هو إرجاع الكفار إياهم جَبْراً إلى مِلّتهم، وإلّا فالرجم بالحجارة في سبيل الله، وإن كان التوقِّي والحذر منه واجباً، لكنه ليس بالشيء الذي يُشْغِلُ بالَ أولئك الشباب المؤمنين كثيراً!

الثامنة إلى السابعة عشر: عشرة أوصاف ومواقف في دفاع الرجل المؤمن، عن الرسل الثلاثة الذين وردت قصتهم في سورة (يس):

قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ

﴿ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ
مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ
لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ
تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ
أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي
فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ
عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ
ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا
غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾ [يس].

وقبل أن نَسْرُدَ أوصاف ومواقف ذلك الرجل المؤمن، نُلَخِّصُ قصة الرسل الثلاثة عليهم السلام، مع أهل تلك المدينة، في الآيات: (١٣ إلى ١٩):

أرسل سبحانه وتعالى اثنين من أنبيائه إلى مدينة من المدن، لم يذكر اسمها، ليدْعوا أَهْلَها إلى الله تعالى واتِّباع دينه الحق، ولكن كذَّبهما أهلُ المدينة في بُدوِّ أمرهما، ولم يتمكَّنا من أداءِ مُهِمَّتهما كما ينبغي، فَقَوّاهما الله تعالى بِنبي مُرْسَلٍ آخر، وهناك بدأ المرسلون الثلاثة عليهم السلام، بتبليغ أهل المدينة بأنهم مُرْسلون من الله تعالى إليهم، ولكن أهل المدينة اتَّهموهم بِالكذب بذريعة أنهم بشرٌ مثلهم! وأنكروا أن يكون الله تعالى قد أنزل عليهم كتاباً ووحياً، ولكن الرسل الكرام عليهم السلام، أكّدوا لهم مرة أخرى، أنهم صادقون معهم، وأشهدوا الله تعالى على صِدْقهم في كونهم مرسلين إليهم، وأعلنوا لهم بأنّهم ليسوا مكلَّفين من ربهم تجاههم، بغير إبلاغهم بصورة واضحة.

وبعد ذلك انتقل معهم أهلُ المدينة إلى التهديد والوعيد بذريعة أنهم متشائمون منهم، وأبلغوهم بأنهم في حالة استمرارهم في الدعوة الربانية بينهم، سيرجمونهم ويُعذِّبونهم عذاباً مُؤْلِماً!

وأجابهم الرسل عليهم السلام، مُفَنِّدين اتِّهامهم الباطِل، وقالوا لهم: إنّ سبب شؤمكم هو أنتم أنفسكم، ثم تساءلوا مُسْتغربين من ذلك الإتِّهام الزائف: أو

أصابكم الشؤم والشرّ بسبب تذكيرنا إياكم، ـ حقائق الإيمان ـ ؟! ثم وصفوهم بكونهم: قوماً متجاوزين للحدود (مع الله تعالى ورسوله ودينه وعباده).

وهناك وفي تلك اللحظة الحسّاسة الحاسمة، جاء الرجل المؤمن مُسْرِعاً ورمى بنفسه في هذه القضيَّة، وقام بالمرافعة والدفاع عن الرسل الثلاثة، وقضيّتهم دفاعاً مجيداً جريئاً حتى النهاية.

ولكن قبل الشروع بالتعليق على دفاعه، واستِخراج ما فيه من حِكَم، نُنَبِّه على أن أكثر المفَسِّرين ذكروا أن اسم تلك المدينة ـ والقرية في إصطلاح القرآن هي المدينة العامرة ـ هو (أنطاكية) وأن الرُّسُل الثلاثة إنَّما أُرسِلوا من قبل (عيسى) عليه السلام، وأن ذلك الرجل المؤمن اسمه (حبيب النّجار).

وأنا أرى أن أولئك المرسلين الثلاثة، لم يكونوا من حواريِّي عيسى عليه السلام، بل كانوا ثلاثة من الأنبياء عليهم السلام، أرسلهم الله تعالى إلى تلك المدينة، وذلك لأن الله تعالى نَسَبَ إرسالهم إلى نفسه، وكذلك هم أضافوا إرسالَهم إلى الله تعالى مباشرة، ولو كانوا من مُرْسَلي عيسى عليه السلام لأشار إليه كلامُ الله المبين.

وأما بالنسبة لاسم المدينة واسم الرجل المؤمن، فهذا مِمّا لا يعلم إلّا بالوحي المحفوظ، ومن الواضح أن كتب أهل الكتاب وأقاويلهم التي تلقَّفها منهم بعض أهل العلم، وفسَّروا بها بعضَ آيات كتاب الله، لا يُعَوَّلُ عليها، بعد أن أخبرنا الله تعالى بتحريفهم وكتمانهم ونسيانهم لكثير من الحقائق التي وردت فيها، كما تحدثنا عن هذا في الكتاب الخامس، من هذه الموسوعة بالتفصيل.

وهناك دَليلٌ واضحٌ آخر على أن أولئك المرسلين الثلاثة، لم يكونوا من حواريِّي عيسى عليه السلام، وهو:

أن الله تعالى ذكر في خاتمة قصة الرسل الثلاثة، ودفاع ذلك الرجل

المؤمن، بأنّه قد أهلك ساكني تلك المدينة، من جرّاء عدم استجابتهم لأولئك المرسلين، كما قال تعالى:

﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس].

ولم نسمع ـ ليس في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ «**اللَّذيْن لا تُتَلقَّى أخبار الغيب إلّا منهما**» فحَسْبُ، بل حتى من كتب أَهْلِ الكتاب ـ أن الله تعالى أهلك في زمن عيسى عليه السلام أو بعده أهل مدينة ما!!

والآن لِنَسْرد فقرات دفاع الرجل المؤمن، التي يتجلَّى في كلّ منها وصفٌ جليل، أو موقف حكيم:

١ ـ المجيء من أبعد مكان في المدينة، بسرعةٍ وجدّ:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ...﴾ [يس].

وهكذا أتباع الأنبياء عليهم السلام، يقَطَعون المسافات الشاسعة ويمشون ويتحرَّكون بِجدّ ونشاط في الدفاع عن دين الله تعالى.

٢ ـ توصية قومه باتِّباع المرسلين:

﴿...وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس].

وناداهم بـ(يا قوم) تحريكاً لعواطفهم، وبأنَّه هو رجلٌ منهم، يُهِمُّه خيرُهم وصلاحُهم، وإنَّما قال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بدل «آمنوا بالمرسلين» لأنّ الإِتّباع مشتمل على الإيمان، وثمارِ الإيمانِ ولوازِمِهِ أيضاً.

٣ ـ تأكيد الوصية باتِّباعهم، وبيان حقيقة عدم توقُّع المرسلين الأجرَ من أحد، وأنّهم على صراط مستقيم:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس].

وإنّما قدّم ذكر (عدم طلب المرسلين الأجر) على (كونهم مهتدين)، كي يُزيلَ المانِعَ قبل ذكر الدافع!

٤ ـ الإستدلال على حقانية التوحيد، بربوبية الله للمخلوقين:

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس: ٢٢].

ومن الجَلِيِّ أن مقصوده بهذا الكلام الذي يوجِّهُهُ إلى نفسه، هو قومه، ولكن لم يَجْبَهْهُمْ بتلك الحقيقة ـ أي لا معقولية عدم عبادة الله الفاطر سبحانه ـ كي لا يَسْتَفِزَّهم، وهذه من لطائف الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى.

٥ ـ تذكيرهم برجوعهم إلى الله تعالى، لِذا فَليسْتَعِدُّوا للقائِهِ بعبادته وتوحيده:

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وإنما لم يَقُل (وإليه أرجِعُ) لأن الرجوع إلى الله تعالى، حقيقة واقعة ولا يُسْتَفَزُّون بالتذكير بِها، بخلاف العبادة لله وحده، والتي تسْتَلْزِمُ تَرْكَ الأصنام ورفض الطواغيت، وذكر هذا يُوجِعُهُمْ من الصَّميم.

٦ ـ الإستدلال الحكيم على بطلان الشرك، وذلك ببيان أن الآلهة المزعومة لا تملك لِعابديها حتّى الشفاعة أمام الله تعالى:

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس].

والمعبود الذي لا يملك لعابدِهِ جَلْبَ نفع ودفع ضرّ، حتى ولو بالشفاعة والرّجاء، لهو معبودٌ باطِلٌ مُزَيَّف، وأنَّى يَسْمَحُ الواحد القهار أن يَشْفَعَ عنده، من ٱتُّخِذَ شريكاً له في العبادة؟!

٧ ـ بيان عاقبة الشرك الوخيمة، بتوجيه الخطاب إلى نفسه، بأنه إذا ما عبد غير الله تعالى، فسيكون في ضلال واضح لا لُبْسَ فيه:

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [يس].

ومعلوم أنّه يقصد بهذا الكلام الذي يُوَجِّهُهُ إلى نفسه، قَوْمَهُ، ولكن ـ كما قلنا من قبل ـ يريد ألّا يجبههم بتلك الحقائق المُرَّة ـ بالنسبة لهم ـ كي لا يستثيرهم ويسمعوا له حتى النهاية.

٨ ـ إعلان الإيمان بالمرسلين ودعوتهم الربّانية، إعلاناً مُدَوِيّاً وفي اللحْظة الحاسمة:

﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥﴾ [يس].

أجل ههنا وفي اللحظة الحاسمة المناسبة، يُعْلِنُ الرَّجُلُ المؤمن إيمانَهُ الذي لَمْ يَبُحْ به بَلْ أبْقاهُ سِرّاً إلى هذه اللحظة الحسّاسة التي تتطلَّبُ جرأة الإعلان، كما أن الفترة السابقة كانت تستلزِم حكمة الكتمان!

والحكمة ـ كما يبدو لي ـ في اختياره هذه اللحظة للإعلان عن إيمانه، هي:

أولاً: كان المرسلون الثلاثة عليهم السلام، في ذلك الوقت بأمَسِّ الحاجة إلى مَنْ يُناصِرُهُمْ ويَشُدُّ أزْرَهُمْ.

ثانياً: قد مَهَّدَ للإعلان عن إيمانه المُسْتكِنّ الراسخ في قلبه، بذلك الحوار الهادف الحكيم الذي جَلَّى فيه حقانية الإيمان والتوحيد واتِّباعَ المرسلين، ورشدهم ونزاهتهم، وزَيَّفَ الكفر والشرك بأفضل ما يمكن، إذاً: فالآن إذا قُتِلَ نتيجة هذا الإعلان، فلا ضَيْرَ، لأنّه أتم دَوْرَهُ المطلوب الذي كان يجِبُ عليه أنْ يؤدِّيه، تجاه دين الله الحق ورسله الكرام عليهم السلام، ولا يُهِمُّه ما حدث بعد هذا!

٩ ـ قَتْلُهُ ـ من قبل الكفّار ـ ودخوله الجنّة:

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ...﴾ [يس: ٢٦].

وكونه قَتَلَهُ الكُفّارُ من قومه، وإنْ لم يصَرَّح به، لكنّه واضِحٌ في السياق، وفي قوله تعالى مباشرة بعد إعلانه السابق: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾، وأرى أن الحكمة في طيِّ ذكر قتله، هي:

أنْ يُعلم بأن القتل والموت في سبيل الله، يجعل طَعْمَ الموت سائِغاً وخروجَ الروح سَهْلاً، وكأنَّ الإنسان المؤمن يدخل الجنة وهو حيٌّ ولم تُفارِقْ روحُهُ بَدَنَهُ، وفي الأحاديث النَّبويَّة ما يوضِّح هذا الأمر.

١٠ ـ الحِرْصُ على هداية قومِهِ حتى بعد قتلهم إيّاه، وهو في الجنّة من وراء البرزخ:

﴿...قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس].

لَقَدْ تمنَّى ذلك الرَّجُل المؤمن الخَيِّرُ، لقومه الخَيْر المتمثِّل في الهداية حتى بعد قتلهم إيّاه ظُلْماً، وحقَّقَ الله تعالى أُمنيَّتَه تلك، ولكن ليس في قومه الشِّرِّيرين، بل في أمة (محمد) سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ.

<u>الثامنة عشر إلى الثالثة والأربعين</u>: سِتَّةٌ وعشرون وصْفاً ومَوْقفاً للرَّجُل المؤمن الكاتم لإيمانه من آل فرعون:

وهذا موقف رجل مؤمنٍ آخر، من أتباع الرسل عليهم السلام، في الدفاع عن الأنبياء، والحق الذي أنزله الله تعالى عليهم، وهذا الموقف الإيماني البطولي لذلك الرجل المؤمن المعروف بـ(مؤمن آل فرعون) يستغرق:

الآيات من (٢٨) إلى (٤٦) من (غافر).

وبما أنّنا سَنُدْرِجُ الآيات تباعاً عند سَرْد الأوصاف والمواقف، فلا نكتبها هنا:

وقبل أن نشرَع بِسَرْد تلك الأوصاف والمواقف، نُشير بإيجاز إلى الجوِّ الذي انبرى فيه ذلك الرجلُ المؤمنُ الشجاعُ الحكيمُ، لِلدِّفاع عن موسى عليه السلام، وذلك في ضوء الآيات التي مَهَّدت لِذكر ذلك الدفاع المجيد:

قال تعالى في (غافر) من الآية (٢٣ إلى ٢٧):

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

أَجَلْ: كان هذا هو الجوُّ الذي تصدّى فيه ذلك الرجل المؤمن للدفاع عن نبي الله موسى عليه السلام، فموسى أرسله الله بآياته البيِّنات الحاوية على هدايته ودينه الحق، وأعطاه معجزة ظاهرة باهرة، تُثْبِتُ صِدْقَ موسى عليه السلام في دعواه، إلى ثالوث مصر المشؤوم: (فرعون، هامان، قارون)، ولكنّهم اتَّهموه بالسّحر وبالكذب، ثم لم يكتفوا بهذا، بل أضافوا إليه جريمة أخرى، وهي إصدار قرار طاغوتي بقتل أبناءِ أتباعه المؤمنين وإبقاءِ بناتهم ـ للخِدْمة ـ. ثم جاوز فرعون كلَّ الحدود بقوله: ﴿...ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ...﴾.

ثم يبرِّر اقتراحه الإبليسي هذا بقوله: ﴿...إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، أي: هناك فهناك ذريعتان بيد فرعون، تُبرِّران له قَتْلَ موسى عليه السلام:

الأولى: المحافظة على النظام والمنهج الذي وضعه فرعون لمجتمعه المُسْتَخفّ المُسْتَضْعَفْ، إذْ قد ذكرنا في السابق أن أحد معاني كلمة (الدِّين) هو المنهج والنظام الذي تُدارُ به شؤون الحياة، وهذا المعنى هو المقصود هنا.

الثانية: نَشْرُ الفساد والفوضى من قِبَل (موسى) في البلد! وهاتان الذريعتان هما اللّتان يتذرَّع بهما الحكّام الطواغيت في كل عَصْرٍ ومصرٍ، لِلفَتْكِ بالمجاهدين في سبيل الله، والسّاعين لتحرير الناس من الظلم والإضطهاد، وتطهير حياتهم من الفساد!

وأمام وعيد فرعون وإرهابه، يَلْتَجِيءُ موسى عليه السلام إلى ربِّه ويستعيذ به من شرِّ ذلك الطاغوت المتكبّر.

وعند هذا الحدّ الفاصل وفي تلك اللّحظة الحَرِجة الحاسمة، يُعْلِنُ الرَّجل المؤمن الكاتِمُ لإيمانه من (آل فرعون) ـ وآل الرَّجُلِ هم خاصّته ومُقرَّبوه[1] ـ إيمانَهُ، لأنه إذا كانت هناك مصلحة في إخفاءِ الإيمان في فترة مُعيَّنة، فعندما يتوجّه الخَطَرُ الجِدِّيُّ إلى القائد، الذي هو بمثابة القُطْبِ من الرحّى للجماعة المؤمنة، فهناك يجِبُ أن تُجَهَّزَ كلُّ الطاقات لإبعاد الخطر عن القائد، كما هو دَيْدَن الأعضاء، عندما يتعرّض الرأس لخطرٍ أو ضررٍ.

ولنبدأ بِسَرْد دفاعه، في البنود الستة والعشرين الآتية:

١) توبيخ فرعون وحاشيته على ما يريدون القيام به، من قتل موسى عليه السلام :

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ...﴾ [غافر: ٢٨].

واستعمال صيغة الإستفهام الإنكاريِّ، يُراد به وصْمُ فرعونَ ومَلَئه على نيَّتهم تلك، بِمُخالفتهم للعقل والمنطق، لعلَّ استهجانه هذا لموقفهم، يكون سبباً لتراجعهم عنه.

وقد اختار ذلك الرجل المؤمن، أوضح وأجْلى حقيقة من الحقائق التي تحتويها رسالَةُ موسى عليه السلام ، بقوله: ﴿...أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ...﴾، إذ هذه الحقيقة تشهد بها كلُّ العقول والفِطَرِ السليمة، ولا ينتطح فيها عَنَزان.

٢) بيان حقيقة أنّ موسى عليه السلام **، دعواه مدْعومةٌ بالمعجزات الظاهرة من ربِّه:**

﴿...وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ...﴾ [غافر: ٢٨].

ومعنى هذا:

أن موسى عليه السلام أو أيَّ إنسانٍ آخر، لا يُسْتَساغُ قَتْلُهُ لِمُجَرَّد إقراره

---

(١) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير ص٢٠.

بربوبية الله تعالى له، إذْ كيف يقتل إنسانٌ، بسبب إبْداءِ عقيدة أو فكرة، ثم هو ـ أي موسى ـ بالإضافة إلى هذا، قد جاءكم بالبراهين الجلية السّاطعة من ربِّه، على ما يقوله وما يعتقده من دينٍ!

٣) سَدُّ طريقِ المِساسِ بِموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بأيِّ وجهٍ من الوجوه، أمام فرعون ومَلَئِه:

﴿...وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ [غافر: ٢٨].

وهذا كلام مُسْتَنِدٌ إلى ما يُعرف في المنطق بـ(قاعدة السِّبْر والتقسيم)، إذ معنى هذا الكلام:

لا يخلو حالُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من احتمالين: فهو إمّا كاذبٌ كما تزعمون أنتم، أو صادق كما يقول هو، فإنْ كان كاذباً، فلا يَرجِعُ وبالُ الكذب إلّا عليه وحده، ولكن إن كان صادِقاً ـ أنه رسول الله ـ فعلى الأقل يُصيبُكم بعضُ ما يَعِدُكم به ـ إنْ بقيتم على الكفر ـ، وبالنتيجة فلا يجوز ـ على كلا الإحتمالين ـ المِساسُ به.

٤) بيان سنة الله القاضية، بعدم توفيقه لكل مَنْ هو متجاوزٌ للحدود، في أعماله وكثير الكذب في أقواله:

﴿...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾ [غافر].

وهذا القول فيه من الحكمة والسَّداد ما فيه، إذْ هو سِلاحٌ ذو حدَّين لكل من الطرفين، وإنْ كان مقصوده ـ يقيناً ـ بهذا الكلام هو فرعون وحاشيته.

٥) الدخول عليهم من باب العاطفة، وتخويفهم من بأس الله وانتقامِهِ، وتحذيرهم من الإغترار بالملك والقوَّة:

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ...﴾ [غافر: ٢٩].

وهنا قبل أن يُكمل الرَّجُلُ المؤمِنُ كلامَهُ، يُقاطعه فرعون كعادة الطواغيت الذين يريدون دَوْماً خَنْقَ الكلمات والجمل الصادقة الجريئة في صدور الأحرار، إذْ بما أن مُلْكَهم مَبنيٌّ على أسسٍ هَشَّة، يرتعدون لسماع صوت القَشَّة[١]، ويرون في كل كلمة حق، قذيفة تضرِبُ بُنْيانَهم المهزوز:

﴿... يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر].

٦) إعادة الكرّة والإنتقال إلى ميدان التاريخ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ...﴾ [غافر].

إذاً: لم يسكت الرجل المؤمن بعد مقاطعة فرعون لكلامه، بل استمرَّ ولم يَعْبأْ به، وألْفَتَ أنظارَهم إلى مصائر الأحزاب والأقوام المعادية لِرسُلِ الله الكرام عليهم السلام، كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود والذين أتوا بعدهم، وهذا يعني أنهم إذا استمرّوا على ذلك الموقف الذي يُمْليهِ عليهم فرعونُ الطاغية، فسيكون مصيرهم مثل مصائر الأحزاب والأقوام الكافرة التي سَبَقَتْهُمْ.

٧) بيان حقيقة عدالة الله تعالى وحكمته، وأنَّ مَنْ عَرَّض نَفْسَهُ لسننه انطبقت عليه:

﴿... مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر].

---

(١) القَشَّة: واحدة القَشِّ، وهو: رديءُ التَّمْر، ما يُكْنَس من المنازِل ونحوها، ما يَتَخَلَّفُ من القَمْحِ والرزِّ ونحوها بعد استخراج حَبِّه، ج: قُشوش. المعجم الوسيط، ص٧٣٦.

ومعنى هذا:

أنّ أولئك الأحزاب وَالأقوام الكافرة، إنَّما أهلكهم الله تعالى وأبادهم من جرّاء ظلمهم وطغيانهم وفسادهم، وإلّا فإنَّ الله تعالى أعلى وأعظم وأحكم وأرحم، من أنْ يَظْلِمَ عبادَه الذين خلقهم، كي يكرمهم ويرحمهم، بسبب عبادتهم له، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء].

٨) الإنتقالُ إلى التذكير بأهوال يوم القيامة الرَّهيب:

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ...﴾ [غافر].

و(يَوْمَ التَّنَادِ) أحد أسماءِ يوم القيامة، لأن الناس يُنادي بعضهم بعضاً في ذلك اليوم، أو لأنه يُنادى باسم كل شخص على رؤوس الخلائق، ويصوِّر الرجل المؤمن العاقبة الوخيمة لقوم فرعون، بقوله: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ...﴾، أي ستفرّون في ذلك اليوم إلى حيث لا مَفرّ، ولا أحَدَ ولا شيءَ يحفظكم من عقاب الله وعذاب الله الذي كنتم تعادون دِينَه وأَنبياءَهُ وأولياءَهُ في الدنيا.

٩) بيان حقيقة أن مَن أضلّه الله لِسوءِ طويَّته، فلا هادي يَهديه بعد الله تعالى:

﴿...وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر].

وإنما يَنْسِبُ الله تعالى الإضلالَ إلى نفسه، لأنَّه ككل شيء آخر في الوجود، إنّما يَحْدُثُ وَيَتُمُّ بِمشيئته، وحسب سُنَنهِ التي وضعها في الخلق والتي منها:

أَنَّ الله تعالى جعل الإنسان حُرّاً، وذا إرادة حُرّة، يَخْتارُ بها ما شاء من الكفر والإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ...﴾ [الكهف: ٢٩].

لِذا فالإنسان سواء اخْتارَ الكفر أو الإيمان، فهو في الحالين أعْمَل إرادته الحُرَّة، ومشيئته التي جهَّزه الله بها، ليصْلُحَ للإختبار، ولكنه في الوقت نفسه، تحرَّك ضمن مشيئة الله الكلية المحيطة بكل شيء، والتي من ضِمْن الأشياء الصادرة عنها، هي تلك المشيئة الحرة الجزئية التي يختار بها الإنسانُ ما يرغب فيه، من: كفرٍ وإيمان، وفجور وتقوى، ومعصيةٍ وطاعة.

١٠) تذكيرهم بحقيقة تَاريخية قريبة منهم زمناً وأرضاً، وهي مجيء (يوسف) عليه السلام إليهم بالبيِّنات:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا . . .﴾ [غافر: ٣٤].

وهذا يعني:

أنّ تَشَكُّكَمْ في أمرِ موسى عليه السلام، مع ما أوتي من البيِّنات الباهرة، ليس شيئاً جديداً عليكم، بل هو موقف قديمٌ توارثتموه جيلاً بعد جيلٍ، منذ زمن (يوسف) الذي جاءكم بالمعجزات الظاهرة، والتي منها تعبيره الرؤى، حيث بسببه أنقذكم بفضل الله، من مجاعةٍ محقّقة من جرّاء القحط الذي استمرَّ سبع سنوات، ولكنه بسبب تأويله عليه السلام لرؤيا الملك التي اعتبرها مَلَؤُهُ أضغاثَ أحلام! عَبَرْتم ذلك الظرف العصيب بِسهولة، بل وساعدتم ما حولكم من المدن والقرى!

١١) بيان حقيقة: أن من سنن الله الحكيمة: إضْلالَهُ الإنسان المتجاوز للحدود، والمتشكِّك في دين الله من غَير ما داعٍ:

﴿. . . كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر].

وهذا يعني: أن المتجاوز للحدود في المَوْقِفِ تجاه ربِّه، وفي التعامل

مَعَ النّاس، والمتشكّك في دين الله ووحيه وأنبيائه، يَوَفِّرُ بنفسه لِنَفْسِه أرضية الضَّلالة والغواية، التي تَتِمُّ وفق مشيئة الله الكلية وسننه الحكيمة.

١٢) بيان حقيقة: أن جدالَ فرعونَ في آيات الله بغير برهانٍ، يَجُرُّ له غَضَبَ الله تعالى، وغَضَبَ أَهلِ الإيمان الشديد:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [غافر: ٣٥].

وهدف الرجل المؤمن من بيان هذه الحقيقة، هو ألّا يَنْخَدِع الناس بكلام فرعون المنمَّق المزخرف الأجوف، وألّا تنطلي عليهم حِيَلُهُ وألاعيبه، التي يلجأ إليها للتشويش على الحق الأبلج الذي جاءَ به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٣) بيان حقيقة: أن المتكبِّرين المتجبِّرين ـ وفي مقدِّمتهم فرعون ـ قلوبهم مصروفة عن الحق، كالرسائل المطموغة التي لا ينفذ إلى داخلها شيء:

﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾.

وهذا تحذيرٌ آخر من الرجل المؤمن الجريء الحكيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى المجتمع الفرعوني، من الجري وراء فرعون وحاشيته، في عدم الإيمان بموسى ومعجزاته الباهرة، إذ سبب عدم إيمانهم، هو أن الله طَبَعَ على قلوبهم من جرّاء احتوائها على الكبر والقهر والجبروت، ولكن أنتم أيها المساكين المخدوعون! لكم شأن آخر، فإيّاكم والتشبُّهَ بِفرعون في دينه الباطل، ألا ترون البون الشاسع بين دنياكم وحياتكم التعيسة، ودنياه ومعيشته المسرفة، وإنّما هَيَّأَ لنفسه وحاشيته تلك المعيشة المترفة المسرفة، وفرض عليكم حياتكم البائسة ومعيشتكم التعيسة، بسبب دينه الباطل الظالم الذي يرى وجوده في بقائه، ولهذا يَعُضُّ عليه بالنَّواجِذ!

وههنا يقاطِع فرعونُ الرَّجُلَ المؤمِنَ للمرة الثانية، ساعياً لِصَرْفِ أنظار

النّاس عن هذه الحقائق الجلية، التي يبيِّنها من خلال دفاعه عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، تلك الحقائق العظيمة التي تنبثق من معين الوحي والهداية الربانية، ولها ارتباط بحقيقة الوجود وصميم الفطرة وعمق التاريخ والواقع الحيِّ، ولنستمع إلى فرعون، لنرى ما الذي بقي في جعبته من الحِيَلِ والألاعيب:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا...﴾ [غافر].

والظاهر أن فرعون قصد بقوله هذا ـ أي أمره هامان أن يَبني له بناءً عالياً، لكي يصل منه إلى طرق السماء، ويفتّش هناك عن ربّ العالمين! ـ أن الإلٰه الذي يدعو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الناسَ إلى عبادته، ليس له وجود، بدليل أنه ليس على الأرض وإلّا لرأيناه، ولم يبق إلّا السَّماءُ، وبما أنه لا طريق لنا للوصول إليها، إذاً: فلا دليل على وجوده!

وهذا دليل على أن فرعون كان مُلْحِداً، وقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ يدلُّ على أنَّ مقصوده بقوله المذكور هو ما ذكرناه، حيث يقول: (لَعَنهُ الله وقد فعل) وإني لأظنّ موسى كاذِباً، بأنَّ ربَّه في السماء ـ أي فوق الخلق ـ لذا فلا حاجة للتفتيش عنه هناك أيضاً!

وموقف فرعون هذا دليلٌ على أن الفكرة المادية القائلة:

(ما لا يقع في دائرة الحواس، لا نملك الدليل على وجوده) ليست فكرة حديثة النشأة، وليست وليدة تطور العلم التجريبي، بل هي فكرة فرعونية قديمة!

وعَقَّبَ سبحانه على قول فرعون المذكور، بقوله:

﴿...وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر].

وحكمة مجيء (زُيِّنَ) و(صُدَّ) بالبناء للمجهول، هي: تصوير حالة فرعون، وكأنَّه صار مُسَيَّراً بيد الشيطان، ولم يبق له أيُّ خِيارٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ يدلّ بوضوح على أنَّ قول فرعون السّابق، سواء قصد به التنفيذ الفعلي أم لا، إنما كان مجرّد خِداع وتمويهٍ وتضليلٍ للناس، كعادة كل الطواغيت الذين ملاذهم الوحيد أمام الحق السّاطع، هو التزوير والخداع.

١٤) تصريح الرَّجل المؤمن لقومه، أن يتّبعوه، كي يَدُلَّهُمْ على طريق الرَّشاد:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [غافر].

وهذا يعني: أن السبيل الذي سلكتموه لِحَدِّ الآن، إنَّما هو سبيلُ ضلالٍ وغَيّ، فإذا أردتم الهداية والرشد، فاتَّبعوني واتركوا متابعة فرعون وحاشيته.

١٥) بيان حقيقة: أَنَّ الحياة الدنيا ليست سوى حياة مؤقتة قليلة، وأن الحياة الحقيقية، هي التي تحصل لأهل الإيمان في الدار الآخرة:

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر].

وفي تَطَرُّق الرجل المؤمن إلى هذه الحقيقة الإيمانية، التي هي صِنْو الإيمان بالله في القرآن العظيم، في أواخر دفاعه عن موسى عليه السلام ودعوته الربّانية، حكمةٌ وأيُّ حكمةٌ! وذلك لأنَّ الطواغيت إنّما يتمكّنون من استعباد الناس وإخضاعهم لأهوائهم وأنظمتهم الجاهلية، بسبب ضعف إيمانهم بالآخرة، أو عدم إيمانهم بها أصلاً، إذْ من الواضح أن الإنسان عندما يعتقدُ بِأنَّ حياته الدنيوية، هي فرصته الوحيدة في الحياة، فَسَيتشَبَّثُ بها بأيّ ثمنٍ ومهما كانت!

وعليه:

فأحسن وسيلة لانتشال الناس من وَهْدةِ الذُّلِّ ومُسْتَنْقَع العبودية للطواغيت، هي تغيير نظرتهم تجاه الحياة، وتفهيمهم أن هذه الحياة الدنيا ليست سوى مرحلة من مراحل الحياة، وأنها هي قاعة ابتِلاء وامتحان، وأن

الحياة الحقيقية الخالدة، هي التي تنتظرهم في الآخرة، وهي نتيجة تَترتَّبُ على هذه الحياة المؤقتة، وبِحَسَبِ ما يحقق فيها الإنسانُ من إيمانٍ وطاعة أو كفر ومعصيةٍ!

١٦) بيان القاعدة الحكيمة العادلة التي على أساسها يُعامِل الله تعالى عبادَهَ:

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر].

أَجَلْ، قاعدة الله الحكيمة العادلة التي يجعلها ميزان تعامله مع عباده، هي:

أن مَن عمل السيئات من الأفكار والأقوال والأفعال، فهو لا يعاقَبُ إلّا بِحَسَبِها عَدْلاً من الله تعالى.

ومن عمل الصالحات من الذكور والإناث، مع كونهم من أهل الإيمان، فهؤلاء يُدْخِلُهم الله جَنَّته، ثم يُرْزَقون فيها بغير حساب، وكلمة (بغير حساب) يراد بها الكثرة والزيادة العظيمة، وذلك لأن الشيء الكثير جداً، لا يمكن عدّه وحِسابُهُ، ويُقال: أعطى فلان فلاناً مالاً كثيراً بغير حسابٍ، أي لم يَحْسِبْ له حِساباً، بل صبَّه له صَبّاً.

وهذا الجزاء الجزيل، إنما هو فضلٌ من الله ورحمة.

فقاعدة الله تعالى يوم القيامة في تعامله مع عباده، إنما هي:

عَدْلٌ مع منْ عصاه، وفضلٌ لمن أطاعه.

١٧) توضيح الفرق الهائل بين نتيجتي: ما يدعو هو قَوْمَهُ إليه، وما يدعو قومُهُ هو إليه:

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر].

أجل، كان هو يدعوهم إلى عبادة الله واتِّباع نبيِّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقومه كانوا يدعونَهُ إلى الكفر بالله واتِّباع فرعون، وعاقبة المَسْلَكَيْن معلومة.

١٨) التعريف بدين قومه الفرعوني، ودينه هو الربّاني:

﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر].

وهذا يعني:

أن دينكم الذي تدعونني إليه لاتّباعه، هو الكفر بالله ربّاً والشرك به إلٰهاً، [إذْ كان فرعون يدَّعي كلاً من الربوبية والأُلوهية على قومه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]، ﴿...مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى...﴾ [القصص: ٣٨]]. ولكن ديني الذي أدعوكم إليه، هو العبادة لله العزيز الغفّار، العزيز على أعدائِهِ، والغفّار لأوليائه جلَّ وعلا.

والمقصود بقوله: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هو: بما أنَّ الله تعالى ليس لَهُ شريك في عالم الواقع، فلا يتعلّق به علمٌ، لأن المعدوم الذي ليس له وجودٌ، لا يمكن معرفَتُهُ والإطِّلاع عليه.

١٩) بيان حقيقة: أن المعبودات الباطلة التي تُعْبَدُ من دون الله، لا يتأتّى منها شيء، ولا تَحُلُّ ولا تَرْبِطُ، لا في الدنيا ولا في الآخرة:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْأَخِرَةِ...﴾ [غافر: ٤٣].

ولا شك أنه لا يوجَدُ أسفه وأحمق من الذي يعبد شيئاً أو شخصاً، لا يملكُ لَهُ شيئاً، ولا يستجيب له دُعاءً، ولا يُنَفِّذُ له طلباً، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف].

٢٠) بيان حقيقة: أن الرّجوع ـ رجوع الكلّ ـ هو إلى الله فقط:

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

فالعاقل هو الذي يَسْتَعِدُّ بِجِدّ لذلك اللّقاء المرتقب الأكيد.

٢١) إعلان أن العاقبة السُّوءىٰ المتمثِّلة في دخول النار، بانتظار المتجاوزين للحدود، وهم فرعون وحاشيته ومن شايعهم واتَّبعهم:

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

ثم يختم ذلك الرجل المؤمن الحكيم الجريء ﷺ، دِفاعَهُ المجيد عَنْ موسى عليه السلام، ودينه الحق الذي أنزلَهُ الله عليه، بثلاث جمل عظيمة:

الجملة الأولى:

٢٢) تنبيهه إيّاهم بأنهم سيتذكَّرون ـ حيث لا ينفع التذكّر ـ هذه الحقائق التي يبيّنها لهم:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ...﴾ [غافر: ٤٤]، ويبدو من قوله، أنه قد يئِسَ منهم، من أن يؤمنوا.

الجملة الثانية:

٢٣) إعلامُهُ إيّاهم بأنَّه، هو وكَّلَ أموره إلى الله تعالى وأسْلَمَ نَفْسَه له:

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ويبدو من هذه الجملة، أن فرعون وجلاوزته قد هَدَّدوه بالقتل، فأجابهم هذا الجواب الذي يَنْضَحُ توكلاً على الله وثقةً به واطمئناناً إليه.

الجملة الثالثة:

٢٤) بيان أن الله تعالى بصيرٌ بعباده، ومُطَّلِعٌ على أحوالهم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

وهذا تعليلٌ لتوكُّله على الله تعالى وتفويض أموره إليه، إذْ طالما أنَّ الله

تعالى مُطَّلِعٌ على أحوال عباده، يُبْصِرُهُم ويَسْمَعُهمْ، فهو كفيلٌ وكافٍ لهم بأن يفعل لهم ما يعود عليهم بالخير والبركة في الدنيا والآخرة، لِذا فلا داعي لِلْهَمِّ والغَمِّ والقلق والخوف.

وهاهنا أريدُ التنبيه على نكتتين، فيما يتعلق بالتوكّل على الله وتفويض الأمر إليه وإسناد الظهر إليه:

الأولى: التوكل على الله تعالى وتفويض الأمر إليه، لا يعني القعود عن العمل وعدم الجِدِّ والإجتهاد، وذلك لأن التوكّل عمل القلب، ومعلومٌ أن عمل القلب ليسَ بديلاً عن عمل الجوارح، واتِّخاذ الأسباب، ولهذا نرى الرجل المؤمن الثائر على فرعون ونظامه الجاهلي، مع كونه مفوِّضاً أمورَه إلى الله تعالى ومتوكلاً عليه، بَذَلَ كلَّ ما في وُسعِهِ في نُصْرَةِ موسى عليه السلام، وتبْيين الحق الذي جاء من الله تعالى، وذلك بمختلف الأساليب التعبيرية.

الثانية: تفويض الأمور إلى الله العزيز الرحيم والتوكل عليه، لا يعني أن يَظَلَّ الإنسانُ سالِماً مُعافًى لا يصابُ بمكروهٍ، والدليل على هذا هو أن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام كانوا كلُّهم في القِمّة من التوكل على الله تعالى، ومع ذلك فهم كانوا أشدَّ الناس بلاءً وأكبرهم مُصاباً، كما قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءَ**» (أَخْرَجَهُ أَحْمَد برقم: (١٤٨١)، وَالتِّرمِذِيُّ برقم: (٢٣٩٨) وَقَالَ: حَسَنٌ صَحِيح، وَابْنُ مَاجَه برقم: (٤٠٢٣)، وَابْنُ حِبَّانَ برقم: (٢٩٠١)، وَالحَاكِمُ برقم: (١٢١)

فمن الخطأ أن يتوقَّع المُسلمُ المتوكِّل على ربِّه، أن يَحْفَظَهُ الله تعالى ويُسَلِّمه من المصائب والمكروهات، بل الشخص الذي يُعامِلُ رَبَّهُ الحكيم على هذا الأساس، ليس مِن التوكل على الله تعالى في شيءٍ، إذْ مَنْ يجعلُ الله تعالى وكيلَه، ويُسَلِّم إليه أمورَه، لا يجوز ولا يعقل أن يضع له شروطاً وقيوداً مسبقة! بل هذا من سوء الأدب مَعَه سبحانه! وقد يكمُنُ فيما نكرهه نحن من البلايا والمصائب، خيرٌ عظيم لنا في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿...فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

[النساء]، وقال: ﴿. . . كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

وخلاصة القول في معنى التوكل على الله وتفويض الأمور إليه، هي:

أن يَثِقَ العبدُ بِربِّه الكريم الحكيم جلّ وعلا، ثقة تامة ويستيقن بِولايته له ولُطْفِهِ معه، وكذلك يستيقن بأنّ تدبيره هو له خيرٌ بما لا يقاس من تدبيره لنفسِهِ، ثم يكون مطمئِنَّ البال، وساكِنَ القَلْبِ، بأنّه مهما كانت النتيجة، سواء وافقت رغبته أم لا، فهي خيرٌ له وبركة في الدنيا والآخرة، لِذا: فَلْيتَلَقَّها مطمئنَّ القلب وقريرَ العين.

٢٥) تكرير الرجل المؤمن نداء (يا قوم) خمس مرّات، لتحريك مشاعرهم وتنبيهه لهم: أنه واحدٌ منهم، وَيَهُمُّهُ خيرُهم وصلاحُهم:

١ ـ ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢٩].

٢ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [غافر].

٣ ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر].

٤ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [غافر].

٥ ـ ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ [غافر].

والحكمة من ذلك هو تحريك مشاعرهم القومية لغاية رفيعة شريفة، وهي هدايتهم، وكذلك إشعارُهم أنه ليس سوى رجلٍ منهم، وهو حريصٌ على خيرهم وصلاحهم، ومعلوم أن الطرف المقابل المدعو، كلّما استشعر الإخلاص والنصح والشفقة في الداعي تجاهه، كلَّما كان أكثر مظنة للإستجابة.

٢٦) نهاية المطاف: وقاية الله للرجل المؤمن، وإحاطة العذاب الدنيوي بآل فرعون، والعرض على النار صباحاً ومساءً في عالم البرزخ، وأشدُّ العذاب الأخروي بانتظارهم:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].

هكذا كانت نهاية مطاف مرافعة الرّجل المؤمن من آل فرعون، عن قضيّة موسى عليه السلام، أمامَ فرعون وَمَلَئِهِ ودِفاعه عنه:

أ ـ أمّا هو رضي الله عنه:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ...﴾ [غافر].

ووقايةُ الله تعالى له في مقابل مكائد فرعون ومَلَئِه، قَدْ تعني: حِفْظَهُ إيّاهُ منهم، أنْ يَمَسُّوه بسوء، وقد تعني: حِفْظَهُ تعالى له من التنازل والمُهادَنة لهم، وتصبيرَه إيّاه وتَثْبيتَهُ على الصراط المستقيم والدين الحق، ومنحه الإستقامة، وفي هذه الحالة ليسَ بالضروري أن يكون قد بقيَ سالِماً من الأذى والسّوء، والسّلامة الحقيقية في ميزان دين الله الحكيم، هي سلامة الدين والإيمان، وسلامة المَوْقِفِ في الثبات على دين الله، أياً ما كان الثَّمَن، ولا يكون أكثر من الشهادة في سبيل الله تعالى، والتي هي أعلى درجةٍ يمكن أن ينالَها الإنسانُ المؤمن (ذكراً أو أنثى) في حياته الدنيا، بعد درجة الصدِّيقية الَّتي لا تُنالُ إلّا نادِراً.

لقد وَقى الله الحفيظ جلَّ وعلا، الرجلَ المؤمن من الخسار والبوار، وأعانه على الفلاح والنّجاح، سواء كان قَتَلَهُ آلُ فرعون ونال الشهادة، أو كان جِسمُهُ الديكوري سالِماً لِمُدَّةٍ قليلة أخرى، من أيام حياة الدنيا المؤقتة الزائلة!

ب ـ وأما (آل فرعون) ـ أي فرعون وأتباعه عموماً وحاشيته خصوصاً ـ لعنهم الله:

فمصيرهم شَرُّ مَصيرٍ في الدنيا، وعالم البرزخ، والآخرة، أي في المراحل الثلاث من حياتهم، كما قال تعالى:

١) ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

والمقصود بهذا هو إغراق الله العزيز إياهم، في البحر الأحمر عند مطاردتهم لموسى عليه السلام وأتباعه من بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء].

٢) ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

والمقصود بهذا هو عذاب عالم البرزخ، أي: عذاب ما بعد الموت، قبل مجيء يوم القيامة، وذلك بدليل قوله تعالى فيما بعد: ﴿...ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر]، إذاً: فالعذاب المُتَمَثِّل في العرض على النار صباحاً ومساءً، هو عذاب البرزخ الذي يبدأ بعد الموت، وانتقال الإنسان إلى عالم ما يُسمَّى بالبرزخ، إستناداً إلى قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون].

وأرى أن الحكمة في ذكر عذاب البرزخ، مُتَّصِلاً بِذكر عذاب آل فرعون الدنيوي المتمثّل في الغَرْق في البحر، هي:

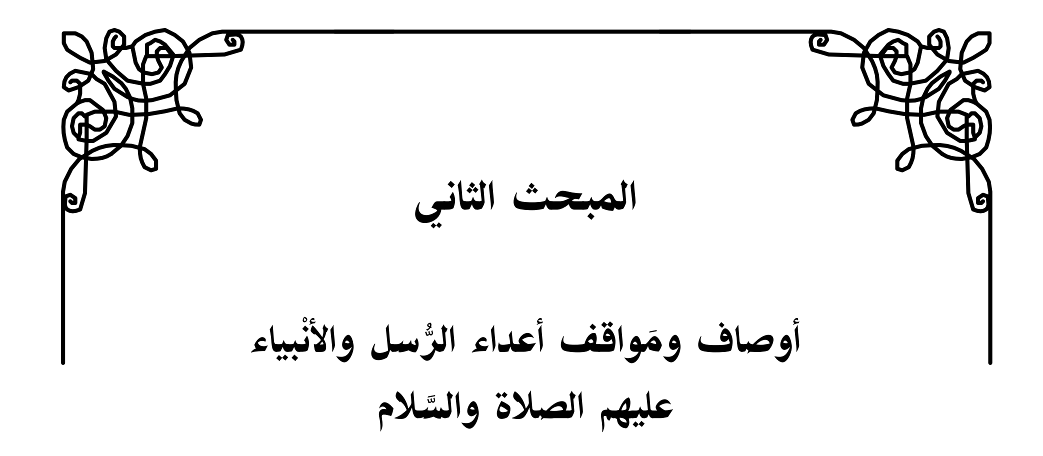
أن عذاب البرزخ يبدأ مباشرة بعد الموت، ومفارقة الروح للبدن، لذا: فقد كان عذابا آل فرعون الدنيوي والبرزخي، مُتواليين بَلْ مُتَّصلَيْنِ، ولهذا ذُكِرا بهذه الصِّيغة! وسبحان الذي لا نهاية لِحِكَمِ كتابه وأسراره.

٣) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

والمَعْنِيُّ بـ﴿أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ﴾ هو العذاب الأخروي الذي يبدأ بعد قيام السّاعة، وبعد المحاكمة الربّانية العادلة للكافرين.

وبهذا نختم هذا المبحث الأول من الفصل التاسع، وننتقل الآن إلى المبحث الثاني منه بإذن الله وتوفيقه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الثاني

أوصاف ومَواقف أعداء الرُّسل والأنْبياء عليهم الصلاة والسَّلام

ذكر كتابُ الله المُبين لأعداء الرُّسُلِ والأنبياء عليهم السلام، أوصافاً كثيرة ومواقف عديدة، ليعرِّفَ بهم من خلالها، ولا يمكننا استقصاؤها، ولكن سنشير إلى أهَمِّها وأبْرزها، في الفقرات الأربع عشرة الآتية[1]:

الأولى: إنّهم أغلبية عددية (غالباً)، تُوَجِّهُهُمْ طبقة من ذوي النُّفوذ السياسي والإقتصادي:

وتدلّ على هذه الحقيقة آيات كثيرة، والتي فيها تهديدٌ ووعيدٌ بالقتل والسِّجن والإخراج من الوطن، على لسان أعداء الأنبياء، للأنبياء وأتباعهم، وواضحٌ أن مثل هذه التهديدات التي نُفِّذت أكثرُها، لا يقدر عليها إلّا من بيده السلطة السّياسية والإمكانية المالية، وتؤيّده أغلبية المجتمع ولو كُرْهاً وعلى مضضٍ.

وهذه بعض الآيات في هذا المجال:

١ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ . . .﴾ [إبراهيم: ١٣].

(١) يجدر بالذكر أن هذه الأوصاف والمواقف، وان كان أهل الكفر يشتركون فيها عموماً، ولكنّها بالطواغيت منهم ألْصَقُ.

٢ ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ . . .﴾ [الأعراف: ٨٨].

٣ ـ ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء].

٤ ـ ﴿. . . ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل].

٥ ـ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء].

الثانية: التكبُّر عن قبول الحق، والتعالي والتجبُّر على الناس:

وهذه الصِّفة هي أبْرَزُ مِيزَةٍ في أعداءِ الأنبياء عليهم السلام، وهذه بعض الآيات التي تُجلِّي هذه الحقيقة:

١ ـ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ . . .﴾ [الأعراف: ٧٥].

٢ ـ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص].

٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [إبراهيم].

الثالثة: عدم تحمُّل أفكار وآراء الآخرين، وادِّعاءِ حيازة الحق كلِّه دون الآخرين:

وهناك آيات كثيرة دالّة على هذه الحقيقة بصور مختلفة، نكتفي منها بمثالين:

١ ـ قال فرعون عندما أعلن موسى عليه السلام دينَ الله الحق، وانبرى الرجل المؤمن للدِّفاع عنه:

﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر].

٢ ـ طالب (شعيب) عليه السلام في ختام حواره مع الملأ من قومه، بتسامح بعضهم مع بعض في مجال العقيدة والفكر، ولكن الملأ المستكبرين، هدَّدوه هو وأتباعه المؤمنين، بالطرد من بلدتهم، ما لم يرجعوا إلى دينهم الطاغوتي:

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف].

الرابعة: إدِّعاءُ امتلاك الإمتياز على الناس، تبريراً لِتَسَلُّطهم وتعاليهم عليهم:

أجل هذه ميزة أخرى لأعداء الرُّسل والأنبياء عليهم السلام ـ وخصوصاً الملأ والرؤساء منهم ـ حيث يدّعون إدّعاءات فارغة بأنهم، يمتلكون من الإمتيازات ما ليس لغيرهم، وذلك إيهاماً للبسطاء، بأنهم ـ أي: الطواغيت ـ من طينة أخرى غير طينة الناس، لِذا يجب عليهم إطاعتهم طاعة مطلقة، من غير لام وجيم!

فمرّة يدّعون الربوبية والألوهية على الناس، كما قال (فرعون) مصر:

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات].

﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي...﴾ [القصص: ٣٨].

وتارة يدَّعون القدرة على الإحياء والإماتة، كما قال (نمرود)

لإبراهيم عليه السلام، عندما استدلّ له إبراهيم لإثبات ربوبية الله تعالى، بكونه يُحي ويميت، كما قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة].

وكرةً يزعمون بأنهم هم وحدهم الذين يعرفون الحق والحقائق، كما قال فرعون:

﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر].

إذ معنى هذا القول:

(إنّ الذي أقولُهُ لكم هو الحق المطلق)، وذلك لأنَّ مَنْ لم يدلّ الناس إلّا على الرُّشْدِ والصَّواب، فهو بالضرورة قد حاز الحق، وجمع الحقائق كلَّها في نفسه!

الخامسة: اللّجوء إلى استعمال مَنْطق القوّة دَوْماً، والتهديد بالقتل والتعذيب والسِّجن والطَّرد والرّجم والإحراق:

إن أهل الكفر ـ وخاصة الرؤساء الطواغيت منهم ـ بما أَنّهم لا يملكون قوَّة المنطق والبرهان، فهم يرون أنفسهم مُضطرِّين إلى اللّجوء لمنطق القوَّة والعدوان، وهذا واضح وضوح الشمس ليس دونها سحاب، فيما قَصَّهُ الله تعالى علينا في كتابه، من مواقف أعدائه وأعداء أنبيائه وحملة كتبه ورسالاته، وهذه بعض الآيات بهذا الصّدد، وقد أشرنا قَبْل قليلٍ إلى بعض آيات أخرى:

١ ـ ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ... فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ...﴾ [العنكبوت: ٢٤].

٢ ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ . . . قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء].

٣ ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا . . .﴾ [إبراهيم: ١٣].

٤ ـ ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء].

٥ ـ ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ . . .﴾ [هود: ٩١].

السادسة: إحتضان الحياة الدنيا، والإسراف والتنعّم فيها على حساب لقمة عيش الآخرين، وإهمال الآخرة عملياً، وإن ادَّعوا الإيمان بها قولياً أحياناً:

كما قال تعالى:

١ ـ ﴿. . . ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ . . .﴾ [إبراهيم].

٢ ـ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . .﴾ [المؤمنون].

٣ ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

٤ ـ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء].

ولا شك أن عبودية الطواغيت وأذنابهم وحواشيهم للدنيا وشهواتها وانغماسهم فيها، سَبَبٌ أساسي لوقوفهم في وجه الدعوة الربّانية التي يحملها الأنبياء، والتي هدفها الأساسي ـ كما بيناه في السابق ـ فيما يرتبط بعلاقات الناس بعضهم ببعض، هو إقامة العدل والقسط بينهم، في كافة جوانب حياتهم، فكيف يرضى بالقسط بديلاً، مَنْ هو مُصَمِّمٌ على الظُّلم والطغيان، وإذا سادَ العدلُ، فأنَّى يتسنَّى للظلم والجور أن يعيش أو يتنفّس!

السّابعة: التَشَبُّث بالأفكار والعادات الجاهلية، والسَّعي لإبقاءِ الأوضاع على ما هي عليه، وتمجيد تقليد الآباء والأسلاف، وان كانوا مبطلين:

وهذا الموقف الرَّجعي، وَصَمَ الله العليم الخبيرُ به كلَّ الكفّار والمُتْرَفين، الذين وقفوا في وجه رسل الله وأنبيائه عليهم السلام، من دون استثناء، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف].

٢ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة].

٣ ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ... ﴿٩﴾... قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا...﴾ [إبراهيم: ٩ ـ ١٠].

الثامنة: السَّعي للتشويش على الدّعوة وتشويه سمعة الدّاعي:

ومن أوصاف ومواقف أعداء الرسل والأنبياء عليهم السلام، هو أنّهم يَبْذلُون أقْصى ما في وسعهم، للحيلولة دون الناس ـ أي الجماهير ـ ودين الله الحق، وصَدِّهم عنه.

ويتخذون لتحقيق هذا الهدف وسيلتين:

الأولى: التشويش عل الدعوة:

وذلك بالسَّعي الجادّ من خلال إعلامهم المُضَلِّل، تصويرَ دين الله القيِّم، ودعوة الأنبياء الرّبانية، في صورة مُعْوَجَّة، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿...ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾...﴾ [إبراهيم].

٢ ـ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [إبراهيم].

الثانية: تشويه سمعة الدّاعي:

وذلك بإلصاق شتّى التُّهَم بِشخصيته، بِغَرَضِ تنفير الناس عنه وعدم تأثّرهم به، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر].

٢ ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون].

٣ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ ﴿...قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس].

٤ ـ ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات].

وفي عصرنا الحالي يروِّجُ أعداءُ الإسلام العَالَمِيُّون والمَحليّون دعاياتٍ مُغْرِضة كثيرة، للتشويش على الدعوة الإسلامية المباركة النامية الصاعدة باستمرار، وللنيل من سمعة وشخصية دعاة الإسلام وحملة رايته والذّائدين عن حياضه، من العلماء العالمين المخلصين، والجماعات والحركات والجمعيات الإسلامية، الذين يبذلون النفس والنفيس لإعزاز دين الله الحق! ولكن مِمّا لا شك فيه، أن تلك الدِّعايات هي أقلّ شأناً مِنْ أن تتمكّن من تحقيق غرض أعداء الإسلام والإتجاه الإسلامي، وكلّما ٱزداد العاملون للإسلام جدِّية وإتقاناً وإصابةً في العمل وإخلاصاً وتجرُّداً في النية، خَفَّ وقلّ ضَرَرُ مكائد ومُخططات أعداء الإسلام والمسلمين، بكل صورها وأصنافها، كما قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ...﴾ [المائدة: ١٠٥]، وقال: ﴿...إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران].

التاسعة: إيهام الناس بأنهم ـ أي أعداء الأنبياء ـ حُماةٌ للدين وحَفَظَةٌ على حياتهم ومصالحهم:

وهذا واضحٌ في قول فرعون، كما جاء في الآية (٢٦) من (غافر):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

حيث يبرِّر ذلك الطاغوتُ اللَّعينُ، قَتْلَ موسى ـ إذا ما تمَّ له حسب

زعمه ـ بأنه يحسّ فيه خطراً على دين المجتمع وحياته ومصالحه!

ألا ما أشدَّ صفاقَةَ ذلك الطاغوت، وما أقلَّ حياءَهُ!!

إذْ لم يكن للمصريين الذين تَفَرْعَنَ عليهم، دينٌ سوى عبادة فرعون: ﴿...أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ﴿...مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى...﴾، هذا بالنسبة لدينهم الذي كان حريصاً على صيانته وحمايته، وأما دنياهم ـ أي حياتهم الدنيوية ـ فلم تكن سوى خدمة فرعون وحاشيته، إذ كانت الإمكانيات البشرية والمادية كلُّها مُسخَّرةً لتحقيق مآربه ومآرب غيره من الفراعنة، ولم يكن بناء الأهرامات ـ التي ربّما تطلَّب بناؤها آلاف الضحايا من العمّال المسخّرين المضروبين بالسِّياط ـ إلّا مأرباً من مآربهم الفرعونية!

وما قاله فرعون موسى، هو منطق كل الطواغيت المُتَفَرعنين على الشعوب والمجتمعات المستضعفة قديماً وحديثاً، إذْ هم في الوقت الذي أَحَلّوا أهواءَهم محلّ الدّين والنظام في المجتمع، وفي حين أياديهِم مُلَطَّخة بدماء أبناء المجتمع البررة، وجيوبُهم وجيوب حواشيهم مملوءة من أموالِهِ المغتصبة منه، يدّعون مع التطبيل والتزمير، بأنهم أخلص الناس لدين مجتمعهم، وأحرصهم على دنياهم ومصالحهم!

العاشرة: الإفساد في الأرض:

والإفساد في الأرض مِيزَةٌ أخرى لأعداء الأنبياء عليهم السلام، إذْ هم يَسْعَوْنَ دَوْماً لَنْشر الفساد وإفساد الناس، كي يسهل عليهم قِيادُهُم، إذْ يستحيلُ أنْ يخضع مجتمع صالِحٌ لحاكم ظالمٍ متجبِّرٍ فاسد، ولكن كما قال الشاعر قديماً:

ومن يَهُنْ يَسْهُلِ الهوان عليه وما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

ولهذا علَّلَ سبحانه رضوخَ قوم فرعون وإطاعتهم له، بقوله:

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف]، أي:

إنَّ فرعون جعل قومَهُ خِفافاً، أو وجدهم خفافاً (جمع خفيف وهو قليل الوزن والشخصية)[1]، ونتيجةً لِذلك أطاعوه، ثم يبيِّن سبحانه سبب صيرورتهم خفافاً، بقولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾، والفاسق هو الخارج عن الدين أو الفطرة أو الحدود، هذا هو معنى الفِسْق في أصل اللغة[2]، ثم استعملت كلمة الفِسق في الشرع للذنوب الكبيرة التي تردُّ شهادة مُرتكبيها، ولهذا ذكر سبحانه كلمة (الفسوق) بين الكفر والعصيان، حيث قال: ﴿. . .وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ. . .﴾ [الحجرات: ٧].

إذاً: معنى قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف]، أي: إنَّه تسلَّط على قومه من جرّاء خِفَّتِهم سُخْفِهم، وسبب خفَّتهم وسخفهم، كان فسقُهم وفجورُهم وفسادُهم!

وهناك آيات كثيرة وُصِفَ فيها أعداءُ الله، وأعداءُ رسله وأنبيائه، بكونهم مفسدين، منها:

١ - ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص].

٢ - ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر].

٣ - ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود].

---

(١) أُنظر: (مفردات ألفاظ القرآن) ص٢٨٩، [﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾، أي: حَمَلَهم أَن يخفُّوا معه، أو وجدهم خِفافاً في أبدانهم وعزائمهم. . .].

(٢) المعجم الوسيط، ص٦٨٨، ٦٨٩.

الحادية عشر: السَّعي لِتَفْتيت المجتمع، وفكّ تماسكه:

وهذا وصفٌ وموقف آخر، من الأوصاف والمواقف التي نتعرَّف من خلالها على أعداء الرسل والأنبياء ودين الله الحق، حيث يسعون دَوْماً لتقطيع أوصال المجتمع وتفتيته وتفكيكه، وذلك بغية تسهيل استذلاله واستضعافه واستغلاله، كما قال تعالى عن فرعون الذي هو رَمْزُ كل الطواغيت والظلمة والمستكبرين:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص].

حيث يَصِفُ الله العزيز الحكيم فرعون الطاغية بـ:

أولاً: عُلوّه في الأرض وتجبّره على الناس، وتسلُّطه عليهم، رغماً عن أنفسهم ومن غير مشورتهم ورضاهم، إذ هذه المفاهيم يشملها معنى كلمة (العُلوّ)(١) في هذا السياق: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

ثانياً: جعله المجتمع طوائف وفئات متناحرة: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، وذلك أنَّ كلمة (شيع) جمع (شيعة) وهي في أصل اللغة تعني: مجموعة أو جماعة من الناس، تشايع شخصاً أو مبدءاً مُعيناً وتؤيِّده وتناصره(٢)، وعندما يتوزّع مجتمع ما على مجموعة من شيع متعارضة متنافرة، بسبب تأييد ومُشايعة كل منها لِجهة معيَّنة، فقد صار ذلك المجتمع من جرّاء ذلك مُفكَّكة الأوصال، ومُنْفَصِمَة الروابط، ومقطَّعة الوشائج.

ثالثاً: إضطهاده لبعضٍ من المجتمع وإذْلاله لهم: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾، والمقصود بهم في الآية هم (بنو إسرائيل) الذين كانوا مواطنين مصريين منذ سنين طويلة في ذلك الحين.

رابعاً: قتله أولادهم الذكور وإبقائه على الإناث: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ

(١) المعجم الوسيط، ص٦٢٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٠٣، ٥٠٤.

﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾، وهذا توضيح لكيفية استضعافه واضطهاده للطائفة المذكورة.

ومن الواضح أن ذبح أبناء المجتمع وتقتيلهم من قِبَلِ الطواغيت، ليس بالضرورة أن يتم في كل عصر على الشكل الفرعوني القديم، بل قد يتخذ صوراً شتى، فمثلاً: قيام أَحدُ الطواغيت بالزجِّ بأبناء المجتمع في حرب أو حروب لا داعي لها، سوى تحقيق رغباتِهِ الطاغوتية، ولا تعود على المجتمع إلّا بالخسار والبوار، أو الزجِّ بهم في السجون، أو نَصْبِ المشانق لهم، بناءً على تخوّفات وهمية على كرسيّه وحكمه الإرهابِّي المهزوز، أو طَرْدِهم وقتلهم، لِمجرّد مخالفتهم لدينه الطاغوتي ونظامه الجاهلي، وقوانينه التعسّفية، هذه كُلُّها صورٌ جديدة لكيفية تنفيذ تلك السياسة الفرعونية القديمة! وأما الإبقاء على البنات، فالغَرَضُ منه معروف، ومعلوم للمُطِّلِع على تأريخ الطواغيت وحواشيهم الغارقة في الإثم والمنغمسة في الفساد والفجور.

والتعبير القرآني ﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ أي يُبقيهِنَّ أحياء، أصدق تعبير وأَدقُّه، لكيفية تعامل الطواغيت مع الجنْس اللطيف، إذ هم يريدون النّساءَ مجرَّد ذوات حياة، من دون شعور وإحساس بالكرامة الإنسانية.

خامساً: وفي الختام يَصِفُ كتابُ الله الحكيم، فرعونَ بِوَصْفٍ يجمع في نَفْسه كلَّ الشرور: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

الثانية عشر: الجدال بالباطل، بدل الإحتكام للعقل والبرهان:

وهذه سِمَةٌ أخرى من سمات أعداء الرسل والأنبياء عليهم السلام، وذلك لأنَّ الباطل إذا ما وُزِنَ بميزان العقل والمنطق، فَضَحَ أصحابَه وأخزاهم، خصوصاً إذا قورن بالحق وقوبلَ بينهما، كما قال تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإسراء].

ومن الآيات التي وُصِفَ فيها أعداءُ الرسل والأنبياء بالجدال بالباطل، قوله تعالى:

١ ـ ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ [غافر].

٢ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ۝٣٥﴾ [غافر].

وهذا ـ أي: الآية (٣٥) من (غافر) ـ قولُ الرجل المؤمن الذي دافع ونافح عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ كما ذكرنا من قبل ـ وقصد به فرعون الطاغية وزمرته الخاسرة.

٣ ـ ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ۝٥٦﴾ [الكهف].

وهذان مثالان من الجدال بالباطل لأهل الكفر المعادين لدين الله الحق ورسله الكرام عَلَيْهِمُ السَّلَامُ:

المثال الأول: جدال (نمرود) مع إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ حول ربوبية الله تعالى:

كما قال تعالى:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة].

اذْ هنا وعندما يستدلُّ خليلُ الله ﷺ على ربوبية الله للناس ـ وبالنتيجة ألوهيته وولايته وحاكميته لهم ـ بأنه هو الذي يَهَبُ الحياةَ للناس، فيُحْيي مَن أراد منهم المدَّة التي يريد، وكذلك هو الذي يَسْلُبُ الحياةَ لمن أراد منهم، فمتى شاءَ يُميتُهم، وهذه حقيقة جَلِيَّةٌ لا يمكن إنكارها، ولكنَّ ذلك

الطاغوت المدَّعي للربوبية، يُسَفْسِطُ[1] ويَدَّعي أنه هو الذي يقوم بالإحياء والإماتة، فهو الربّ، إذن، أو على الأقل هو أيضاً له حَظٌّ في الربوبية!

ويُقال بأن ذلك الخبيث، إثباتاً لِدعواه، جاء بِشخصٍ بريءٍ فَقَتَله، وأطلق سَراحَ رَجلٍ يستحق القتل، موهِماً أنّ ما قام به هو فِعْلاً الإماتة والإحياء! ومن البيِّن أن فِعْلَه ذلك، ليس من الإحياء والإماتة في شيء، بدليل أنّه في وسع كثير من الناس أن يفعلوه، وليسَ هو مُختصّاً به!

ولكن اختصاراً للطريق، ودَفْعاً للتوهُّمات في أذهان البُسطاء، انتقل إبراهيمُ إلى برهانٍ آخر أوضح، وتحدّاه أن يأتي بالشمس ولو مرةً واحدة من جهة المغرب، كما أن الله تعالى يأتي بها يومياً من جهة المشرق! وأمام هذا البرهان العظيم الجليّ، لم يبق للطاغوت سوى الحيرة والبهت والسكوت!

المثال الثاني: جِدال فرعون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضاً، حول ربوبية الله العلي العظيم:

كما قال تعالى:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء].

وهنا عندما يَسْأل فرعونُ كليمَ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن يُعرِّفَ به رَبَّ العالمين جلَّ وعلا، يجيبه موسى بأنه هو: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾ والظاهر أن المقصود باليقين هنا هو العلم المُنْتِجُ لليقين، أي: إن كنتم من أهل العلم والمعرفة حقاً، تعلمون بأن الله تعالى هو وحده رب ومالك ومُدبِّر هذا الوجود.

---

(١) سَفْسَطَ: غالَطَ وأتى بحكمةٍ مُضَلِّلَة. السَّفسطة: قياسٌ مركَّبٌ من الوَهْميّات والغَرَضُ منه إِفحامُ الخَصْمِ وإسكاتُهُ (من اليونانية). المعجم الوسيط. ص٤٣٣.

وأمام هذه الحجّة النَّيِّرة، يلجأ فرعون للهروب من الجواب، وهذا أحد أساليب الجدال المُلْتوية، ثم لكي يُخْفي هروبَهُ، يَلْتفِتُ إلى حاشيته الملتفّين حوله قائلاً: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ ومقصوده من هذا الكلام هو تَعْجيبهم من كلام موسى ﷺ، وكأن موسى تفوَّه بكلام غير مُسْتساغ أصلاً، وهذا التصرّف من عدو الله فرعون، أسلوبٌ آخر من أساليب الجدال بالباطل.

ثم ينتقل موسى ﷺ معه، إلى حجة أَلْصَق بهم، فيقول: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: إن ربّي الذي أرسلني إليكم رسولاً، هو ربكم جميعاً، وكذلك هو رب آبائكم السابقين لكم، وكون الناس مربوبين حقيقة لا تُنكر، ولا بدّ للمربوبين من ربّ، ولا بُدّ للمخلوقين من خالقٍ.

ولكن هنا أيضاً يهرب فرعون من الإجابة على البرهان الثاني لموسى ﷺ، مُسْتَعْملاً هذه المرَّة أسلوبَ الإتّهام، حيث يتهم موسى بالجنون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم يقيم موسى ﷺ بُرهاناً آخر أجلى من بعض الجهات من البرهانين السابقين، وهو الإستدلال بتصرّف الله تعالى اليومي في العالم، وتدبيره المُستمرّ له بإِحْداث الليل والنّهار، من جرّاء حركة الأرض والشمس والقمر: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾، أي: إن كنتم مِن الذين يستعملون عقولَهم بصورةٍ سليمة، فتدبير الله المستمر لهذا العالم الواقع بين جهتي المشرق والمغرب، كافٍ برهاناً على ربوبيَّته المطلقة لكل شيء.

وقد شدَّد كليمُ الله الكريم ﷺ، لَهْجَتَهُ هذه المرَّة أكثر من السابق، حيث لَمَّح إلى عدم تعقُّلهم، وذلك لأن فرعون أمام تلك البراهين الواضحة، لم يَزِدْ إلّا تكبّراً وعِناداً وسفاهةً.

وفي ختام هذه المواجهة الكلامية التي هي حوارٌ من طرف موسى، وجدالٌ بالباطل من طرف فرعون، يرمي فرعون بآخر سهم في جُعْبتِهِ وهو:

لجوؤهُ إلى (منطق القوة) وتهديدِ موسى ﷺ بالسِّجن، وذلك بعد أن انهزم خاسئاً أمام (قوّة المنطق): ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ

ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ وإنّما قال فرعون: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ بدل أن يقول: «لأسجننك» كي يعلم موسى عليه السلام وغيرُ موسى، بأنّ فرعون سَجَنَ آخرين كثيرين غيره!

ونكتفي لإيضاح مفهوم الجدال بالباطل الذي هو دَيْدَنُ أعداءِ رسل الله وأنبيائه عليهم السلام، بهذين المثالين، لِذَينك الطاغوتين، مع خليل الله وكليمه عليهما الصلاة والسَّلام.

الثالثة عشر: جَعْلُ بشريَّةِ الرُّسُل والأنبياء، أَعْظَمَ إشكالٍ في طريق الإيمان بهم:

ومن أوصاف أعداء الرسل والأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسَّلام، أنَّهم جعلوا كونَهم بشراً كسائر الناس، إشكالاً عظيماً وعقبةً كَأْداءَ في طريق إيمانهم بِهم، أو على الأقل كان رؤساء وطواغيت أهل الكفر، هكذا يُوهِمُون الناس!

ونحن نوضِّح هذا الموضوع في ثلاث نقاط، هذه عناوينها:

١ ـ بعض الآيات التي تُبيِّنُ، أنَّ أعداءَ الأنبياء يعتبرون بشريَّتهم إشكالاً حول نبوَّتهم.

٢ ـ ردّ كُلام الله الحكيم على إشكالهم المزعوم هذا.

٣ ـ سبب جعل الكفار بشرية الأنبياء، إشكالاً في طريق إيمانهم بهم.

ونبدأ بإذن الله بالنقطة الأولى:

١) بعض الآيات التي تُبيِّنُ أنّ أعداءَ الأنبياء، يَعُدُّون بشريَّتهم إشكالاً حول نبوَّتهم:

قال الله تبارك وتعالى:

١ ـ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ

﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى
ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾﴾ [التغابن].

٢ ـ ﴿۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ
لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ
مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ قَالَتۡ
لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ
وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
﴿١١﴾﴾ [إبراهيم].

٣ ـ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا
رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء].

٤ ـ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ
أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون].

٥ ـ ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ
﴿٨﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴿٩﴾﴾
[الأنعام].

٦ ـ ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ
إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان].

٧ ـ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن
كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ
﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنبياء].

٨ ـ ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ

ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف].

كما نرى: عَدَّ أعداءُ الرّسلِ والأنبياء عليهم السلام، بشريَّتهم إشكالاً عظيماً وعقبة كؤوداً في سبيل الإيمان بهم، لِذا يتساءلون مُنكرِين مستَغْرِبين:

﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟!

﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟!

ويقولون للرسل الكرام:

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾

ويطالبون بأن يُنْزِلَ الله عليهم ملائكةً بدل البشر، أو على الأقل مع الرسول البشريِّ، مَلَكاً يُرافِقُه ويشهَدُ لَهُ.

ولكن لنَنْظُرْ كيف ردَّ كتاب الله العزيز، على أصل استشكالهم بشرية الأنبياء أولاً، ثم على مُقْتَرحاتهم التي اقترحوها على الله تعالى!

٢) ردُّ كلام الله الحكيم على إشكالهم المزعوم هذا:

لقد ردَّ كتابُ الله المبين على الإشكال المذكور، الذي ليس في الحقيقة سوى ذريعةٍ للتَهرُّبِ من الإيمان بالرسل والأنبياء عليهم السلام، ومن ثم التَخَلِّي والتنازل عن كل تلك الإمتيازات التي لم يُوَفِّرْها لهم، إلّا ادِّعاء الربوبية والألوهية على الناس، والتجبّر والتفرعن عليهم! ـ وهذا هو أصعب الأشياء عليهم ـ، أجل ردَّ القرآنُ على الإشكال المزعوم المذكور، بردودٍ مُفْحِمَةٍ، منها:

١ ـ بما أن الملائكة ليسوا سُكّان الأرض، لِذا لا يمكن أنْ يُسْنِدَ الله

الحكيم إليهم، وظيفةً لا تَنْسَجِم مع طبيعتهم الملكية: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء].

٢ ـ ومن سنن الله تعالى أَلَّا ينزِّل الملائكة في غير الوظائف الموكولة إليهم، إلّا بالعذاب والهلاك: ﴿...وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام].

٣ ـ ثم بما أن البشر لا يَتَمكَّنون من رؤية الملائكة على صورتهم التي هم عليها، لِذا: فحتى لو أن الله تعالى أنزل مَلَكاً، لَصَيَّرهُ على هيئة رَجُلٍ، كي يتسنّى لهم إبصارُهُ، وعند ذلك كان يختلط عليهم الأمر، وَلَماً كانوا يصدِّقون ذلك المَلَك المتمثِّل بصورة بشرٍ، أنَّه مَلَكٌ!: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام]، و(لَبَسَ يَلْبِسُ) أي: خَلَط يَخْلُطْ، ولكن (لَبِسَ يَلْبَسُ) فهو لِلُبْسِ الثَّوب.

هذا بالنِّسبة لعدم إمكانية كون الرسل والأنبياء عليهم السلام من الملائكة، حسب سنن الله الحكيمة في خَلْقِهِ.

وأما بالنِّسبة لحكمةِ كونهم بَشَراً:

٤ ـ بما أن الحكمة من إرسال الله الحكيم جلَّ وعلا رُسُلَه وأنبياءه الكرام عليهم السلام إلى الناس، هي هدايتهم إيّاهم إلى دين الله الحق الذي يسلك بهم أفراداً ومجموعات، طريق العبادة الشاملة الكاملة لله تعالى، كان لازماً طبقاً لحكمة الله تعالى، أن يكون أولئك الهداة المرشدون الحاملون لرسالات الله، والسّفراء بين الله تعالى وعباده من البشر، بشراً مثلهم، وذلك كي يتمكّن الجانبان ـ أي الرسل والمُرْسَلُ إليهم ـ من التفاهم، بَلْ لو كان الرسل والأنبياء عليهم السلام من غيْر البشر، لكان للكفّار بَلْ للنّاس كلِّهم، عُذْرٌ في عدم الإهتداء بهديهم والإقتداءِ بِهم، قال سبحانه وتعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ

﴿لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨﴾ [الأنبياء].

٥ ـ وتأسيساً على ما مرَّ ذكره، فقد عَدَّ ربُّ العِزّة سبحانه تَذَرُّعَ فِرْعون في عدم إيمانه بموسى عليه السلام، بأنه لم يُلْبَسْ من الله تعالى أَسْوِرةً من ذهب، وكذلك لَمْ تَأْتِ معه ملائكة مقترنين، أجل عَدَّ الله تعالى هذا التذرُّع من فرعون، ثم تمريره إيّاه على قومِهِ: استخفافاً منه إيّاهم، أي جعله إياهم خفافاً أو وجدانه إياهم خفافاً، كما قال تعالى بعد أن حكى تذرُّعَ فرعون المذكور في الآيات (٥١، ٥٢، ٥٣) من (الزخرف):

﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف].

وننتقل الآن إلى النقطة الثالثة والأخيرة من هذه الفقرة:

٣) سَبَبُ جعل الكفّار بشرية الرسل والأنبياء عليهم السلام، إشكالاً في طريق إيمانهم بهم:

أرى أنَّ سبب موقف الكفّار هذا، يتلخَّصُ في أَمْرَيْن:

أولاً: إحتقارُهم للإنسان، وعدم إدراكهم لِمكانته الرفيعة عند الله تعالى، مِنْ جرّاء نَظْرتهم المادّية الحيوانية تجاه الحياة والإنسان:

أجل إنّ النظرة المادية الحيوانية للإنسان، وحياته الأرضية ـ والتي هي القاسم المُشترك بين المذاهب الكفرية جميعاً، قديمها وحديثها ـ هي الخَلْفِيَّة الفكرية الأساسية التي تقف وراء عدم اعتقادهم، بكون الرسل والأنبياء مرتبطين بالله تعالى، يتلقَّون منه الوحيَ وكلامَه المبارك!

ومفهومٌ أنَّ مَن عاش كحيوانٍ، وانحصرتْ إهتماماته في دائرة جِسْمه، وما فيه من غرائز وشهواتٍ، يشتركُ معه فيها الحيوان، فهوَ بِمَعْزِلٍ عن العقل المنوَّر بِنور الوحي، والقلب المطمئن بذكر الله، نعم إنَّ إنساناً كهذا

طبيعي جداً أن يفكِّر كحيوان، ثم أنْ يقيس غيرَه ولو كان نبياً مُرْسلاً، على نفسه السافِلة ومستواه الهابِط!

ولهذا ردَّ الرسل الكرام عليهم السلام بصوتٍ واحدٍ، على هذا التصوّر المعوج، وهذه النظرة الهابطة للإنسان، بقولهم في جواب الكفار كلِّهم:
﴿...إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ...﴾ [إبراهيم: ١١].

فالرسل الكرام عليهم السلام، لم يُنْكِروا يَوْماً: أنَّهم بَشَرٌ كسائر الناس، بل كلُّهم أكَّدوا وأَوضحوا هذه الحقيقة لأقوامهم، ولكنَّ البَشَرَ في منظار الأنبياء، والذي هو المنظار الصَّحيح الوحيد، ليسوا بِتلك المخلوقات الدَّنِيَّة التي يتصوَّرُها أعداءُ الرسل والأنبياء! بل هم مخلوقات كرامٌ عنده في أصل خلقتهم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء]، وإذا أَنْعَم الله الكريم، ومَنَّ على بعضٍ منهم بالوحي والرسالة، فهم يرتفعون ويرفعهم الله إلى المستوى الذي يتلقّون فيه كلامَ الله ووحْيَهُ المبارك.

ثانياً: خِداعُ الناس وإيهامُهم، بأنَّ هؤلاء الأنبياء طالما ليسوا ملائكة، فهم طُلاّبُ الدنيا وأصحاب أغراضٍ سياسية ومصالح شخصية! وكل ذلك بغرض الحيلولة بينهم وبين دعوة الأنبياء التوحيدية التحريرية:

أَجَلْ لا شك أنّ بعضاً من الطواغيت ورؤساء أهل الكفر المُعادين للأنبياء، إنْ لم يكن جُلُّهم، كانوا يعرفون حقانِيَّةَ الأنبياء وصِدْقَهم وأنهم مُرْسلون من الله تعالى، ولكن كانوا يتذرَّعون بِتلك الذّريعة، كي يوهِموا الناسَ بأنهم ناصحون لهم، وحريصون على صيانة دينهم ودنياهم، لِذا يعادون أولئك الذين جاؤوهم بتلك الدعوة الجديدة والدين الغريب، ولا يَدَعُونهم يُغيِّرون دِينَهم ويُفسِدون دنياهم!

كما قال المستكبرون من قوم (نوح) عليه السلام، مخاطبين قومهم:
﴿...فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ

عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون]، وكذلك قال فرعون: ﴿... وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر].

وهذه التُّهَمُ التي رمى الطواغيت بها أنبياءَ الله الكرام عليهم السلام، الذين لم يكن لهم هَمٌّ في الدنيا - فيما يتعلَّق بالناس - إلّا تعبيدَهم لربِّهم لكي يَعَزُّوا[1] ويَسْعَدوا في دنياهم، ويُفْلِحوا ويفوزوا في أُخراهم، هي هي نفسها التي يريد الحكّام المستكبرون المتفرعْنون المعاصرون إلْصاقَها بالإتجاه الإسلامي، وعلمائه ودعاته وحَمَلَة رايته، كي يُشَوِّهُوا سُمْعَتَهُم في أنظار الناس، ويُسْقِطوهم مِنْ أعينهم.

ولكن لا تنطلي هذه الحيل والألاعيب الإبليسية، إلّا على السُذَّج والمُغَفَّلين ومطموسي البصيرة.

الرابعة عشر: أعداء الرسل والأنبياء مَهَرة وبارعون في الحيل والألاعيب، بدليل أنهم تمكَّنوا على طول خطِّ التاريخ البشري من تجنيد الجماهير المضطهدة، ضِدَّ أولئك الكرام الذين جاؤوا أساساً لإنقاذهم وإسعادهم:

وهذه قولة مُرَّةٌ بلا شك، ولكنَّ مِصْداقَها في التاريخ البشري واضِحٌ وضوح الشمس، حيث نرى الطواغيت المُتَرَئِّسين لجبهة مُعاداة الأنبياء، مُحاطين دَوماً بأغلبية جماهيرية، وليس ذلك إلّا بمهارتهم في استعمال الحِيَلِ والألاعيب الشيطانية لِخداع الناس، الناس المستضعفين والمضطَهَدِين الذين أرسل الله الرحمٰن الحكيمَ جلّ وعزّ، رسلَه وأنبياءَه لاستنقاذهم من أنياب أولئك الذئاب، وتحريرهم من القيود والسّلاسل الفكرية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية التي قيّدوهم وكبَّلوهم بها، إذاً:

(١) عَزَّ يَعَزُّ عِزّاً فهو عزيز: صار عزيزاً جمعه: أَعِزّة، وعَزَّ يعِزُّ عزازةً قَوِيَ واشتدَّ، وتَعَزَّز: تَقوّى، وعَزَّزْتُه: قوَّيتُهُ. المصباح المنير، ص٢١١.

أَوَ ليس ماهراً وبارعاً في الحيلة والخِداع، ذلك الذي يُقْنِعُ المَرْضى: أنْ يَهْرُبوا من طبيبهم المشفق الذي يريد معالَجَتَهُم، أو يُقْنِعَ الأسرى المكبَّلين، بأن يثوروا ضِدَّ مَنْ جاءَ لتحريرهم وكسر قيودهم؟!

قال سبحانه وتعالى في معرض الحديث عن موسى عليه السلام، وفرعون الطاغية، مبيِّناً إحدى سننه الحكيمة في حياة البشرية:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ [القصص].

وقال تعالى مبيِّناً الأهداف الكبرى التي أرسل لتحقيقها رسوله الأعظم ونبيه الأمي الخاتم ﷺ.

﴿...ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ...﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى مبيِّناً الهدف الأكبر الذي أرسَلَ جميع رسله لِتَحْقيقه:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ...﴾ [الحديد: ٢٥].

أَجَلْ إن الله تعالى إنّما أرسل رسُلَه وأنبياءَه عليهم السلام، لإنقاذ المستضعفين والمضطهدين، وتحريرهم من سجون الطواغيت وأنيارهم[(١)] وقيودهم وأغلالهم، لإقامة القسط بمفهومه الشامل لجميع جوانب الحياة، ولهذا فمن الطبيعي المتوقَّع أن يُعاديهم الطواغيت المُسْتَعْبِدون المُسْتَغِلُّون للجماهير، لأن دعوة الأنبياء التوحيدية التحريرية الهادفة لإقامة القسط، خطر وأيُّ خطر على الطواغيت وكياناتهم اللاّشرعية المَبْنيَّة على الظلم والزور المُتَجَسِّدَيْنِ في

(١) أنيار جمع (نير) وهو خشبة توضع على عنق الثَّور، أو الثورين المقرونين، ويُرْبَطُ بها المحراث لِيَجُرَّهُ الثورُ أو الثوران، وتُحْرَثَ به الأرضُ، المعجم الوسيط، ص ٩٦٦.

ادِّعاء الربوبية والألوهية على الناس، وبما أن الطواغيت لا يمكنهم الوقوف بوحدهم أمام دعوة الأنبياء المباركة، لِذا بَذَلوا قُصارى جهودهم في لَفِّ الجماهير حولهم، مُسْتخْدِمين لتحقيق هذا الغَرَض، كلَّ الحِيَل والألاعيب التي توسوس بها إليهم الشياطينُ، وتَتَفتّقُ عنها أذهانُهم، وقد أحْرَزوا نجاحاً كبيراً على طول خطّ التاريخ البشري مع الأسف.

وأودّ أن نختم هذا الموضوع بسؤالٍ وجوابه:

سؤال: هل كون الجماهير التابعة للطواغيت، مخدوعةً بحيل الطواغيت وألاعيبهم الإبليسية، يُعْفِيهم من المسؤولية الدنيوية والأخروية، أم لا؟!

والجواب: لا، بالتأكيد، وإليك الشرحَ والتوضيح باختصار في هذه البنود الخمسة الآتية:

١) بيَّن الله الحكيم جلَّ شأنه في أكثر من آية في كتابه المبين، أن كلَّ إنسان يتحمَّل مسؤولية أفعاله وأقواله وتصرّفاته ومواقفه وتَبِعَتَها، سَلْباً أو إيجاباً، بصفة فردية شخصية، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر].

٢ ـ ﴿...وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور].

٣ ـ ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء].

٤ ـ ﴿...وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ...﴾ [الإسراء: ١٥].

٥ ـ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم].

٢) وكذلك بيَّن الله تعالى في أكثر من موضع في كتابه الحكيم، أنَّ الأَتْباعَ المستضعفين، والمتبوعين المستكبرين، سيجتمعون في جهنّم،

بل أعلن العزيزُ الحكيم، أن التابعين للطواغيت، سواء كانوا مخدوعين أو مأجورين، سَيُضاعَفُ لهم العذابُ، كَما يضاعف لرؤسائهم في حزب الشيطان الرجيم، كما قال تعالى:

﴿...وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف].

والمقصود بـ(أُولاهم): المتبوعون الرؤساء، وبـ(أُخراهم) التابعون.

وسبب مضاعفة عذاب الرؤساء الطواغيت، معلوم، إذْ هم ضلّوا في أنفسهم وأضلُّوا غيرهم.

وأما سبب مضاعفة عذاب التابعين المُضْطَهَدين المحرومين في الدنيا والآخرة، والبائعين دِينَهم لِدُنيا غيرهم! فهو كفرهم في ذاتهم وإعانتهم للطواغيت المستكبرين، إذْ لولاهم لما كان بوسع الطواغيت، الإستكبارُ والتفرعُنُ على الناس، وادِّعاءُ الربوبية والألوهية عليهم.

هذا وإنَّ في قصة انحراف بني إسرائيل بِعبادتهم للعجل الذهبي الذي صاغه لهم (السّامريّ)، لَعِبْرَةً عظيمة في هذا المجال، كما جاء في الآيات (٨٥ إلى ٩٨) من (طه).

وذلك لأنّ موسى عليه السلام بعد أن أخبرَهُ الله تعالى، بما جرى لقومه من عبادتهم العجل، ورجع إليهم غَضْبانَ مُغْتاظاً، فهو قبل أن يبدأ بمساءَلة أخيه هارون عليه السلام، الذي استخلفه عليهم، ومحاسبة (السّامريّ) صانع العجل، واجَهَ الجماهيرَ المخدوعة نَفْسَها، كما قال تعالى:

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾ [طه].

ثم بعد ذلك انتقل إلى مُساءلة (هارون) عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه].

ثم في المرحلة الأخيرة انتقل إلى محاسبة ثم معاقبة (السّامريّ):

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ [طه].

وبناءً عليه:

فالناس (الجماهير) هم أول من تَقَعُ عليه مسؤولية أخطائِه وانحرافاته، والَّتي مُعْظَمها هو اتِّباعُ الطواغيت ورؤساء الكفر والضّلال.

٣) وقد أعلن سبحانه وتعالى في كتابه المُبين، أن الرؤساء وأئمة الكفر، لا يَحْمِلون عن أتباعهم المأجورين أو المخدوعين، شيئاً من خطاياهم، كما قال:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت].

وبَيّنٌ أن الأثقالَ التي يحملُها أئمةُ الكفر مع أثقالهم، هي عقوبة إضافية بسبب إغوائهم لأَتباعهم، ولكن هذا لا يعني أنَّ أتباعهم تخلَّصوا من أوزارهم، بَلْ هي باقية على حالها، وقد بيَّن ذلك رسولُ الله ﷺ حيث قال:

«... **وَمَنْ سَنَّ فِى الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيءٌ**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٠١٧).

٤) وكذلك بيَّن لنا سبحانه وتعالى من خلال عرضه المشاهد يوم القيامة، كيف أن الأتباع المستضعفين، يستنجدون برؤسائهم المتبوعين ويطلبون منهم أن ينفعوهم ولو بشيء قليل، في ذلك اليوم الرَّهيب،

ويستدلّون لاستحقاقهم ذلك عليهم، بأنّهم كانوا لهم في الدنيا أتباعاً ومُقلِّدين! ولكن الأئمة المستكبرين وفي مقدِّمتهم إبليس اللّعين يجيبونهم بِجوابٍ مُوجَزٍ موئِس، بل ويعلنون براءتهم عنهم وعن إتّباعهم وتقليدهم الأعمى لهم، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم].

أَجَلْ فالفائدة الوحيدة التي بإمكان المستكبرين، أن يُتْحِفوا بها أَتْباعَهم يومَ القيامة، هي إِخبارُهم إياهم عن نتيجة تجربتهم مع عذاب الله، والذي لا يُفِيدُ الإنسانَ معه، جَزَعٌ ولا صبرٌ!!

٢ ـ ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر].

٣ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة].

وهكذا لا يبقى أمام الأَتْباع المخدوعين أو المأجورين، حَلٌّ بعد أن يتبرّأ منهم أئمة الكفر والطواغيت، سوى تمنِّي الرجوع إلى الدنيا واستبدال الأدوار مع الرؤساء الطواغيت، وهذا التمنِّي بلا شك هو أَعْجَبُ التمنيات وأبعدها عن التحقيق!

٤ ـ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ

فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم].

كما نرى: إبليسُ أيضاً يتبرّأ عن حزبه الخاسر كُلِّه: متبوعين وأتباعاً، رؤوساً وأذناباً، ويتخلَّى عنهم في أصعب الظروف، ثم لا يكتفي بالتبرّؤ والتخلِّي عن أهل الكفر المعادين للأنبياء، حتى يُضيفَ إليه التوبيخَ والتبكيت، بل الشَّماتة والتيئيس! وهل غير هذا يتوقع من ذلك الخبيث الخسيس!!

٥) ونختم هذا الموضوع الذي أطَلْنا فيه شيئاً من النَّفَسِ، بهذه الآية المباركة:

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص].

الآية الكريمة تتحدَّث عن التقاطِ آل فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعد أن أَلْقَتْ به أُمُّهُ ـ بعد أن جعلته في صندوق ـ في نهر النِّيل، بإلهام من الله تعالى، وذلك خوفاً من قرار فرعون الظالم القاضي: بِذَبْحِ الأولادَ الذكور من بني إسرائيل، والشاهد هنا في الآية، هو قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص]، حيث يَحْسِبُ العزيزُ الحكيمُ حساباً واحداً لكلّ من:

١ ـ فرعون الرئيس.

٢ ـ هامان الوزير.

٣ ـ وجنودهما المخدوعين أو المأجورين.

وعليه:

فكل الذين يُعينون الطواغيتَ المعادين لله وأنبيائه الكرام ودينه الحق، ويمشون في ركابِهم وينخرطون في سِلْكهم، يشتركون في حكمهم الدنيوي

والأخروي من حيث الشَّرعُ، ومصيرهم المشؤوم وعاقبتهم الوخيمة، من حيث الواقع.

وهنا نُنْهي الحديث عن أوصاف ومواقف أعداءِ الرُّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام، وهم أهل الكفر بأصنافهم الخمسة: (المنافقين، المرتدِّين، المشركين، الملحدين، أهل الكتاب) بقيادة الحكام والرؤساء المستكبرين الرافضين لدين الله وحكمه.

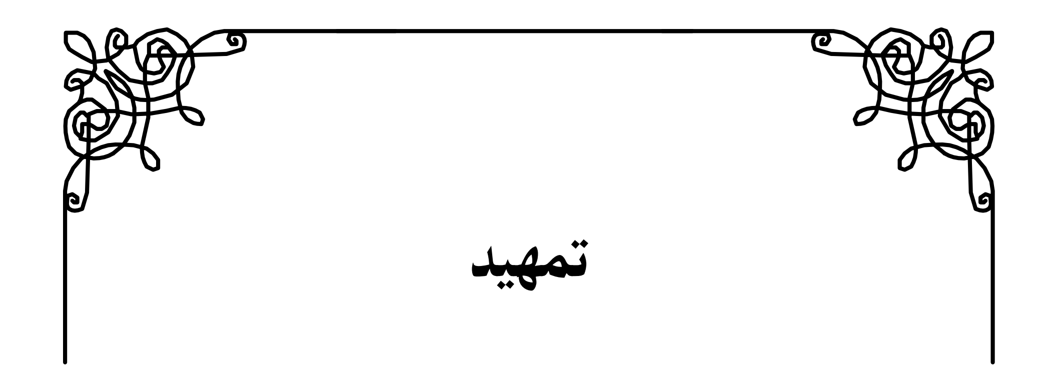
وبهذا نختم هذا الفصل التاسع، وننتقل بإذن الله وتوفيقه إلى الفصل العاشر من هذا الكتاب، والذي خصَّصناهُ للحديث عن الوحي وكيفيَّته، إذْ إيحاءُ الله تعالى إلى أَنبيائه عليهم السلام، هو الحَدَثُ الأَبْرزُ والأهمُّ في حياتهم، وهو الفيصل الذي يَفْصِلُهُم عن غيرهم، والإمتياز الذي يمتازون به بين البشر.





الفصل العاشر

بحث حول الوحي



تمهيد

تتميماً وتتويجاً لحديثنا عن الأنبياء والمرسلين، يَلْزَمُنا الحديث عن الحدث الأبرز الذي يُشكِّلُ مُنْعَطفاً في حياتهم وهو: إِيحاءُ الله تعالى إليهم، ثم بما أَنّنا خَصَّصْنا الكتاب السابع من هذه الموسوعة بالبحث عن خاتم النبيين (محمَّد) ﷺ، كذلك من الضروري أن نمهِّد لذلك الموضوع المهم، بحديث مُفَصَّلٍ عن الوحي، وذلك لأنَّ الحدث الأهمَّ والأعظم في حياة (محمّد) خاتمِ النبييّن وسيِّد المرسلين ﷺ، ـ مثله في ذلك مثل جميع الأنبياء ـ والذي يعتبر المنعطف الذي بدأ منه تَغَيُّر حياته من حياة (محمّد بن عبدالله) العادية الشبيهة بحياة قومه، والتي كان يسير فيها بهدىً من عقله وفطرته، ومتأثراً بالبيئة التي يعيش فيها(١)، إلى حياة (محمّد رسول الله) العظيمة التي كان يسير فيها في ضوءِ نور الوحي، والتوجيه الربّاني، نعم، الحَدَثُ الأهمُّ والأعظم في حياة (محمد) خاتم النبيِّن وسيِّد المرسلين، هو: نزولُ الوحي عليه، والذي كان بَدْأُه في ليلة (٢١) من (شهر رمضان) من العام (٤١) من عمره المبارك.

ثم إن إنزال الله الرحمٰن الرحيم جلّ وعلا، الوحيَ إلى سائر الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، كذلك يعتبر الحدث الأهم والأعظم في حياتهم،

---

(١) وبما أنه كان تأثير عقله السَّليم وفطرته النقيَّة عليه أقوى، كان بعيداً عن عبادة الأصنام وعن الأخلاق والتصرفات غير اللاّئقة.

والمنعطف الذي بَدَأَ فيه التحوُّل في حياتهم، من حياة[1] شبيهة بحياة الناس عموماً، إلى حياة خاصة، يهتدون فيها بهدى الله المبارك.

لِذا رأيت من الضروري أن نتحدَّث عن ظاهرة الوحي، وكيفية إيحاء الله الحكيم إلى أنبيائه عموماً، وإلى نبيه الخاتم خصوصاً، عليه وعليهم أفضلُ الصلوات وأتمُّ التسليمات وأكمل البركات، كي تكون منذ البداية صورةُ كيفية ارتباطِ النبيِّ الخاتم المصطفى ﷺ بالله تعالى، من خلال الوحي، واضحة في أذهاننا.

وسَنتحدَّث عن الوحي في المباحث الأربعة الآتية:

١) تعريف الوحي.

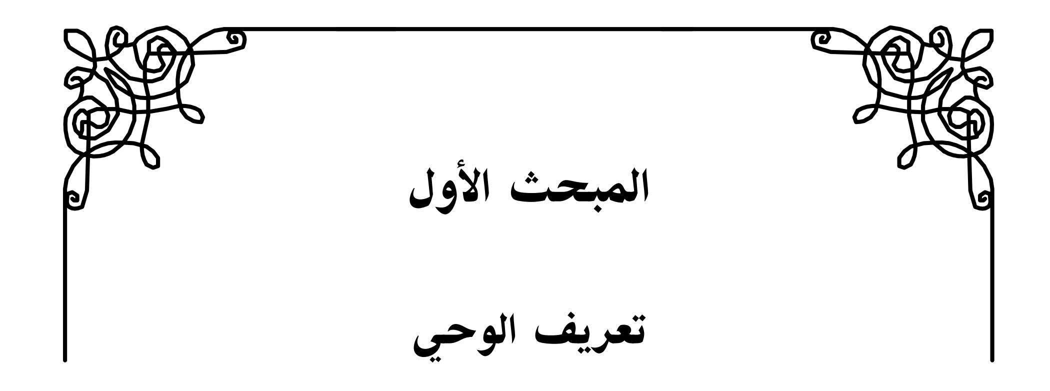
٢) طرق مجيء الوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام.

٣) كيفية نزول الوحي إلى النبيِّ الخاتم والرسول الأعظم ﷺ.

٤) رؤية الملائكة، والرؤيا، والإلهام، بين الأنبياء عليهم السلام وغيرهم من الصالحين.

❁ ❁ ❁

(١) لا شك أن الأَنبياء عليهم السلام كانوا متمايزين حتى قبل النبوَّة، عمَّن حولهم في نواحٍ كثيرة، ولكن كانت حياتُهم من حيث المعيشة والعلاقات الإجتماعية، شبيهة بحياة بقيَّة أفراد مجتمعاتهم.



المبحث الأول

تعريف الوحي

ولمعرفة معنى الوحي في ضوء نور كتاب الله الحكيم، لنتأمل هذه الآيات:

١ - ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا...﴾ [النحل].

٢ - ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص].

٣ - ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم].

٤ - ﴿...شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا...﴾ [الأنعام: ١١٢].

٥ - ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ...﴾ [الأنفال: ١٢].

٦ - ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ [الشورى].

٧ - ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ...﴾ [النساء: ١٦٣].

٨ ـ ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل].

وما يتحصَّلُ لنا من هذه الآيات المباركات في مَعْنى (الوحي):

أن (الوحي) له ثلاثة معانٍ:

أ ـ معنًى عام: وهو التوجيه والتدبير والإشارة والكلام الخَفيُّ.

ب ـ ومعنًى خاص: وهو توجيه الله تعالى وإرشادُهُ الذي يُلْقيه إلى الملائكة والصالحين من عباده، عن طريق الملائكة.

ج ـ ومعنًى أخص: وهو إرشادُه تعالى وكلامُه الذي يُلقيه إلى أنبيائِهِ مباشرة ـ من وراء حجابٍ ـ، أو عن طريق الملائكة.

وهذا هو بيان ما أجْمَلْنا ذكره في مَعْنى الوحي، في ضوء أنوار الآيات البيِّنات المدرجة أعلاه.

أ) أمّا أن المعنى العام للوحي، هو: التوجيه والتدبير والإشارة والكلام الخفيِّ، فَتَدُلُّ عليه:

١) الآيتان (٦٨، ٦٩) من (النّحل):

حيث يبيِّن سبحانه فيهما بأنه أوحى إلى النَّحلِ: أن تتَّخذ لنفسها بيوتاً في الجبال والأشجار والخلايا التي يبنيها الناس لها، وأن تأكل من أزهار كل الثمار، وأن تلتزم بما رَسَم لها ربُّها من الشؤون، منقادةً طائعةً.

إذ من الجَلِيِّ أن المقصود بإيحاء الله تعالى إلى النَّحْل لتسيير أمورها وترتيب شؤونها، هو ذلك التدبير الرباني الذي تجري وفقه حياةُ النّحل، بحكم ما أودع سبحانه فيها من الغرائز التي تلتزم بها النّحل، ولا تَحيدُ عنها قيد أنملة.

فالوحي هنا يعني التوجيه والتدبير الرباني الخفي اللَّطيف.

٢) الآية (٧) من (القصص):

وفي هذه الآية يبيِّن الله تعالى بأنه: أوحى إلى أمِّ موسى عليه السلام بأن

تُرْضِعَهُ، حتى إذا خافت عليه ـ من فرعون وأَتْباعه ـ جعلته في صندوق وأَلْقَتْه في النّهر، وأَلّا تخاف عليه الهَلاك ولا تحزن عليه، لأن الله تعالى سيردُّه إليها ـ سريعاً ـ وسيجعله في المستقبل من المرسلين.

والمراد بالوحي إلى أمِّ موسى ﵄، هو: إِمّا الإلهام، أو الرؤيا، وكلاهما توجيه ربّاني خفيَّ.

٣) الآية (١١) من (مريم):

وفي هذه الآية يذكر سبحانه، أنَّ (زكريّا) ﵇، بعد أَنْ بشَّره الله تعالى بأنه سَيَهَبُ له ابنه (يَحْيى) ﵇، ثم جعل له سبحانه علامة على بدء تكوّن يحيى في بطن أمّه، وهي أن يُحْبَس لسانه عن الكلام، مدّة ثلاثة أيام وثلاث ليال، خَرَجَ على قومه من مكانه الخاص الذي يتعبَّد فيه وأوحى إليهم: بأن يقوموا بتسبيح الله تعالى وحمده صباحاً ومَساءً.

والمقصود بالوحي هنا بلا شك، هو إشارة زكريّا إلى قومه، لأنه كان لسانه محبوساً عن الكلام.

إذن: الوحي هنا استعمل بمعنى الإشارة، وهي توجيه خَفيٌّ.

٤) الآية (١١٢) من (الأنعام):

وفي هذه الآية يذكر سبحانه: أن الشياطين من الإنس والجِنّ يوحي بعضهم إلى بعض، الأقوالَ المزخرفة التي تَخْدَعُ وتَغُرُّ.

والشيطان هو الرأس في الكفر والضلال، إنسياً كان أو جنياً، ومن الواضح أن المقصود بإيحاء الشياطين بعضهم إلى بعض، هو وسوستهم، والوسوسة في أصل اللغة، من الوَسْواس وهو صوت الحُلِيِّ، ثم استعملت للتعبير عن الكلام الخفي، وقلّما تستعمل في غير الشرِّ(١).

وعليه:

فالوحي هنا يعني: الوسوسة والتحريك للشرِّ، وبما أن الوسوسة بين

(١) (مفردات ألفاظ القرآن) ص٨٦٩.

الجنَّ والإنس، لا تكون إلّا من جانب الجِنِّ إلى الإنس، ومعلومٌ أن وسوسة الجنّ خَفِيَّة لا تُحَسُّ ولا تُسْمَعُ، لِذا يكون المراد بالإيحاءِ الشيطاني: التحريك الخفي النفسي نحو الشرِّ، وهذا كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم]، أي: ألم تعلم بأنّنا سلَّطْنا الشياطين (من الجنّ) على الكافرين، فهي تدفعهم إلى الكفر والمعاصي، وتُهَيِّجهم لها وتُغْريهم بها!!

٥) الآيات (١٢) من (الأنفال)، و(٣) من (الشورى) و(١٦٣) من (النّساء) و(٢) من (النَّحل):

وفي هذه الآيات يذكر سبحانه إيحاءه إلى الملائكة وإلى الأنبياء عليهم السلام، ولا شك أن إيحاءه جلَّ شأنه إلى الملائكة والنبيين عليهم السلام، من التدبير والتوجيه والكلام الخفيِّ.

هذا بالنِّسبة للمعنى الأول والعام لكلمة (الوحي) في كتاب الله الحكيم.

ب) وأما بالنِّسبة لمعناه الخاصّ الذي هو توجيه الله تعالى وإرشاده الذي يُلْقيه إلى الملائكة، وإلى الصالحين من عباده عن طريق الملائكة، فتدُلّ عليه:

١) الآية (١٢) من (الأنفال):

والتي بيَّن الله تعالى فيها، أَنَّه أوحى إلى الملائكة ـ في غزوة بدر ـ بأنَّه سبحانه هو معهم، وبأن يقوموا بتثبيت المؤمنين المجاهدين وتقوية قلوبهم، وبأنه سيقذف الرُّعب في قلوب الكافرين، والظاهر أن إيحاءَ الله تعالى وتوجيهَهُ إلى الملائكة، يحصل مباشرة ومن غير واسطة، ولأنَّ الله تعالى لم يذكر لنا أن هناك واسطة بينه وبين ذلك العالم النورانيِّ الطاهر، بَلْ الملائكة واسطة بين الله تعالى، وبين خَلْقِهِ من ذوي الشعور وغيرهم، كما هو واضِحٌ في كثير من الآيات والأحاديث، وبما أنّنا تحدثنا عن عالَم الملائكة تفصيلاً في الكتاب الرابع من هذه الموسوعة، نكتفي هنا بإيراد هذا الحديث المبارك الذي يبيِّن ما قلناه بوضوح:

«عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ عَن النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَحبَّ الله الْعَبْدَ نَادَى جبْرِيلَ، إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحْبِبْهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ الله يُحِبُّ فُلَاناً فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**»» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢٠٩).

ولكن من الواضح أَنَّ هذا لا يعني بأن الملائكة كلّهم لهم درجة واحدة من حيث القرب من الله تعالى، كما يدلّ عليه هذا الحديث وتدلّ عليه أدلّة أخرى، لا داعي لِسَرْدها هنا.

٢) الآية (٧) من (القصص):

والتي كما ذكرنا سابقاً: يبيِّن الله تعالى فيها إيحاءه وتوجيهه إلى (أمِّ موسى)، بشأن رضيعها المُهَدَّدِ بالذبح، من قبل فرعون الطاغية وحاشيته.

وهناك آيات أخرى تبيِّن أن الله تعالى قد يُلْقي بتوجيهاته إلى الصّالحين من عباده، غير الأنبياء الكرام ﷺ، وأن الإلقاء المذكور يتم بثلاثة أشكال:

١) تمثيل الملائكة في صورة بشر، وإبلاغ توجيه الله تعالى.

٢) الإلهام (أي الإلقاء في القلب) في اليقظة.

٣) الرؤيا (أي إراءَة العبد ما يراد تبليغه به) في المنام.

وسنتحدّث عن هذا الموضوع في الفصل الرابع والأخير من هذا الكتاب، لِذا نُرْجيءُ الحديث عنه إلى هناك.

ونكتفي هنا بالقول:

بأَنَّ الآيتين (١٢) من (الأنفال) و(٧) من (القصص)، تدلّان على أنَّ لفظ (الوحي) بالإضافة إلى معناه العام، له معنى آخر خاصٌ، وهو ارتباط[١] الله تعالى بالملائكة وبالصالحين من عباده ـ غير الأنبياء ﷺ ـ للتوجيه والإرشاد.

---

(١) من الجليِّ أن المقصود بكلمة (الإرتباط) هنا، هو معنًى لائق بالله تعالى، أي: القرب المعنوي.

ج) وأما بالنسبة للمعنى الثالث والأخصّ لـ(الوحي)، وهو إرشاد الله تعالى وتوجيهه للأنبياء عليهم السلام، وإنزال كلامه عليهم عن طريق الملائكة، أو تَكَلُّمُهُ معهم مباشرة ـ من وراء حجاب ـ فتدلّ عليه آيات كثيرة، منها:

١) الآية (٣) من (الشورى):

والتي يبيِّن الله العليم الحكيم جلّ وعلا فيها مُخاطباً نبيَّهُ الخاتم ﷺ، بأنه هو الذي يوحي إليه، كما كان يوحي ـ مِنْ قبل ـ إلى مَنْ قَبْلَه من الأنبياء، ويُعَرِّفُ سبحانه نفسه بأنه عزيز حكيمٌ.

٢) الآية (١٦٣) من (النّساء):

وفي هذه الآية كذلك يُخاطب الله تعالى نَبيَّهُ الخاتم ﷺ، بأَنَّه أوحى إليه كما أوحى من قبل إلى (نوحٍ) والنبيّن الذين جاؤوا من بعده عليهم السلام.

٣) الآية (٢) من (النّحل):

وفي هذه الآية يبيِّن الله تبارك وتعالى، بأنه يُنَزِّلُ الملائكة بالوحي الذي يَصْدُرُ عن أمره أو بأمره، إلى الذين يختارهم من عباده ـ الأنبياء ـ، لكي يُنْذِروا الناسَ بأنه لا يوجد سوى الله تعالى إلٰهٌ آخر، لِذا فَليتَّقوه ولا يتخذوا غيره إلٰهاً بغير حقٍ.

وإنما سمّى الله وحيه هنا وفي آيات أُخَرَ (روحاً)، لأنه لحياة البشرية بمثابة الروح للجسد، فكما أنه لا قِوامَ ولا بَقاءَ للجسد بدون الروح، كذلك لا تستقيمُ حياة البشر إلّا بِاتّباع الوحي.

وبناءً عليه:

فكلمة (الوحي) بالإضافة إلى المَعْنيين الأولين، العام والخاص، لَهُ معنًى ثالثٌ آخرُ أَخَصُّ، وهو ـ كما قلنا ـ إرسالُ الله تعالى توجيهاته وكلامه إلى صفوته المختارة من البشرية، الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسَّلام.

وجديرٌ بالذكر أن هذا المعنى الثالث الأخص لـ(الوحي) هو المعنى الأشهر له، وهو المعنى المتبادِرُ إلى الذهن عند إطلاقه، بَلْ ربّما يظن بعض

الناس أنه هو معناه الوحيد! ولكن هذا ليس صحيحاً، كما وضَّحناه خلال هذا المبحث الأول من هذا الفصل المخصص لِدراسة ظاهرة الوحي، والتي نريد بها الوحي بمعناه الثالث والأخصّ، فالمعنى الثالث إذاً: هو المراد بعنوان البحث الأصلي، وبكلمة الوحي الواردة في المباحث الآتية من هذا الفصل.

والملاحظ أن القاسم المشترك بين المعاني الثلاثة لكلمة الوحي، هو:

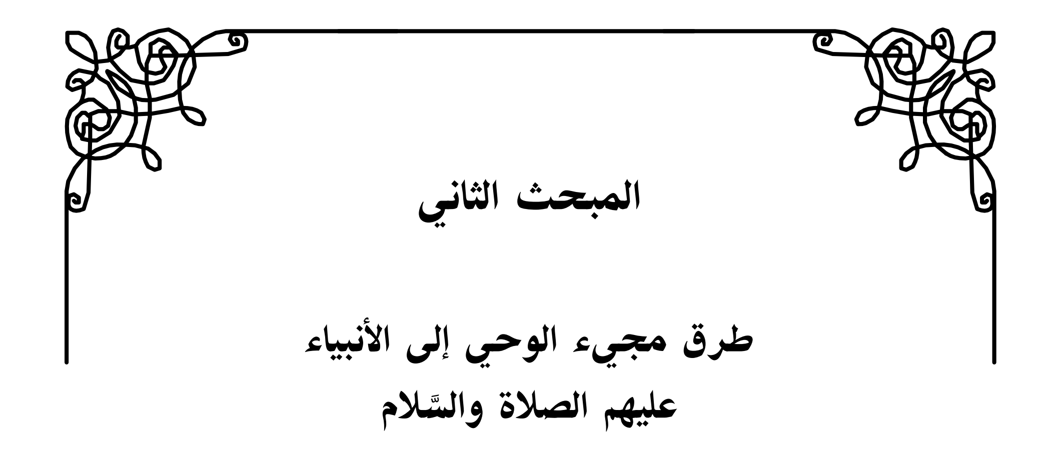
(التوجيهُ بِخَفاءٍ)، ولهذا عرَّف العلماءُ الوحي في اللغة بـ(الكلام الخفيِّ).

والآن:

بعد أن ألقينا شيئاً من الضوءِ على كلمة الوحي، ومعانيها الثلاثة في كتاب الله الحكيم، نَنْتَقل إلى المبحث الثاني بتوفيق الله تعالى.







المبحث الثاني

طرق مجيء الوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام

قال الله تبارك وتعالى مُبيِّناً كيفية اتصاله بالبشر عموماً والأنبياء خصوصاً:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى].

حَصَرَ الله تعالى في هذه الآية كيفيةَ اتصاله بالبشر عموماً والأنبياء منهم خصوصاً، لإلقاء ما يريد إلقاءَه إليهم، من العلم والتوجيه والكلام الرباني المبارك، في ثلاثة طرق:

١) الإيحاء: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾.

٢) الكلام من وراء حجاب: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾.

٣) إرسالُ المَلَكِ فيوحي إلى المرسل إليه ما أمر به: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

ثم يصف سبحانه نفسه بالعُلوِّ والحكمة: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾.

وقبل أن نُلْقي الضوء على كلٍ من هذه الطرق الثلاثة، أودُّ أن أُنَبِّهَ على نكتة مُهِمَّةٍ في هذه الآية المباركة، وهي:

قال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ...﴾ ولم يَقُلْ: (وما كان لِنبي)، لأنَّ مفهوم الآية أوسع من موضوع كيفية إيحاء الله تعالى إلى الأنبياء، وتَكَلُّمِهِ معهم، وذلك لأن الله تعالى، إذا كان قد خَصَّ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسَّلام بالوحي، بمعناه الأخص والأشهر والمتبادر إلى الذهن، كما بينّاه في المبحث الأول، فقد جعل إلقاءَه العِلمَ والتوجيهَ شاملاً لغيرهم، من عباده الصالحين أيضاً، بَلْ أنا أرى الآية المباركة، يُفهم منها بأن الله تعالى قد يُتْحِفُ حتى غير المؤمنين، ببعض العلم والتوجيه النافع لهم في الحياة الدنيا!

وهذا ما سنوضِّحه في المبحث الرابع بإذن الله تعالى، وإنَّما أردنا هنا فقط التنبيه على حكمة استعمال كلمة (بشر) بدل كلمة (نبي)، مع أن المقام مقام الحديث عن الوحي، وتكليم الله تعالى الأنبياء عليهم السلام.

ثم إنّنا جعلنا عنوان هذا المبحث الثاني الذي صَدَّرْناهُ بهذه الآية الكريمة التي نَتَحدَّث عنها: (طرق مجيء الوحي إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام)، مع أن مفهوم الآية شامل لكيفية ارتباط الله تعالى ـ تعليماً وتوجيهاً ـ بالبشر عموماً، الأنبياء وغيرهم، لأن بيت القصيد في بحثنا هذا، هو البحث عن الوحي النازل على الأنبياء عليهم السلام بالمفهوم الرائج المشهور للوحي.

والآن لنشرح مفهوم كلّ من الطرق الثلاثة التي حصرَ الله تعالى فيها كيفية اتصالِهِ بالبَشَرِ، ومن ضمنهم وعلى رأسهم الأنبياء عليهم السلام:

١) **الإيحاء:** ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾.

والظاهر أن المراد بهذا الطريق الأول، والذي عُبِّر عنه بالوحي، هنا

في[1] هذا السياق، هو:

أ ـ الإلهام (في اليقظة).

ب ـ الرؤيا (في المنام).

ومن الواضح أن كلاً من الإلهام والرؤيا، يَحْصُلُ للأنبياء ولغيرهم، كما سنفصِّل القول فيه لاحقاً.

٢) الكلام من وراء الحجاب: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾.

والمقصود بهذا الطريق الثاني، هو:

أن يكلِّم الله تعالى من شاء من أنبيائه عليهم الصلاة والسَّلام، بكلامه المبارك مباشرة فَيَسْمَعُونَهُ منه من دون واسطة، ولكن من وراء حجاب وبدون رؤيتهم إيّاه جلّ شأنه، وهذا كما حصل لـ(موسى) عليه الصلاة والسَّلام، كما قال تعالى:

١ ـ ﴿...وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء].

٢ ـ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف].

والظاهر أن مراد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، بقوله:

---

(١) وإنّما قيَّدْنا أنْ يُراد بالوحي: (الإلهام والرؤيا)، بـ(هُنا في هذا السياق)، لأن كلمة الوحي في الأصل معناها أشمل من الإلهام والرؤيا، ولكن الذي اضطرَّنا هنا إلى تقييد معناها بهما، هو دلالة السياق، حيث ذكر سبحانه فيما بعد كلاً من الكلام من وراء حجاب، وإرسال الملك لإبلاغِ الوحي، إذاً: لا بدَّ من تقييد معنى الوحي في بداية الآية، كي لا يَحْصُلَ التكرار.

﴿سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو: تنزيهُهُ لله تعالى عن أَنْ يُرى من قبل البشر في هذه النشأة، وأَنْ يَتَحَمَّل الإنسانُ رؤيَتَه، والتي لم تَتَحمَّلْها الجبال، بكل ما لها من صلابة وضخامة، وتوبتِهِ إليه واستغفاره إيّاه سبحانه، من طلبه المذكور، وإعلانه بأنه هو أوَّل مؤمنٍ، بأنه لن يُرى مِنْ قِبَلِ البشر في هذه الحياة.

وإنما قال (موسى) عليه السلام: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنه هو أوَّلُ مَنْ جرَّب تجربة عملية، أنه لا يمكن رؤية الله تعالى بهذه البنية الضعيفة، وفي هذه النشأة الإبتلائية، إذْ لم نسمع بأن غير موسى من الأنبياء، طَلَبَ الرؤية من الله تعالى، ومرَّ بالتجربة التي مرَّ بها.

وكذلك حصل الكلام المباشر من الله تعالى مع خاتم النبيين وسيِّد المرسلين (محمَّدٍ) ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج، كما يبدو من هذا المقطع من حديث المعراج الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وسنورده بتمامِهِ عند حديثنا عن سفر الإسراء والمعراج في المطلب العاشر من المبحث الأول من الكتاب السابع:

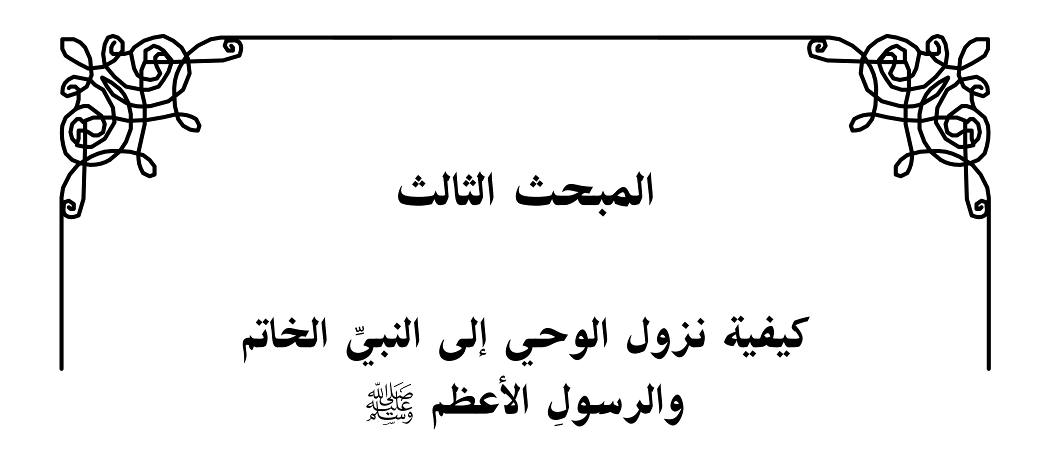
«... **فَأَوْحَى الله إِلَيَّ مَا أَوْحَى، وَفَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسِينَ صَلاَةً، فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ لَهُ: رَبِّ خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْساً، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْساً، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ، فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَيَحُطُّ عَنِّي خَمْساً خَمْساً، حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بِكُلِّ صَلاَةٍ عَشْرٌ، فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلاَةً**» رَواهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢٠٧)، وَمُسْلِمٌ برقم: (٢٥٩) وَاللَّفْظُ لِمُسْلِم).

٣ ـ إرسالُ المَلَكِ وإبلاغه ما أرسل به إلى المرسل إليه: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

وهذا الطريق الثالث هو أكثر الطرق الثلاثة شيوعاً في إيحاءِ الله تعالى إلى أنبيائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كما هو واضح في الكتاب والسنة.

والمَلَكُ الذي جعله الله تعالى سفيره إلى أنبيائه وحامِلَ وحيه ومُبَلِّغ رسالاته إليهم، هو (جبريل) عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما بيّناه في الكتاب الرابع من هذه الموسوعة، وسنتطرّق إليه أيضاً في المبحث الثالِث التالي:

❊ ❊ ❊



المبحث الثالث

كيفية نزول الوحي إلى النبيِّ الخاتم والرسولِ الأعظم ﷺ

سنتحدَّث عن كيفية مجيء الوحي إلى (محمّد) نبي الله الخاتم، ورسوله الأعظم، ونوره الأَتَمّ، ونزوله عليه، في المطالب الأربعة الآتية:

المطلب الأول:
إن جبريل عليه السلام هو الذي كان يأتيه بالوحي من الله تعالى، كسائر الأنبياء عليهم السلام

وهذه الحقيقة مصرَّح بها في آيات وأحاديث كثيرة، هذه بعض منها:

١) ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة].

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ذكر جبريل: «**عدوُّ اليهود من الملائكة**»[1].

وأورد النيسابوري بسنده هذه القصة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في سبب نزول هذه الآيات الثلاث:

«قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كنت آتي اليهود عند دراستهم للتوراة، فَأُعْجَبُ من موافقة القرآن التوراة، وموافقة التوراة القرآن، فقالوا: يا عمر! ما أحدٌ أحبُّ إلينا منك، قلتُ: ولِمَ؟! قالوا: لأنك تأتينا وتَغشانا، قلت: إنما أَجيءُ لَأُعْجَب من تصديق كتاب الله بعضه بعضاً، وموافقة التوراة القرآن، وموافقة القرآن التوراة، فبينما أنا عندهم ذات يوم، إذْ مرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خَلْفَ ظهري، فقالوا إن هذا صاحبك، فقم إليه، فالْتفتُّ فإذا

(١) (صحيح البخاري)، كتاب تفسير القرآن، (٦- باب قوله: (من كان عدواً لجبريل): ٤٤٨٠.

رسول الله ﷺ قد دخل خوخة من المدينة، فأقبلت عليهم فقلت: أَنشدُكم بالله، وما أنزل عليكم من كتاب، أتعلمون أنه رسول الله؟ فقال سيِّدهم: إنّا نعلم أنه رسول الله، قال فقلت: فأنت أَهْلَكُهُم إن كنتم تعلمون أنه رسول الله ﷺ ثم لم تتَّبعوه، فقالوا: إنَّ لنا عدوَّاً من الملائكة وسِلْماً من الملائكة، فقلت: مَنْ عدوُّكم، ومَنْ سِلْمكم؟! قالوا: عدوّنا جبريلُ، وهو مَلَكُ الفظاظة والآصار والتشديد، قلت: ومَنْ سِلْمكم؟ قالوا: ميكائيل، وهو مَلَكُ الرأفة واللين والتيسير، قلت: فإِنِّي أُشهدكم ما يَحِلُّ لجبريل أن يعادي سِلمَ ميكائيل، وما يَحلُّ لميكائيل أن يُسالِمَ عدوَّ جِبريل، وإنهما جميعاً ومن معهما أعداءٌ لِمَنْ عادوا وسلمٌ لِمَنْ سالَموا، ثم قمت فَدَخلت الخوخة التي دخلها رسول الله ﷺ فاستقبلني فقال: يا ابن الخطاب! ألا أُقرئك آياتٍ نزلَتْ عليَّ قبلُ؟! قلت بلى، فقرأ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ﴾ الآية، حتى بلغ: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ قلت: والذي بعثك بالحق، ما جئت إلّا لِأُخْبِرَك بقول اليهود، فإذا اللطيف الخبير قد سبقني بالخبر، قال عمر: فلقد رأيتني أشدَّ في دين الله من حجرٍ»[1].

٢) «**عَنِ ابْنِ عَبَّاس** رضي الله عنهما **قَالَ: قَالَ رَسُول الله** ﷺ **لجبريل: ألا تزورنا أَكْثَر مِمّا تزورنا؟ قال: فنزلت:** ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا...﴾ [مريم]»، (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢١٨).

٣) «**عَنِ ابْنِ عَبَّاس** رضي الله عنهما **أَن رَسُول الله** ﷺ **قَالَ: أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢١٩).

٤) «**وَعَنهُ** رضي الله عنهما **قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله** ﷺ**، أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا**

---

(١) (أسباب النزول) للنيسابوري، ص١٥، طبعة دار المنار: ١٤٢٢هـ، وانظر: (لُباب لنقول في أسباب النزول) ص١٨، طبعة: مؤسسة الكتب الثقافية: ١٤٣١هـ حيث قال: خرَّج القصة المذكورة كل من: إسحاق بن راهويه في مسنده، وابن جرير من طريق الشعبي. وانظر: (روح المعاني) للآلوسي: ج١ ص٤٦٠، حيث أسند هذه القصة إلى (ابن أبي شيبة) في مسنده، و(إبن جرير) و(إبن أبي حاتم) عن الشعبي.
وأنظر: الإستيعاب في بيان الأسباب، ج١ ص٣٨ ـ ٤٠، وقال المؤلِّفان: ضعيف.

يَكونُ فِي رَمَضَانَ، حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢٢٠).

ومِمّا يُستدلُّ به على أن جبريل عليه السلام هو المَلَكُ الكريم الذي كان يتولَّى ـ بأمر الله تعالى ـ موضوعَ الوحي لكل الأنبياء السابقين عليهم السلام، كما كان الحال بالنسبة للنبيِّ الخاتم، هذه الرواية التي أسندها النيسابوريُّ الى (ابن عباس) رضي الله عنهما:

عن ابن عباس:

«أن حِبْراً من أحبار اليهود من فَدَك، يقال له عبدالله بن صوريا، حاجَّ النبيَّ ﷺ فسأله عن أشياء، فلمّا اتَّجهت الحجَّةُ عليه، قال: أيُّ مَلَكٍ يأتيك من السَّماء؟! قال: (جبريلُ، ولم يَبْعَثِ الله نبياً إلّا ولّاه)، قال: عدوُّنا من الملائكة، ولو كان ميكائيل لآمنّا بك...»[1].

---

(١) (أسباب النزول للنيسابوري، ص١٦)، وانظر: (روح المعاني، ج١، ص٤٦٠)، ولُباب النقول للسيوطي، ص١٩، رقم: (٢٨).

المطلب الثاني:
كان اتصالُ جبريل به ﷺ، يَتمُّ بثلاث كيفيات: أن يراه بصورته الأصلية، أو يتمثَّل له بصورة رَجُلٍ، أو يسمع صوته كصلصلة الجرس

١) رؤية النبي ﷺ جبريل عليه السلام، بصورته التي هو عليها:

وقد رأى رسولُ الله ﷺ جبريلَ بصورته الحقيقية: مرة في الأرض، وذلك في بداية نبوَّته ﷺ، ومرة في السماء ليلة الإسراء والمعراج.

وتتحدث عن كلتيهما، الآياتُ (١ إلى ١٨) من (النَّجم):

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم].

إذ الآيـات: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ إلـى ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾، أي من الآية (٥ إلى ١١) كلّها تتحدَّث عن المرة الأولى، والآيات: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣﴾ إلـى ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨﴾ أي مـن الآية (١٣ إلى ١٨) تتحدَّث عن المرة الثانية.

وهذا الحديث يوضِّح كيفية رؤية النبيِّ ﷺ لـ(جبريل) عَلَيْهِ السَّلَامُ في المرة الأولى:

«**قال جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: ثُمَّ فَتَرَ عَنِّي الْوَحْيُ فَتْرَةً، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتاً مِنْ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجُئِثْتُ[1] مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ . . .﴾ إلى ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢٣٨).

وكذلك هذا الحديث يتحدَّث عن الرؤية الأولى:

«**قَالَ البُخَارِيُّ: حدثنا قُتَيْبَةُ حدثنا أَبُو عَوَانَةَ حدثنا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِيُّ قَالَ سَأَلْتُ زِرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ الله تَعَالَى:** ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم]، **قَالَ حدثنا ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّهُ رَأَى (أَي النَّبِيّ ﷺ) جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢٣٢).

وكذلك هذا الحوار الذي جرى بين (مسروق) و(عائشة) رضي الله عنها، يُلْقي الضوءَ على موضوع رؤية رسول الله ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية في الأرض ـ للمرة الأولى ـ، وفي السماء ـ للمرة الثانية ـ:

«**عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ يَا أُمَّتَاهْ! هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ رَبَّهُ؟ فَقَالَتْ: لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ، أَيْنَ أَنْتَ مِنْ ثَلَاثٍ مَنْ حَدَّثَكَهُنَّ فَقَدْ كَذَبَ: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ:** ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ [الأنعام]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى]؛ **وَمَنْ حَدَّثَكَ: أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ قَرَأَتْ:** ﴿. . .وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ . . .﴾ [لقمان: ٣٤]، **وَمَنْ حَدَّثَكَ: أَنَّهُ كَتَمَ فَقَدْ كَذَبَ، ثُمَّ**

(١) فَجُئِثْتُ منه: رُعِبتُ منه.

قَرَأَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ...﴾ [المائدة: ٦٧]؛ وَلٰكِنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ عليه السلام فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ.

قَالَ مَسْرُوقٍ: قُلْتُ: فَأَيْنَ قَوْلُهُ تَعَالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩﴾ [النجم]؟!

قَالَتْ: ذَاكَ جِبْرِيلُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ، وَإِنَّهُ أَتَاهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هِيَ صُورَتُهُ فَسَدَّ الْأُفُقَ» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢٣٥)).

هذا بالنسبة لرؤية النبي ﷺ لجبريل في صورته التي هو عليها، والتي حَدَثَتْ له مرتين فقط، مرة في الأرض في بداية تلقِّيه الوحي، ومرة في السماء، في سفره العظيم المعروف بـ(الإسراء والمعراج).

ولعلَّ الحكمة في إراءة الله تعالى جبريل إيّاه، هاتين المرتين في صورته الحقيقية، وفي كل من الأرض والسماء، هي:

أن يعرف المَلَكَ الذي يأتيه بالوحي شخصياً وبصورته الحقيقية، زيادة في الإطمئنان، بالنسبة للمصدر الذي يَتَلقَّى منه الوحي الربّاني.

٢) تمثّل جبريل عليه السلام في صورة رجُلٍ:

وتَمَثُّلُ جبريل في صورة رجلٍ لرسول الله ﷺ سواء رآه الصحابة ـ كما كان يحدث ذلك أحياناً ـ أو لم يروه، يَدُلُّ عليه:

أولاً: قوله تعالى:

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ [النجم].

إذْ يُنكِرُ سبحانه على المشركين ارتيابَهم أو جِدالَهم فيما يقولُه النبيُّ ﷺ، بأن جبريل عليه السلام يأتيه بالوحي، وأنه رآه ويراه، سواء بِصورته الأصلية أو غيرْها.

ثانياً: أحاديث وآثار صحيحة كثيرة، منها:

١) قول رسول الله ﷺ في جواب (الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ) عندما سأله قائلاً:

«**يَا رَسُولَ الله كَيفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟!): فَقَالَ: ... وَأَحْيَاناً يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٢) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها).

٢) «**عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب رضي الله عنه قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَ نَبِيِّ الله ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لاَ يُرَى قَالَ يَزِيدُ ـ لاَ نَرَى ـ عَلَيْهِ أَثَرَ السَّفَرِ...**» وفي نهاية الحديث قول رسول الله ﷺ:

«**هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ دِينَكُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ رقم: (١) بهذا اللفظ، رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٥٠) عَنْ أبي هريرة بلفظٍ قريب منه، وربّما الحديثان عن حادثتين متشابهتين، وليسا عن حادثة واحدة.

٣) «**عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ لَهَا: يَا عَائِشَةُ! هذَا جِبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلَامَ، فَقَالَتْ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ، تَرَى مَا لَا أَرَى تريدُ النَّبِيَّ ﷺ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢١٧).

٤) «**(قَالَ البُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ قَالَ سَمِعْتُ أَبِي عَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ: أُنْبِئْتُ أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَعِنْدَهُ أُمُّ سَلَمَةَ فَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأُمِّ سَلَمَةَ مَنْ هَذَا؟ أَوْ كَمَا قَالَ، قَالَتْ: هَذَا دِحْيَةُ، فَلَمَّا قَامَ قَالَتْ: وَالله مَا حَسِبْتُهُ إِلَّا إِيَّاهُ حَتَّى سَمِعْتُ خُطْبَةَ النَّبِيِّ ﷺ يُخْبِرُ خَبَرَ جِبْرِيلَ أَوْ كَمَا قَالَ، قَالَ أَبِي قُلْتُ لِأَبِي عُثْمَانَ مِمَّنْ سَمِعْتَ هَذَا؟ قَالَ مِنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٤٩٨٠)).

ويظهر في هذه الأحاديث بوضوح أن جبريل عليه السلام كان يتمثل في صورة رجُلٍ لرسول الله ﷺ فيراه الصحابة أحياناً، كما في حديث (عمر، وأبي هريرة، وأم سلمة) رضي الله عن الجميع، وأحياناً لا يرونه، كما في حديث عائشة رضي الله عنها.

٣) إيحاء جبريل إلى النبي ﷺ من خلال صوت شبيه بصلصلة الجرس:

وهذه الحالة والكيفية الثالثة من حالات وكيفيات اتِّصال جبريل عليه السلام بالنبيِّ ﷺ وإيحائه إليه، يوضِّحها هذا الحديثُ الذي أشرنا إلى طرفٍ منه من قبل، ونُورِدُه هُنا بِتمامِهِ وبروايَتَيْه:

١ ـ **«عَنْ عَائِشَةَ، أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ الْحارِثَ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه، سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَحْيَاناً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَاناً يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ»** (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٢)).

٢ ـ **«عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ قَالَ: كُلُّ ذَاكَ، يَأْتِينِي الْمَلَكُ أَحْيَاناً فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، وَيَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ أَحْيَاناً رَجُلاً، فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ»** (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣٢١٥)).

وواضح في الرواية الثانية من الحديث أنَّ ذلك الصَّوت الذي كان يشبه صلصلة الجرس، كان صوت جبريل، أو كان علامة على مجيئهِ إلى النبي ﷺ: «... **يأتيني الملَك أحياناً في مثل صلصلة الجَرَسِ**».

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المطلب الثالث:
كان النبي ﷺ يَلْقى شِدَّةً وصعوبةً عند تلقِّيه الوحي من جبريل وخاصة عندما يأتيه عن طريق الصوت فقط

والدليل على هذه الحقيقة هو:

١) قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل].

حيث يأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بقيام نِصف اللّيل، أو أكثر، أو أقل، وقراءة القرآن بَتَمَهُّلٍ وترتيل، ثم يبيِّن جلَّ شأنه - تعليلاً لأمره إيّاه بقيام اللَّيل - بأنه سَيُلْقي عليه قَوْلاً ثقيلاً، أي: بما أنّنا سَنُلْقي عليك قولاً ثقيلاً، فاستعدّ له ولتلقّيه، بقيام اللّيل.

وهذا كما يقال لِمَنْ أمامَه سَفَر طويلٌ:

أمامَك سفرٌ بعيد المدى، فاستعدَّ له استعداداً جيِّداً!

٢) قوله ﷺ في الحديث الذي مرَّ معنا آنفاً:

(أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أَشَدُّهُ عليَّ...) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها.

إذ قوله ﷺ: (وهو أشدُّه عليَّ) واضحٌ في أنه كان ﷺ يَلْقى العَناءَ والشدَّة عند تَلَقِّيه الوحي عامة، ولكن كان الإيحاء عن طريق الصَّوت المجرّد عليه أشقّ وأصْعَبَ.

٣) قولُ عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما:

«كَانَ رَسُول الله ﷺ يُعالِجُ من التنزيل شِدَّةً» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٥)).

وقولُ ابن عباس هذا واضح الدلالة على المطلوب، وسنورده بتمامه في البند الرابع الآتي بإذن الله تعالى.

٤) قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في تعليقها على السؤال والجواب الذي جرى بين (الحارث بن هشام) رضي الله عنه ورسول الله ﷺ، حول كيفية الإيحاء إلى النَّبيِّ، والذي أوردناه بكلتا روايَتَيْه في البند السابق:

«... وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٢)).

وكذلك قولُها رضي الله عنها، عند سَوْقِها لحادثة الإفك:

«... فوالله ما رامَ رسولُ الله ﷺ، ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتى أُنْزِل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاءِ[1] حتى إنه ليتحدَّرُ منه مثل الجُمانِ[2] من العرق، وهو في يومٍ شاتٍ، من ثِقَلِ القول الذي يُنْزَلُ عليه، قالت:

فلما سُرِّي عن رسول الله ﷺ، سُرِّي عنه وهو يضحك، فكانت أَوَّلُ كلمة تكلّم بها:

(يَا عَائِشَةَ! أَمّا الله ﷻ فَقَدْ بَرَّءَكِ» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٤٧٥٠)).

وكذلك قول عائشة رضي الله عنها في كلا حديثيها ـ وهي هي في فقهها وعَقْلها ودقّة كلامها ـ بأن النبي ﷺ كان عندما يوحى إليه، يَسْخُنُ بَدَنُهُ، وتأخذه حالة كالحُمَّى، في ارتفاع درجة حرارة جِسْمه، وأنه كان يتصبَّبُ عَرَقاً

(١) البُرَحاءُ: الشِّدَّة، ومنه: بُرَحاء الحُمَّى، المعجم الوسيط: ص٤٧.

(٢) الجُمان: اللؤلؤ، وحَبٌّ يصاغ من الفضة على شكل اللؤلؤ، المعجم الوسيط: ص١٣٧.

ويتحدَّرُ من جَبينه المبارك قطرات مثل حَبّات اللؤلؤ، حتى ولو كان في يومٍ باردٍ قارس البرد، ثم تعليلها تلك الحالة، بقولها:

(مِنْ ثِقَل القولِ الذي يُنْزَلُ عليه)، كلّ هذا أيضاً واضح الدلالة على أن رسول الله ﷺ كان يَلْقى شِدَّةً عند تَلَقِّيه الوحي.

هذا ونحن لا نَعْرف بالضَّبط سبب تلك الشدَّة التي كان النبيُّ ﷺ يَلْقاها عند تلقِّي الوحي والإتصال بِجبريلَ عليه السلام، ولكن يمكننا القول عموماً:

إن اتِّصالَه ﷺ بجبريل لِتَلَقِّي الوحي عنه، كان يتطلَّب منه دُخُولَهُ في حالة روحية غير إعتيادية، فكانت تلك الحالة الروحية تنعكِسُ على بَدَنِهِ الشريف، بما بَيَّنَتْهُ أمُّنا الكريمة عائشة رضي الله عنها، من التَّعَب والمَشَقَّةِ، وبالنتيجة سخونة البدن والتعرّق.

وفي المطلب التالي إيضاحات أخرى أيضاً لهذا الموضوع:



المطلب الرابع:
مُشاهدات بعض الصَّحابة ﷺ،
حول كيفية نزول الوحي على النبي ﷺ

ونختم موضوع كيفية نزول الوحي إلى النبي الخاتم ﷺ، بذكر بعض مشاهدات الصّحابة الكرام ﷺ، بهذا الصّدد:

١) **[عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس ﷺ قال:**

«كان رسول الله ﷺ يُعالِجُ من التنزيل شِدّةً، وكان مِمّا يُحرِّك شَفَتيه، فقال ابن عباس: فأنا أُحرِّكهما لكم كما كان رسولُ الله ﷺ يُحَرِّكهما، وقال سعيد: أنا أُحرِّكُهما كما رأيت ابن عباسٍ يُحَرِّكهما فحرَّك شفتيه، فأنزل الله تعالى:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة]، قال: جَمْعَهُ لَهُ في صدرك وتقرأه.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة]، **قال: فاستَمِعْ له وأنْصِتْ.**

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة]، **ثم إن علينا أن تقرأه.**

فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أَتاه جبريلُ استمعَ، فإذا انطلق جبريلُ، قرأهُ النبيُّ ﷺ كما قرأه»، (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٥))].

وملخَّص مفهوم قول ابن عباس ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان في بداية نزول القرآن عليه وقراءة جبريل إيّاه عليه، يستعجل بتكرار ما يُلْقيه إليه والتَلفُّظِ بهِ، حرصاً على حِفْظِهِ وضَبْطِهِ إيّاهُ له، وعدم نسيان شيء منه،

ولكن لما أمره الله تعالى بالتريُّث وعدم الإستعجال، وطَمْأَنَهُ على أنه سَيُحَفِّظُهُ إيّاه، ترك الإستعجال.

وقد ذكر سبحانه هذا الموضوع بالإضافة إلى سورة (القيامة)، في كل من سورة (طه) وسورة (الأعلى) كما قال جلَّ شأنه:

أ) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه].

ب) ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الأعلى].

٢) **قال البخاري**: [«حدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ حَدَّثَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عَطَاءٌ، أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ، أَخْبَرَهُ أَنَّ يَعْلَى كَانَ يَقُولُ لَيْتَنِي أَرَى رَسُولَ الله ﷺ حِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ قَالَ: فَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ قَدْ أُظِلَّ بِهِ مَعَهُ فِيهِ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، إِذْ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ عَلَيْهِ جُبَّةٌ مُتَضَمِّخٌ بِطِيبٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله كَيْفَ تَرَى فِي رَجُلٍ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ فِي جُبَّةٍ بَعْدَمَا تَضَمَّخَ بِالطِّيبِ؟! فَنَظر النَّبِيُّ ﷺ سَاعَةً، فَجَاءه الوَحي، فَأَشَارَ عُمَرُ إِلَى يَعْلَى بِيَدِهِ أَنْ تَعَالَ فَجَاءَ يَعْلَى فَأَدْخَلَ رَأْسَهُ فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْمَرُّ الْوَجْهِ يَغِطُّ كَذَلِكَ سَاعَةً ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَقَالَ أَيْنَ الَّذِي يَسْأَلُنِي عَنْ الْعُمْرَةِ آنِفاً؟! فَالْتُمِسَ الرَّجُلُ فَأُتِيَ بِهِ، فَقَالَ: أَمَّا الطِّيبُ الَّذِي بِكَ فَاغْسِلْهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَأَمَّا الْجُبَّةُ فَانْزِعْهَا ثُمَّ اصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ كَمَا تَصْنَعُ فِي حَجِّكَ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٤٩٨٥))].

وهذا الحديث فيه وصْفٌ دقيق لكيفية نزول الوحي إلى رسول الله ﷺ والتغيّرات التي كانت تَطْرأُ عليه أثناءَهُ، ولكن قبل أن نوضِّح ذلك الوصف الدقيق الذي يتضمَّنه، أودّ أن أُبيِّن بعض ألفاظ الحديث:

أ ـ يبدو أنَّ (يَعْلى) ﷺ، ذكر أُمْنِيَّتَهُ ـ وهي مشاهدته لرسول الله ﷺ

وقت نزول الوحي عليه ـ عند (عمر بن الخطاب) ﷺ، لذا دعاه (عمر) لمشاهدة النبيِّ ﷺ بعد أن سأله ذلك الرجل سؤاله، وبعد أَنْ ظَهَرتْ لعمر ﷺ، مقدِّمات نزول الوحي على رسول الله ﷺ.

ب ـ قوله: (فنظر النبيُّ ﷺ ساعةً) أي نظر ﷺ إلى السماء، انتظاراً لمجيء الوحي، أو نظر إلى جبريل عليه السلام الذي يأتيه بالوحي.

والمراد بـ(ساعة) هنا، وفي الجملة الآتية، هو مدةٌ وحينٌ من الزَّمن من غير تحديد، ثم يعرف مقدار الساعة حسب السياق والقرائن، وليس المقصود بالساعة، المدة الزمنية المعروفة لنا في هذا العصر، والتي هي جزء من أربعة وعشرين جزءاً من اليوم واللّيلة.

ج ـ قوله: (فأدخل رأسَهُ فإذا هو مُحْمَرُّ الوجه) يَقْصُدُ به النَبِيَّ ﷺ إذْ كان يَتَغَطّى بثوبٍ أو نحوه، عندما يوحى إليه.

د ـ قوله: (يَغِطُّ كذلك ساعةً) أي: يُصَوِّتُ، والغطيط هو شَخيرُ النائم[1].

وأمّا ما يشتملُ عليه هذا الحديث من وصفٍ دقيق لحالة الرسول ﷺ وقت نزول الوحي عليه، فهو كالآتي:

١. كان رسول الله ﷺ يَنْظُرُ إلى جبريل عليه السلام قبل تلبُّسِه بحالة تَلقّي الوحي: (فنظر النبي ﷺ ساعة فجاءه الوحي).

٢. وكان يُغَطِّي رَأْسَه ووجْهَهُ ﷺ بثوبٍ ونحوه، حالة تَلَبُّسِهِ بتلقّي الوحي: (فأَدْخَلَ رأسَهُ)، وربما فعل ذلك صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، كي لا يُرى وهو متغيِّر الحال ومُحْمَرُّ الوجه.

٣. وكان ﷺ حين الإيحاء إليه يَحْمَرُّ وجهه الشريف: (فإذا هو مُحْمَرُّ الوجه)، ومن الواضح أن احمرارَ وجهه المنوَّر ﷺ كان نتيجة الشدَّة والتعب وسخونة البدن.

(١) غَطَّ في نومه يَغِطُّ غطاً وغَطيطاً: صات وَرَدَّد النَّفَسَ في خياشيمه. المعجم الوسيط، ص٦٥٦.

٤. وكان يَخْرجُ مِنْ فمه المبارك في تلك الحالة، صوتٌ يشبه شَخير النائم: (ويغِطُّ كذلك ساعةً).

٥. ثم تذهب عنه تلك الحالة التي يكون منها في شِدَّةٍ وعناء، ويرجع إلى حالته الطبيعية: (ثم سُرِّي[1] عنه).

٣) «**عن زَيْدِ بن ثابت ﷺ أن رسول الله ﷺ أمْلى عليه:**

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]، **فجاءه ابن أُمِّ مكتوم ﷺ، وهو يُمْليها علي، قال: يَا رَسُولَ الله لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ، وَكَانَ أَعْمَى، فَأَنْزَلَ الله عَلَى رَسُوله وفَخِذُهُ عَلَى فخذي، فَثَقُلَتْ عَليَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذي، ثم سُرِّي عنه، فأنزل الله:** ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٤٥٩٢)، وَمُسْنَد أَحمد (١٨٤/٥)، وأورده النيسابوري في (أسباب النزول) بِنَصِّه ص٩٧، ولباب النقول للسيوطي ص٨٨، رقم: ٣٠٥، والسيوطي بِلَفْظ قريبٍ منه).

ويصوِّر لنا زيدٌ ﷺ في هذا الحديث، كيفية ثقل نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وكيف أنه كان يُثْقِلُ بَدَنَهُ الشريف ويزيده وزْناً وثقلاً، إذ يقولُ: بأنه كادت أنْ تَرُضَّ فَخِذُ رسول الله ﷺ حين نزول الوحي عليه، فخذي، من شدَّة الضغط والثِّقَل، والرَّضُّ هو كَسْرُ العظم وهَشْمُهُ[2].

وهكذا وضَّحت لنا الآياتُ والأحاديثُ والآثارُ المرويَّة، كلَّ جوانب موضوع كيفية نزول الوحي على النبي الخاتم ﷺ، وذلك كسائر شؤونه ﷺ.

وأختم هذا المبحث الثالث، بقولي:

إنَّ الإلهام والرؤيا بالنسبة للأنبياء ﷺ، ومن ضمنهم سيِّدهم وخاتمهم (محمد) ﷺ طريقان من طرق مجيء الوحي ـ كما سَنُبَيِّنُهُ بعد قليل في المبحث الرابع ـ، ولكن النبي ﷺ ذكر في جواب سؤال (الحارث بن

(١) سَرا الشيءَ يَسْرو سَرْواً: نَزَعَهُ وأَلْقاهُ، وسرَّى الشيء عنه: سَراه، وسُرِّي عن فلانٍ: زالَ ما به من هَمٍّ. المعجم الوسيط، ص٤٢٨.

(٢) المنجد، ص٨٦٦ ط ١٧.

هشام): «**يا رسول الله كيف يأتيك الوَحْيُ؟!**» طريقين فقط من طرق مجيء الوحي وهما: تمثُّل الملك بصورة رَجُلٍ، ومجيؤُهُ في صوتٍ كصلصلة الجرس، وذلك لأنَّهما:

أولاً: هما أشهر طرق نزول الوحي عليه.

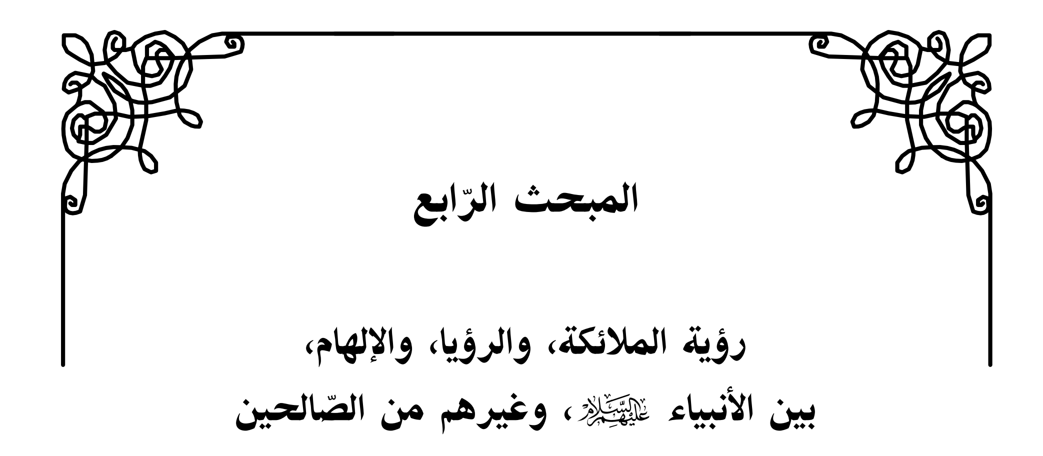
ثانياً: لأن القرآن العظيم لم ينزل إلّا بهذين الطريقين، ـ والله هو العليم الحكيم ـ.

وجديرٌ بالذكر أن قول رسول الله ﷺ في الرواية الثانية لحديث (الحارث بن هشام) وذلك في مستهلِّ جوابه:

(كلُّ ذاك...) يُفْهم منه بوضوح أن طرق مجيء الوحي، ليست مُنْحَصِرةً في الطريقين المذكورين في الحديث.

وأما الآن فإلى المبحث الرابع والأخير من هذا الفصل:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المبحث الرّابع

رؤية الملائكة، والرؤيا، والإلهام، بين الأنبياء عليهم السلام، وغيرهم من الصّالحين

ونتناول موضوعَ هذا المبحث الرابع والأخير من هذا الفصل في مطلبين: في الأول منهما: نَسْتَشْهِدُ بآيات بيِّنات ونصوص من السنَّة النبويَّة، على أن أهل الإيمان والتقوى والصّلاح غير الأنبياء عليهم السلام، قَدْ يَرَوْنَ الملائكة، ويُلْهَمُون بالخير في اليقظة، ويرون الرؤى الصالحة في المنام، وفي المطلب الثاني: نُبَيِّنُ أنَّ مجيء الملائكة الكرام بالوحي، محصور في الأنبياء عليهم السلام فقط، وأمّا غيرهم فيرونهم لأغراضٍ أخرى، ومنها التبشير والإنذار، وكذلك الرؤيا والإلهام بالنسبة للأنبياء عليهم السلام، يعتبران طريقين من طرق الوحي، ولكن بالنِّسبة لغيرهم، لهما حكم آخر.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المطلب الأول:
أدلّة من الكتاب والسنّة على أَنَّ الصّالحين ـ غير الأنبياء ـ قد يَرَوْنَ الملائكة، ويرون الرؤى الصالحة، ويُلْهَمون الإلهامات الصادقة

أ) رؤية الملائكة:

١ ـ ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران].

٢ ـ [«عن أُسَيدْ بن حُضَير قال:

بينما هو يقرأ من اللّيل سورة البقرة، وفَرَسُهُ مَرْبوط عنده، إذْ جالت الفَرَسُ، فَسَكت فَسَكَنَتْ، فقرأ فجالت الفَرَسُ، فَسَكت فَسَكَنَتِ الفَرَسُ، ثم قرأ فجالت الفرسُ، فانصرف، وكان ابنُهُ يحيى قريباً منها، فأشفق أنْ تُصيبه، فلمّا اجترَّهُ، رَفع رَأْسَهُ إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدَّث النبيَّ ﷺ، فقال:

(إقرأْ يا ابن حُضَير، إِقرأْ يا ابن حُضَيْر) قال:

فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يَحْيى، وكان منها قريباً، فَرَفَعْتُ رأسي فانْصَرفْتُ إليه، فَرَفَعْتُ رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظُلَّة فيها أمثالُ المصابيح، فَخَرَجَتْ حتى لا أراها، قال: (وتدري ما ذاك؟!) قال لا، قال:

«تلك الملائكة دَنَتْ لِصوتك، ولو قرأت لأصْبَحَتْ ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم..» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٥٠١٨))].

٣ ـ [«عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَجلٌ يَقرأ سُورَة (الكَهْف) وإلى جَانبهِ حِصَانٌ مَرْبوطٌ بِشَطنين[1]، فَتَغشَّتْه سَحابَةٌ، فجعلت تَدْنو تَدْنو وجعل فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فلمّا أَصْبَح النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: (تِلْكَ السكِينَة تَنَزَّلَتْ بالقُرآن)» (رَوَاهَ البُخَارِيُّ برقم: (٥٠١١))].

٤ ـ [«عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَجُلَيْنِ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَإِذَا نُورٌ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا حَتَّى تَفَرَّقَا فَتَفَرَّقَ النُّورُ مَعَهُمَا» (رَوَاهَ البُخَارِيُّ برقم: (٣٨٠٥))].

[«وقد روى البُخَارِيُّ من طريق آخر عن (أنسٍ) ﷺ أَن الرجلين كانا: أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ ﷺ» (رَوَاهَ البُخَارِيُّ برقم: (٣٨٠٥))].

٥ ـ عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ ثَلاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمى بَدَا لله أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً...» (رَوَاهَ البُخَارِيُّ برقم: (٣٤٦٤)).

ودلالة هذه النّصوص[2] على أن غير الأنبياء عليهم السلام من البشر، قد يرون الملائكة لغير غَرَضِ الوحي، من الوضوح بحيث لا تَحْتاج إلى أيِّ بيان، لِذا اكتفينا بإيرادها ولم نُعلِّقْ عَليها.

ب) **الرؤيا الصّالحة:**

١ ـ عن أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ

(١) الشَّطَنُ، ج أَشْطان: الحَبْلُ الطويلُ يُسْتَقى به من البئر، أو تُشَدُّ به الدّابَّة. المعجم الوسيط، ص٤٨٣.

(٢) وهذا بالإضافة إلى الأحاديث السابقة التي سبق ذكرها في المطلب الثاني من المبحث الثالث، والتي جاء فيها أن كلاً من (أم سلمة) ﷺ، و(عمر بن الخطاب) و(أبي هريرة) ﷺ قد رأوا جبريل عليه السلام، بعد أن تمثل لرسول الله في صورة رجلٍ.

مِنْ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنْ النُّبُوَّة» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٨٣)).

٢ ـ «**عَنْ أَبِي قَتَادَةَ** ﵁ **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ: **قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنْ الله، وَالْحُلْمُ مِنْ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا حَلَمَ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنْهُ، وَلْيَبْصُقْ عَنْ شِمَالِهِ، فَإِنَّهَا لاَ تَضُرُّهُ»** (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٨٦)).

٣ ـ «**عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ** ﵃ **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ **قَالَ: رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ»** (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٨٦)).

٤ ـ «**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** ﵁ **قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله** ﷺ **يَقُولُ: (لَمْ يَبْقَ مِنَ النّبوَّة إلّا المُبشِّراتُ) قَالُوا: وَمَا المُبشِّرات؟! قال: (الرُّؤيا الصَّالِحَة)»** (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٩٠)).

٥ ـ «**عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ** ﵁ **أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ** ﷺ **يَقُولُ: إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا فَإِنَّمَا هِيَ مِنْ الله فَلْيَحْمَدَ الله عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ مِنْ الشَّيْطَانِ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ»** (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٨٥)).

٦ ـ وقَدْ فَسَّرَ رسولُ الله ﷺ قوله تعالى: ﴿...لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا...﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس]، **بـ(الرؤيا الصالحة يَراها المسلم أو تُرى لَهُ) رواه أحمد وابن جرير عن أبي الدرداء.**

ج) **الإلهامات الصّالحة:**

١ ـ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان].

٢ ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا

مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًاۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ [الكهف].

٣ ـ ﴿. . .قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف].

٤ ـ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص].

٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۖ. . .﴾ [فصلت].

٦ ـ «**عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ** ﷺ، **قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله** ﷺ: **لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ. . .**» (رَوَاهَ البُخَارِيُّ برقم: (٣٦٨٩)).

٧ ـ «**عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ** ﷺ، **قَالَ: قَالَ النَّبِيّ** ﷺ: **لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رِجَالٌ يُكَلَّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعُمَرُ**» (رَوَاهَ البُخَارِيُّ برقم: (٣٦٨٩)).

ودلالة هذه النّصوص المباركة على أنَّ للصّالحين من البشر ـ غير الأنبياء عليهم السلام ـ حَظّاً من الإلهام والعلم اللَّدُنِّي، هي كالآتي:

١ ـ أما الآية (١٢) من (لقمان) فَيُبَيِّن الله تعالى فيها بأنه وهب (لقمان) ﷺ الحكمة، ووصّاه أن يشكر الله تعالى.

وبما أن غير الأنبياء عليهم السلام لا يوحى إليهم ـ بالمعنى الأخصّ الأشهر لكلمة الوحي ـ فالمراد بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِۚ. . .﴾ هو إلهامُهُ إيّاه ذلك.

٢ ـ وكذلك الآيات (٨٣ إلى ٨٦) من (الكهف) والتي يتحدّث ربُّ

العالمين فيها عن طرفٍ من قصّة (ذي القرنين) ﷺ[1]، ويبيِّن جلَّ شأنه بأنه قد سخَّر له كلَّ الإمكانيات المادية وغير المادية التي كان يتوقف عليها إنجازه للمهمّات التي يقوم بها، ثم يبيِّن سبحانه بأنه قد خوَّل ذلك المَلِكَ الصالح العادل، في كيفية التعامل مع الأقوام التي يُخْضِعُها لِسُلطته، الشدَّة أو الِّلينَ، حسب اقتضاءِ المقام والحال: ﴿...قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، وبما أن ذا القرنين لم يكن نبياً يوحى إليه، فالمراد بقوله تعالى: ﴿...قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ...﴾ هو إلهامُهُ إيّاه ذلك التوجيه والإرشاد.

٣ - وفي الآيات (٦٤، ٦٥، ٦٦) من (الكهف) والتي يذكر فيها العليم الخبير سبحانه وتعالى طرفاً من قصة مُوسى عليه السلام مع العبد الصالح (الخَضِرْ) ﷺ[2] يصف جلّ شأنه العبد الصالح بقوله: ﴿...عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، ومن الجَلِيِّ أن المقصود بـ(العلم اللّدُنّي) الذي علَّمه الله تعالى الخضر ﷺ، هو الإِلهام القَلْبِيُّ، ولهذا اصطلح العلماء على تسمية (الإلهام) و(الإلقاء في القلب) - أي الإلقاء الرحماني - بـ(العلم اللّدُنّي)، أي العلم الذي يهبه الله تعالى بَعْضَ عبادِهِ الصّالحين من عنده، من غير اكتسابٍ وتعلّمٍ منهم.

٤ - وفي الآية (٧) من (القصص) يذكر سبحانه إيحاءه إلى أُمِّ موسى ﷺ، وقد ذكرنا من قبل أنَّ المقصود بالإيحاء هنا، هو الإلهام أو الرؤيا، واللَّذَيْن يَتَضَمَّنُهُما لفظ (الوحي) بمعناه الثاني الخاص، كما بيّناه في المبحث الأول من هذا الفصل.

---

(١) سنتحدّث عن قصة ذي القرنين في المطلب الأول من المبحث الأول من الفصل الثاني من الباب الثالث (أي في الكتاب العاشر من هذه الموسوعة)، بإذن الله تعالى.

(٢) أورد البخاري قصة موسى عليه السلام مع الخضر ﷺ في أكثر من مكان من (صحيحه)، انظر على سبيل المثال: ٣٤٠١.

٥ ـ والآيتان (٣٠، ٣١) من (فصِّلت) ـ واللَّتَيْن تحدّثنا عنهما في الفصل الثاني من هذا الباب، (أي في الكتاب الثالث) عند الحديث عن ربوبية الله تعالى ـ، يبيِّن الله تعالى فيهما نزول ملائكته الكرام، على عباده المستقيمين على توحيده وعبادته، مُزيحين عنهم رُكامَ الخوف والحزن، ومُبشرِّين إيّاهم بالجنة وثواب الله ورضوانه، ومؤكِّدين لهم أنَّهم هم أولياؤهم في دنياهم وأخراهم، والمقصود بهذا النزول الملائكي وأقوالهم المباركة المُطَمْئِنة، هو قربهم لأهل الإيمان وإلهامهم إيّاهم، كما وضَّحْناهُ في مَحلِّه المُشار إليه.

٦ ـ وأما الحديثان فواضحان وغَنيّان عن أيِّ بيان، بأن الله تعالى يَمُنّ على بعض أهل الإيمان، بنعمة الإلهام، والحديث القلبي، والعلم اللَّدُني، من غير أن يكون هناك وحي بمعناه المعروف، وأن (عمر بن الخطاب) ﵁ في مقدِّمة أولئك المُلْهَمين من أمة (محمَّد) سيِّد المرسلين ﷺ. ومَنْ يتأمَّل مواقف (عمر) ﵁، يَعْرِف سِرَّ تسمية رسول الله ﷺ إيّاه، أوَّل مُلْهَم ومُحَدَّثٍ في أمته، وهذه بعض الآثار الصَّحيحة في بيان بعض المواقف التي أُلْهِمَ فيها عمرُ ﵁، الرشد والصواب:

١. «عَنْ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: قَالَ عُمَرُ ﵁: وَافَقْتُ الله فِي ثَلاَثٍ أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلاَثٍ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! لَوْ اتَّخَذْتَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ، فَأَنْزَلَ الله آيَةَ الْحِجَابِ، قَالَ: وَبَلَغَنِي مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ ﷺ بَعْضَ نِسَائِهِ فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ قُلْتُ إِنْ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَيُبَدِّلَنَّ الله رَسُولَهُ ﷺ خَيْراً مِنْكُنَّ حَتَّى أَتَيْتُ إِحْدَى نِسَائِهِ، قَالَتْ: يَا عُمَرُ! أَمَا فِي رَسُولِ الله ﷺ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ حَتَّى تَعِظَهُنَّ أَنْتَ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿. . . عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]». (رواه البخاري: ٤٤٨٣).

إذاً:

فهذه ثلاثة مواقف أُلْهِمَ فيها عمر ﷺ الحَقَّ والصَّوابَ، ثم نزلَ القرآن مؤيِّداً له فيها.

٢. وموقف رابعٌ آخر لَه مِمّا نزلَ القرآن العظيم على وفق رأيه، هو موقفه عن أسارى غزوة بدر، حيث قال لرسول الله ﷺ لما استشار الصَّحابة ﷺ فيهم: بأنه يرى أن يقتلهم، مُعلِّلاً رأيه بقوله: (حتى يعلم الله ﷻ أنه ليس في قلوبنا مَوادَّةٌ للمشركين، صناديدهم وأئمتهم وقادتهم..) ولم يأخذ رسول الله ﷺ برأيه بل أخذ برأي (أبي بكر الصديق) ﷺ، وهو الإستبقاء عليهم وأخذ الفدية منهم، ليتقوّوا بها على الكفار، ولعلّ الله يهديهم، ثم نزل القرآن موافقاً لرأي عمر ﷺ(١)، وهو قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال](٢).

٣. وهذا موقف خامِسٌ آخر: «**عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا مَاتَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ**

---

(١) لكنِّي الآن لي رأي آخر والذي بيَّنْتُه في كتاب: (نقض فكرة التطرّف) وخلاصَتُهُ، أن هذه الآية المباركة فيها عتاب للمسلمين، بسبب استعجالهم في أَسْرِ الكفار طمعاً في الفدية، وليس بسبب الإستبقاء عليهم بعد الأَسْر!

(٢) أورد النَّيْسابوري بسنده حول هذا الموضوع، أربع روايات مختصرة ومطوَّلة، وقال عن الرواية الرابعة المطوَّلة: رواه مسلم في الصحيح، أنظر: (أسباب النزول) النيسابوري، ص١٣٤ و١٣٥، وكذلك روى السيوطي روايتين إحداهما عن (أنس) وأسندهما إلى (أحمد) وغيره، والثانية عن (ابن مسعود) ﷺ، وقال: رواه أحمد والترمذي والحاكم، أنظر: (لباب النقول في أسباب النزول) ص١٣٠، رقم: ٤٥٤ و٤٥٥. وانظر صحيح مسلم: ٥٨/١٧٨٣، الجهاد والسِّير.

فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ الله ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ، وَقَالَ أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ! فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ: إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ، يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا، قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيراً حَتَّى نَزَلَتْ الْآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةٌ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا...﴾ - إلى قوله - ﴿...وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ۝٨٤...﴾ [التوبة]»، (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ برقم: (٤٦٧١)).

والآن إذْ وَضَحَ بجلاءٍ أنَّ لغير الأنبياء عليهم السلام من أهل الإيمان والصّلاح حظّاً(١) في كلّ من:

أ - رؤية الملائكة.

ب - الرؤيا الصّالحة.

ج - الإلهام (العِلم اللَّدُنِّي).

ننتقل إلى المطلب الثاني من هذا المبحث الرابع:

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) كلّ بحسب إيمانه وتقواه، وحَسْبما تقتضيه له حكمة الله الحكيم، ورؤيةُ الملائكة أَنْدَرُ الثلاثة.

المطلب الثاني:
الفرق بين الأنبياء عليهم السلام وغيرهم من الصّالحين، في رؤية الملائكة، والرؤيا، والإلهام

أ) رؤية الملائكة:

أما بالنّسبة لرؤية الملائكة، فالفرق بين الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام، وغيرهم من الصّالحين ـ أي الفرق الأساسي والأهم ـ هو:

أن الملائكة يأتون الأنبياء عليهم السلام، بالإضافة إلى التبشير وغيره، بالوحي ورسالات الله التي كلَّفهم الله تعالى بتبليغها للناس، ولكن غيرهم تأتيهم الملائكة، سواء كلَّمتهم أم أَرَتْهُم أَنْفُسَها (بعد تَمثُّلها) فَحَسْبُ، لأغراض أخرى، كالتبشير والتشجيع على الطاعة وغير ذلك.

والأدلّة على أن الملائكة لا تأتي لغير الأنبياء عليهم السلام بالوحي ورسالات الله، كثيرة منها قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل]، والمراد بالروح في الآية هو الوحي، كما قال تعالى في الآية (٥٢) من (الشورى) بعد أن بيَّن في الآية التي قبلها طرق إيحائه إلى الأنبياء عليهم السلام وكلامه معهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾.

وبناءً عليه:

فالروح التي ينزِّلها الله تعالى بواسطة الملائكة على الصفوة المختارة

من عباده عليهم السلام، هي: كتابه الذي يُعلِّمنا الإيمان، ونوره الذي نهتدي به إلى صراط الله المستقيم.

أما غير الأنبياء: فهذه (مريم) رضي الله عنها، وهي الشخصيَّةُ الوحيدة التي كلَّمَتْها الملائكة في القرآن غير الأنبياء عليهم السلام، فالملائكة بشَّرتها باصطفاء الله وتطهيره لها، واصطفائه إيّاها على نساء العالمين، وكذلك بشَّرتها بابنها عيسى عليه السلام، كما في الآتيتين (٤٢ و٤٥) من (آل عمران).

وكذلك الأحاديث التي ذُكِرَتْ فيها رؤية الصَّحابة رضي الله عنهم للملائكة، لا تعدو كونها بشارةً وتشجيعاً على الطاعة وإرشاداً للخير.

ب) الرؤيا الصّالحة:

وأما بالنّسبة للرؤيا، فرؤيا الأنبياء عليهم السلام وحيٌ من الله تعالى، ورؤاهم كلُّها صالحة صادقة، ولكن غيرهم ليسوا كذلك، فلا تعتبر رؤياهم وحياً ـ بالمعنى المشهور المتبادِر إلى الذهن ـ لأنَّ الوحي مُختَصٌّ بالأنبياء عليهم السلام، وكذلك ليس بالضرورة أن تكون كل رؤاهم صالحة وصادقة، بَلْ قد تكون أضغاث أحلامٍ، أو تَحْزيناً من الشيطان.

ومِمّا يُستدلُّ به على أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام نوعٌ من الوحي:

أولاً: قوله تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه الصلاة والسَّلام مخاطباً ابنه البارّ إسماعيل عليه السلام، وجواب إسماعيل له:

﴿...فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات].

إذ لولا أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحيٌ، لما أَقْدَمَ خليل الله عليه الصلاة والسَّلام على ذبح ابنه الوحيد، بناءاً على رؤيا رآها في النوم!

وكذلك لما أجابه إسماعيل عليه السلام بقوله: ﴿...يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ...﴾ حيث اعتبر إسماعيلُ ـ بتعليم أبيه إياه ـ أن رؤيا ذبحه إيّاه، أمرٌ ربّانيٌ واجِبُ التنفيذ.

ثانياً: قوله تعالى:

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ...﴾ [الفتح: ٢٧].

وبما أن الصَّحابة ﷺ كانوا يعلمون أن رؤيا رسول الله ﷺ وحي وصادِقة لا خُلْف فيها، لِذا دُهِشوا واستغربوا لعدم تَحَقُّق رؤياه ـ حسب ظنهم ـ في السنة السادسة التي خرجوا فيها بنية زيارة البيت الحرام وأداء العمرة، ولكن المشركين صَدُّوهم، ثم تمخَّضَ سَفَرُهم عن (صلح) سُمِّي فيما بعد بـ(صلح الحُدَيبية)، حيث أخبرهم رسولُ الله ﷺ بأنه رأى في المنام أنهم ذهبوا إلى مكة وطافوا بالكعبة، لكن هو لم يحدِّدْ السَّنة، قال (السيوطي) في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ...﴾:

«أخرج الفَريابي وعبد بن حميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: أُري النبي ﷺ وهو في الحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين مُحلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين، فلما نحر الهَدْي بالحديبية، قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُۥ...﴾[الفتح: ٢٧]»[1].

هذا وجرى هذا الحوار الذي ننقل طرفاً منه، بين عمر ﷺ ورسول الله ﷺ حول نفس الموضوع، يقول عمر ﷺ:

«فأتيتُ نبيَّ الله ﷺ فقلت: أَلَسْت نَبِيَّ الله حقاً؟ قال: بَلى، قلت: أَلَسْنا على الحق وعَدوُّنا على الباطِل؟ قال: بلى، قلت فَلِمَ نُعْطي الدَّنِيَّة في دِيننا إذاً؟! قال: إني رسول الله ولَسْت أَعْصيه وهو ناصري، قلت: أو ليس كنت تُحَدِّثُنا أَنّا سنأتي البَيْت فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتك أَنّا نأتيه

---

(١) أنظر: (لباب النقول) ص٢٣٧، رقم: ٨٣٩، وأنظر: (جامع البيان) للطبري (٦٨/٢٦)، و(دلائل النبوّة) للبيهقي (١٦٤/٤)، و(الإستيعاب في بيان الأسباب) ج٣ ص٢٥١، إذ قال المؤلِّفان: قلنا: وهذا مرسلَ صحيح الإسناد.

العام؟! قال: قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومُطَوِّفٌ به... (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٢٧٣١)).

ثالثاً: قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عند حديثها عن كيفية بدْءِ الوحي:

«**أَوَّلُ مَا بُدِىءَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرؤيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ...**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٣)).

رابعاً: وقولها رضي الله عنها عند سَرْدها قصة حادثة الإفك:

«**... وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ وَأَنَّ الله مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي وَلَكِنْ وَالله مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الله مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْياً يُتْلَى وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ الله فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُول الله ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي الله بِهَا...**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٤٧٥)).

وحديث أم المؤمنين رضي الله عنها واضح الدلالة على أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام، نوعُ من أنواع الوحي.

هذا بالنّسبة لكون رؤيا الأنبياء عليهم السلام نوعاً من الوحي، وأما بالنِّسبة لكون رؤاهم كُلِّها صالحةً وصادِقةً، وكونهم بعيدين عن الأحلام سواء منها ما كان أضغاث أحلام وحديث نفسٍ، أو كانت تَحْزيناً من الشيطان، فالدليل عليه هو:

أن الحُلُم كما قال النبيُّ ﷺ من الشيطان: «**الرؤيا من الله والحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٨٤) عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه، والأنبياء هم أبعد الناس عن الشيطان ووساوسه، يقظةً ومَناماً، وذلك لأنهم عليهم الصلاة والسلام، هم أعبد الناس لربِّهم وأقربهم إليه، وقد قال جلَّ شأنه لإبليس بعد أن هَدَّد (آدم) عليه السلام وذريته بالإغواءِ والإضلال:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر].

ج) الإلهام (العلم اللَّدُنِّي):

والفرق بين الإلهام الذي يَتَلقّاهُ الأنبياء عليهم السلام وما يتلقّاه غيرهم من الصّالحين كذلك، هو: أنَّ ما يُلْهَمُ به أولئك الصَّفوة المختارة عليهم الصلاة والسَّلام، يعتبر نوعاً من الوحي المعصوم، ولكن غيرهم ليسوا كذلك.

والدليل على هذا هو:

أن النبيَّ ﷺ كان يُشاورُ الصَّحابة رضي الله عنهم فيما يَعْرِضُ له من القضايا التي لم يأته الوحي بشأنها ويجتهد فيها، فإذا أخطأ فيها ولم يُصِبْ، جاء الوحيُ مُصَحِّحاً ومُنَبِّهاً، وما لم يَسْتدْرِكْهُ عليه الوحي، فهو كان مُصيباً فيه، وبناءً عليه:

فكل ما كان النبيُّ ﷺ يتكلَّم فيه بشارةً وإنْذاراً، وأَمراً ونَهْياً، وتحليلاً وتحريماً، من أمور الدِّين[1]، فهو من الوحي الذي كان مُطْمَئِنّاً إليه، بسبب إِلْهام الله تعالى إيّاه، وإلقائه في قَلْبِه المبارك.

وأبرز مثالٍ في هذا المجال هو (صلح الحديبية) الذي لم يشاورْ ﷺ في إبْرامِهِ أحداً، بل أبْرمَهُ وأمضاه بالرغم من كراهية أغلبية الصحابة رضي الله عنهم، لما كانوا يرون فيه من شروطٍ مُجْحِفة!

وقوله ﷺ لعمر رضي الله عنه لما قال له: (فَلِمَ نُعْطي الدَّنيَّةَ في ديننا إذاً؟!): «**إني رسولُ الله ولَسْتُ أَعْصيه وهو ناصري**»[2] واضِحُ الدلالة على أنه ﷺ في موقفه ذلك، كان مُتَّبِعاً لنوعٍ من الوحي المُلْزِم، والظاهر أن ذلك الوحي كان من نوع الإلهام والإلقاء في القلب، وإلّا فلو كان وحياً مُباشِراً من جبريل عليه السلام، لذكره للصحابة رضي الله عنهم، كما كان يفعل ذلك في مواطن أخرى، عندما ينزِل عليه جبريلُ بجوابٍ على سؤالٍ أو حَلّ لِمُعْضِلةٍ.

---

(١) وأما ما يتكلّم فيه من أمور الدنيا برأيه واجتهاده، فله حكمٌ آخر، كما يدلُّ عليه قوله ﷺ: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**» رواه مسلم: ٢٣٦٣.

(٢) أشرنا قبل قليل إلى محلِّ (صلح الحديبية) في (صحيح البخاري).

وأما ما هو مَحلُّ الرؤيا والإلهام، بالنِّسبة لغير الأنبياء عليهم السلام من الصّالحين؟!

فنقول باختصار:

بما أن الله أنزل كتابَهُ الحكيم تبياناً لكل شيء نَحْتاجه في حياتنا، وبيَّن رسولُ الله ﷺ ما يَحْتاجُ من الكتاب إلى بيان، وخاصة في مجال التطبيق العملي، في سنته وسيرته المباركة العطرة، لِذا: فلا يجوز أخذ أيِّ حكم شرعي من غير الكتاب والسنة اللَّذَيْن ضَمِنَ تعالى لنا الفوزَ العظيم، إذا ما التزمْنا بهما، والذي عَبَّر عنه بإطاعة الله والرسول ﷺ، كما قال: ﴿...وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

وعليه:

فلا يجوزُ الإستنادُ على الرؤيا والإلهام، في قضايا الأمر والنَّهي والحلال والحرام، التي تكفَّل الكتاب والسنة ببيانها، كأتم ما يكون البيان، ولكن يجوز الإستئناس والإسترشادُ والإستبصار بهما، فيما لا يخرج عن دائرة الكتاب والسنة، ولا يتصادَمُ مع أحكامهما القاطعة، إذ قد يُطْلِعُ الله الكريم عَبْدَه المؤمن من خلال الرؤيا، أو الإلقاء في القلب، على بعض من الأمور الجارية التي هو بأمسِّ الحاجة إلى التبصّر فيها، وخاصة الأمور المستقبلية، كي يكون على بصيرة من أمره.

والدليل على أنه لا يجوز الإستناد على الرؤيا والإلهام في تبنِّي المَواقِفِ، وفي مجال الأمر والنّهي، والحلال والحرام، هو:

أولاً: سمَّى رسولُ الله ﷺ الرؤى الصّالحة بـ(المبشِّرات) وكذلك فسَّر قوله تعالى: ﴿...لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ...﴾ [يونس: ٦٤]، بالرؤيا الصّالحة، كما رواه أحمد والطبري عن أبي الدّرداء، إذاً: فالمهمة الأساسية للرؤيا الصّالحة، هي البشارَةُ وإدخالُ السرور في قلب المؤمن، وطَمْأَنَتُه وتبصيرُه ببعض الأمور.

ثم إن الصّحابة ﷺ مع أنهم كانوا يرون رؤىً صالحة، لم يستندوا عليها يوماً في تَبَنّي موقفٍ أو حكمٍ شرعي.

ثانياً: إنَّ عمر ﷺ بالرغم من شهادة رسول الله ﷺ له بأنه مُلْهَمٌ ومُحدَّث، وكانت له في حياة رسول الله مواقف أُلْهِمَ فيها الصَّواب ووفق للسَّداد، ولكنه لم نَسْمَع عنه أنه استند يوماً في تَبنّي موقفٍ أو إصدار قرارٍ، إلى كونه مُلْهَماً، بل كان يستند في مواقفه كغيرِهِ من الصّحابة ﷺ، إلى الكتاب والسنة والإحتجاج بالعقل والمنطق في الأمور التي للعقل فيها مجال، وأبرز مثال في هذا المجال هو رجوعه من سفره إلى الشام من (السرغ) لما سمع بانتشار الطاعُون فيه بعد أن استشار الصّحابة وقوله لـ(أبي عبيدة بن الجرّاح) ﷺ لما قال له: (أَفِراراً مِنْ قدر الله؟!):

«لو غيرك قالها يا أَبا عبيدة! نعم نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبلٌ هَبَطَتْ وادياً له عَدْوَتان، إحداهما خَصِبةٌ[1] والأخرى جَدْبَة، أَليسَ إنْ رَعَيْتَ الخصبة رَعَيْتَها بقدر الله، وانْ رَعَيْتَ الجَدْبَة رعيتها بقدر الله؟!!» رواه البخاري عن عبد الله بن عبّاس ﷺ[2].

ثم من الجلي أنه لا يجوز لأحدٍ أن يدَّعي بأنَّ رؤاه كلّها صالحة صادقة، وبأنَّ ما يقع في قلبه من الخواطر هو من الله تعالى وملائكته وليس من النفس والشَّيطان!

وإذا تأمَّلْنا الآيتين (٣٠ و٣١) من (فصلت)، واللَّتَيْن يبيِّن الله تعالى فيهما، أن الملائكة الكرام تتنزَّل على أهل التوحيد والإستقامة، نجِدُ أنَّ ما ذكره الله تعالى بأن الملائكة تُلْهِمُ به أولئك الربّانييّن المستقيمين، هو قريبٌ من محتوى الرؤيا الصّالحة وشبيه به جِدّاً، إذ هو عبارة عن:

١ ـ إزاحة الخوف: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾.

---

(١) خَصِبَ يَخْصَبُ خِصْباً: كثر فيه العُشْبُ والكَلأُ، فهو خَصِبٌ وخَصيبٌ. المعجم الوسيط، ص٢٣٧.

(٢) صحيح البخاري: ٥٧٢٩ (باب ما يذكر في الطاعون).

٢ ـ إزالة الحُزْن: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾.

٣ ـ التبشير بالجنّة: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

٤ ـ التأكيد بأنهم ـ أي الملائكة ـ أولياء لهم في الدنيا والآخرة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

٥ ـ الإخبار بأن الجنّة فيها كل ما يشتهونه ويتمنّونه: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

٦ ـ والتبشير بأنهم سيكونون في الجنة ضيوفاً على الله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

إذاً: فالرؤيا الصّالحة والإلهام متشابهان، وان كان هذا لا يعني بأنَّ دورَ الرؤيا والإلهام مُنْحَصِرٌ في مجال مُحَدّدٍ أو مجالين لا يتعدّانهما، بل لهما مجالات متعدِّدة، ولكنَّ كُلَّها ذات ارتباطٍ بتثبيت الإيمان، وطَمْأَنَةِ القلب، والتَبْصير في أمور الدين، والإطِّلاع على بعض الحوادث المستقبلية الدنيوية، وبعض أحوال البرزخ والآخرة.

ونختم هذا المبحث الرابع والأخير، بهذه الملاحظات الثلاث:

الأولى: سبب عدم جواز الإستناد ـ في تبنّي المواقف ـ على الرؤيا، بالنّسبة لغير الأنبياء عليهم السلام، شيئان:

أ ـ عدم الإمكان بالجَزْم على أنَّ ما رآه الإنسانُ في النَّوم، هو فِعْلاً رؤيا وليسَ حُلُماً.

ب ـ تعبير الرؤيا وتأويلها لا يعلمه على حقيقته التي لا تشوبها شائبة الخطأ والشك، إلّا الأنبياء عليهم السلام، ومِمّا يُسْتَدلُّ به في هذا المجال:

١) أنَّ الله تعالى جعل معرفة تعبير الرؤيا معجزةً ليوسف بن يعقوب عليهما السلام، وعدَّها جلَّ وعلا من أعظم نعمه عليه، كما جاء ذكر ذلك في أربعة مواضع من سورة (يوسف):

الأول) على لسان يعقوب عليه السلام مخاطباً ابنه يوسف، بعد أن قصَّ عليه رؤياه المتمثّلة في: رؤيته الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدين له، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف].

الثاني) في سياق ذكره سبحانه، تمكينه ليوسف عليه السلام في الأرض بعد أن اشتراه عزيز مصر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف].

الثالث) على لسان يوسف عليه السلام، في خطابه مع رفيقيه في السجن بعد أن قصّا عليه رؤييهما ليُعَبِّرهما لهما: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف].

الرابع) كذلك على لسان يوسف عليه السلام نفسه، وفي معرض ثنائه على الله تعالى بعد أن نجّاه الله الكريم من السِّجن ثم مكّن لَهُ في أرض مصر، بعد تولّيه مسؤولية خزن وتوزيع الأرزاق ـ أي أمور الإقتصاد بلغة العصر ـ، وجمع له شَمْل عائلته من الوالدين والإخوة وغيرهم: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف].

٢) جاء في (صحيح البخاري) أن رجلاً أتى رسولَ الله ﷺ وقَصَّ عليه رؤيا رآها، فاستأذنه (أبو بكر الصديق) رضي الله عنه، أن يُعَبِّرَها فأذِنَ له النبيُّ ﷺ، فلمّا عَبَّرها، سأَلَ رسولَ الله فقال: «**فأخبرني يا رسول الله**

بأبي أنت، أَصَبْتُ أمْ أخطأتُ!» فأجابه النبيُّ ﷺ: «**أَصَبْتَ بَعْضاً، وأَخْطأْتَ بَعْضاً**» (رَوَاهُ البُخَاريُّ برقم: (٧٠٤٦)).

إذن: فحتى الصِّديق الأعظم وخليفة رسول الله الأول (أبو بكر الصديق) رضي الله عنه كان قد يُخْطيء في تعبير بعض الرؤى، وإذا كان الخطأ في تعبير الرؤى، من أعظم الناس إيماناً بعد الأنبياء عليهم السلام وأقربهم إلى رسول الله ﷺ وأحبِّهم إليه[1] جائِزاً، فهو بلا شك من غيره أجوز وبهم أَجْدَر!

ولكن هناك نوعٌ واحد من الرؤى، بإمكان الإنسان أن يَجْزِمَ بأنه رؤيا صالحة، وأنه من الله تعالى ولا دَخْلَ للشيطان فيه، وهو على الأغلب واضح التأويل والمعنى، وهو:

رؤية رسول الله ﷺ في المنام، وذلك لأنَّ الشّيطان لا يمكنه التمثُّل والتَشَبُّهُ برسول الله ﷺ والتكلُّم باسمه، حتى في المنام، والدليل على هذا، هذه الأحاديث:

١ ـ «**عَن أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه**، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَام فَسَيَرَانِي فِي الْيَقَظَةِ، وَلَا يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٩٣)).

٢ ـ «**عَنْ أَنَس** رضي الله عنه **قَالَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَام فَقَدْ رَآنِي، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَخَيَّلُ بِي**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٩٤)).

٣ ـ «**عَنْ أَبُو قَتَادَةَ** رضي الله عنه**، قَالَ: رَسُولُ الله ﷺ: مَنْ رَآنِي فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ**» (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٩٦)).

٤ ـ «**عَنْ أَبِي سَعِيدِ الخُدْرِيّ** رضي الله عنه **سَمِعَ النَّبِيّ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ رآني فَقَدْ رَأَى الحَقَّ، فَإِنَّ الشَّيطَانَ لَا يتكوَّنُنِي**») (رَوَاهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٩٧)).

ولكن قيَّد (إبن سيرين) رحمه الله تعالى رؤية الرسول ﷺ في المنام

---

(١) انظر القصة بطولها في (صحيح البخاري): ٥٧٢٩.

بكون الرَّسول ﷺ على صورته التي كان عليها، كما رَوَاهُ عَنْهُ البُخَارِيُّ برقم: (٦٩٩٣).

الثانية: وسَبَبُ عَدَمُ جواز الإستناد في تبنِّي المواقف على الإلهام وحديث القَلْبِ، هو:

أنه لا يمكن لأحدٍ ـ سوى الأنبياء عليهم السلام ـ إدّعاءُ التمييز والفصل الدقيق بين الخواطر التي ترِدُ على قَلْبه: أيٌّ منها خاطِرٌ مَلَكيّ رحمانيٌّ، وأيٌّ منها وسوسة شيطانية، بل يجب على المسلم أن يَزِنَ كلَّ ما يَرِدُ على قلبه من الخواطِر، وما ينقدح في ذهنه من الأفكار بميزان الشريعة (الكتاب والسنة) لتمييز ما هو صحيحٌ وربّاني منها، مِمّا هو سقيم وشيطاني، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**وقد تركتُ فيكم ما لن تَضِلُّوا بعده، إن اعتصمتم به، كتابَ الله**» (رَوَاهُ مُسْلِمٌ برقم: (١٢١٨)، وليست سنة النبي ﷺ ـ كما ذكرنا مِراراً ـ سوى بيان كتاب الله الحكيم وكيفية تطبيقه، كما قال تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

الثالثة: لغير أهل الإيمان أيضاً نصيبٌ ما في الرؤيا والإلهام، وذلك بدليل:

١) ـ أنَّ الرؤى الثلاث التي رآها كلٌّ من رفيقي (يوسف) عليه السلام في السِّجن، و(المَلِك) ـ أي ملك مصر يومئذٍ ـ كانت رؤىً صادقة، وتحقَّقت على أرض الواقع، كما عبَّرها لهم يوسفُ عليه السلام، كما قال تعالى عن رؤيبي رفيقيه: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف].

وقال عن تأويل يوسف لهما: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف].

وقال تعالى عن رؤيا الملك: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ

يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف].

وقال عن كيفية تعبير يوسف لها: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف].

هذا من حيث الإستدلال بالنقل، ومن حيث الإستدلال بالعقل، نقول:

إن رؤية غير الصالحين والكافرين، رؤىً صادِقةً، من الأمور التي توجد في كل عَصْرٍ وجميع المجتمعات.

٢) ـ وأمّا الإلهام والذي سمّاه (هنري بَرجسون) بـ(الحَدْس) ويقصد به حصول العلم والمعرفة بشيءٍ ما، فَجْأَةً في القلب من غير تفكير، فهو أيضاً مِمّا للبشر عموماً فيه نصيبٌ، ويَعْزو كثيرٌ من العلماء عُثُورَ المكتشفين والمخترعين على اكتشافاتهم، إلى هذه الخاصية لدى الإنسان.

ولكن ما يتوصّل إليه غيرُ الصّالحين، أو الكفّار من المعارف عن طريق الرؤيا والإلهام، هو مِمّا يَرْتبط بالأمور الدنيوية التي قلّما يفكّرون في غَيْرها، ولهذا وَصَفَ رسولُ الله ﷺ رؤيا المؤمن بأنّها صالحة، لأنّ رؤيا المؤمن، تكون فيما يخدم دِينَهُ، ويُثبِّت إيمانَه، ويُوَثِّقُ صِلَتَهُ بالله تعالى، ويزيده رَغْبةً في الآخرة، وباختصار: مِمّا يُساعده في النجاح والفوز في ابتلاءِ الله وامتحانه إيّاه.

وربّما يَسْتَغْرِبُ البَعْضُ من كون الكفّار ذَوي نَصيبٍ في الرؤيا والإلهام، والَّلذَيْنِ هما من عمل الملائكة بلا شك! ولكن يزولُ الإستغرابُ إذا عَلِمْنا:

أولاً: أن هذه الحياة الدنيا محلُّ ابتلاءٍ واختبار، لِذا سوَّى الله تعالى فيها ـ من حيث الإستفادة من النِّعَمِ والإمكانيات المتوفرة فيها ـ بين الأبرار

والفجّار، وذلك لكي لا يكون لأحدٍ أي عُذْرٍ، وقد بينّا هذه المسألة في السابق في الفصل الرابع من هذا الباب ـ أي الكتاب الخامس ـ وذلك عند الحديث عن الإعجاز التاريخي في القرآن العظيم، لِذا نكتفي هنا بالتذكير بهذه الآيات الثلاث، التي يوضِّح الله تعالى فيها، أنه يُعينُ ويُمِدُّ كلاً من طلّاب الدنيا وطلّاب الآخرة:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء].

وسمّى الله تعالى إمدادَه لكلا الفريقين (عَطاء) وليس فَضْلاً أو رحمة، لأن العطاء يشمل الممدوح والمذموم، بخلاف الفضل والرحمة، إذ هما مختصّان بما هو ممدوح فقط.

ثانياً: أخبر سبحانه في أكثر من آية بأنه يستجيبُ دعاءَ كُلِّ مَنْ دَعاهُ في الشدَّة، مُسْتَنْجِداً به ومُسْتَغيثاً به، بِغَضِّ النظر عن كونه مؤمناً أو كافراً، وهذه بعض الآيات بهذا الصّدد:

١ ـ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل].

٢ ـ ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام].

٣ ـ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان].

نعم، كما أن الله تعالى يستجيبُ دعاءَ الكفّار إيّاه، عند وقوعهم في الشدَّة، كذلك الحال بالنسبة للرؤيا والإلهام.

ثم يجِبُ إلّا نَنسى بأن كلّاً من الرؤيا والإلهام، له علاقة بالروح

والجانب الباطني والمعنوي من الإنسان، وهذا مِمّا يشترك فيه البشر كلّهم!

ولكن هذا لا يعني بأن أهل الكفر يتساوون مع أهل الإيمان في الرؤيا وفي الإلهام، كلاّ بل بينهما بون شاسِعٌ وفرق كبير، وذلك لأن القلب كلّما كان أكثر صفاءً وأطهر وأنور، كان أكثر قابلية واستعداداً لِتَلَقِّي واستقبال ما تُفِيضُهُ الملائكةُ الكرامُ عليه من المعارف والأنوار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ...﴾ [فصلت]، ومن الواضح أن القلب إنّما يَصْفُو ويطهر ويتنوَّر بالإيمان والتقوى والطاعة، ولهذا فكلّما ازداد الإنسانُ إيماناً وتقوىً وطاعةً، كلما ازداد قُرْباً من الملائكة الكرام، وانسجاماً معهم لِشبهه بهم، ونتيجةً لذلك ينال منهم ما هو صادر عنهم من الخير والنور بإذن الله تعالى، يقظةً ومَناماً.

وأما أهل الكفر فهم من جرّاء اكتسابهم الكفر والمعاصي، صاروا شبيهاً بالشيطان وقريباً منه، ومن ثَمَّ أصبحت قلوبُهم أعشاشاً للشياطين، فتأوي إليها وتبيضُ وتُفْرِخُ!، كما قال جلَ شأنه بالنِّسبة لملازمة الشياطين للكفار: ﴿...يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى بالنِّسبة لعجز الشيطان تجاه أهل الإيمان المتوكلين على الله، وبعكسه هَيْمَنَتِهِ على الكفار التابعين له والمستسلمين لوساوسه: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل].

لِذا: يكون حظُّ غير أهل الإيمان في الرؤيا والإلهام، بالنِّسبة لأهل الإيمان، قليلاً وضئيلاً، وذلك بالإضافة إلى كونه مقيَّداً بأمور الحياة الدنيا، كما قلناه سابقاً.

ولكن بالمقابل، فلأهل الكفر حِصَّة الأسد من الوساوس الشيطانية

وإيحائه الخبيث إليهم، لِذا نراهم تَتَفَتَّقُ أَذْهانُهم عن شتّى الحيل والألاعيب، وأنواع القول المزخرف الباطل، تجاه دين الله الحق وأتباعه الصادقين في كل زمانٍ ومكانٍ، قال تعالى بهذا الصّدد:

١ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ . . .﴾ [الأنعام: ١١٢].

٢ ـ ﴿. . .وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام].

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف].

والذي يَضْطرُّنا إلى القول بأن الكفّار لهم حَظٌّ في الرؤيا الصادقة وفي الإلهام، هو:

١) قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء]، وغيرها من الآيات التي هي مشابهة لها في المفهوم.

٢) بالنسبة للرؤيا: ما ذكره الله تعالى في سورة (يوسف) عن رؤييى صاحبي (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ في السِّجن، ورؤيا ملك مصر، وقد أوردنا الآيات من قبل، وكذلك ما نراه في الواقع من الكفّار من وجود رؤىً صادقةٍ لهم.

٣) وبالنسبة للإلهام، حُدوثُهُ في واقع حياة الكفّار وحديثهم عنه وعَزْو بعضهم اكتشاف كثير من الأسرار والعثور عليها، إليه.

وإذا قيل:

فلماذا لا نُرْجِعُ سَبَبَ ما يتحدَّثون عنه باسم (الحَدْسَ) ويَعْزون إليه عثورهم على بعض الأسرار، إلى وسوسة الشياطين، أوَ لَيْسَتْ وسوسة الشياطين أليق بهم من إلهام الملائكة؟!

نقول:

يمنعنا من ذلك شيئان:

أولاً: الإنس عموماً أرقى من الجِنِّ، وأكثر عِلْماً ومعرفةً وأوسع إطّلاعاً على أسرار الخَلق، إذاً: كيف يعلِّم الجِنُّ الإنسَ الذين هم أرقى منهم وأعلمُ؟!

ثم إن تلك الأسرار والإكتشافات تعتبر ـ قبل الإطّلاع عليها ـ من الأمور المجهولة الشبيهة بالغيب، وهذا مِمّا لا سبيل للجنِّ إليه، لِذا من الأَوْلى أن نُرْجِعَهُ ـ أي إطْلاعَ الإنس عليها ـ إلى الملائكة الذين يُعَلِّمهم الله من أمور الغيب ما يشاء.

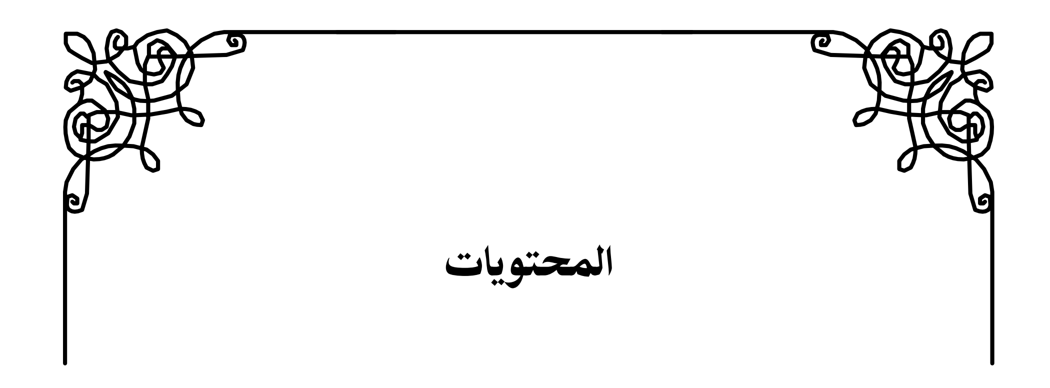
ثانياً: إن الشياطين لا يسعون إلى ما فيه خير البَشَرَ ونفعهم، دنيوياً كان أو أخروياً، لِذا فلا يمكن أن يُطْلِعوا البشر على ما فيه نفعهم ويوسوسوا به إليهم، وإنَّما هم دَيْدَنُهم الإضرارُ ونَشْرُ الفساد، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ...﴾ [النور: ٢١].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر].

والعدو لا يدفع عدوّه إلّا إلى ما فيه عَطَبُهُ وَضَرَرُه، فكيف إذا كان العدوّ إبليس اللَّعين، وذريته من الشياطين، الذين تراكمت عندهم حِيَلُ الأجيال وخِدَعُهم!!

وهنا نُنْهي هذا البحث عن الوحي، وبه نختم هذا الكتاب السادس.





المحتويات

الموضوع	الصفحة